

سلسلة مطبوعات المعهد

(٩)

صدى القلم

(مقالات مختارة في الفكر والدعوة والأدب)

محمد نعمان الدين الندوي

مدير معهد التعليم والتربية

الناشر

معهد التعليم والتربية

بالا غنج، لكناؤ – الهند

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

الكتاب : صدى القلم (مقالات مختارة في الفكر والدعوة والأدب)

المؤلف : محمد نعمان الدين الندوي

Mobile: +91-9044494099
E-mail: mnnadvi90@gmail.com

اهتم بالطبع : عبد الكريم الصديقي الندوي

Mobile: +91-9452125145

جهة النشر : معهد التعليم والتربية
بالاغنج، لكناؤ (الهند)

يطلب من:

١. المكتبة الندوية، ندوة العلماء، لكناؤ
٢. مكتبة الشباب الجديدة، شارع ندوة، لكناؤ
٣. مكتب معهد التعليم والتربية، بالا غنج، لكناؤ

MAHAD-AL-TALEEM WA-AL-TARBIA
BY: MOHD. NOMANUDDIN NADWI
(544/42-A) MARI MATA ROAD, BALA GANJ, CHOWK,
LUCKNOW – 226003 – U.P. (INDIA)

إهداء

إلى أمي العلمية[1]: "**ندوة العلماء**" (لكناؤ، الهند) التي علمتني حب الإسلام، وحب لغة نبي الإسلام: "العربية"، والتشبع بحب قائدنا ونبينا العربي القرشي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، حباً يفوق حب النفس والأهل والأولاد والناس أجمعين، كما علمتني الاهتمام بقضايا الإسلام والمسلمين.

وإلى جميع أساتذتي الذين علموني، وعلى رأسهم أستاذي الجليل العطوف الشفيق، والمربي العظيم فضيلة الشيخ **محمد واضح رشيد الحسني الندوي** الذي يرجع إليه الفضل الأكبر – بعد الله – في كل ما قمت به من أعمال تأليفية متواضعة، فلولا تشجيعه الكريم وحثه المتصل على الكتابة والتأليف لما صدر ما صدر عن هذا القلم...... فجزاه الله وجميع أساتذتي خير الجزاء وأفضله.

---

[1] المدرسة أو الجامعة التي يدرس فيها الطالب، تسمى عندنا: "الأم العلمية".


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

(سورة العلق: ١-٥)

إن الزعفـــــران عطـــــر العـــــذارى

ومـــــداد الـــــدُّويّ عطـــــر الرجـــــال

❖ ❖ ❖ ❖ ❖

ولضـــــربة مـــــن كاتـــــب ببنانـــــه

أمضـــــى وأقطـــــع مـــــن رقيـــــق حســـــام

الفهرس

كلمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله العظيم، وبعد.

فيسرني أن أقدم إلى قراء العربية الأفاضل مجموعة جديدة من مقالاتي، التي منها ما نشرت في مجلة "النصيحة"، ومنها ما تنشر لأول مرة في هذه المجموعة.

وتربط بين محتويات هذه المجموعة المتنوعة رابطة واحدة: ((رابطة التمني))... تمني عودة مجد الإسلام وعز المسلمين من جديد..، وتمني عودة ازدهار العربية، وسيادة أهلها: ((العرب)) من جديد!

وذلك حلم المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها.

وسيتحقق بإذن الله وفضله إن عاجلاً أو آجلاً...، وما ذلك على الله بعزيز، وهو على كل شيء قدير.

وصلى الله وبارك وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

محمد نعمان الدين الندوي

مدير
معهد التعليم والتربية
بالاغنج، لكناؤ (الهند)

٢٧ من شوال ١٤٣٩هـ
١٢ من يوليو ٢٠١٨م

الإسلام قضية عادلة
لكن المحامي فاشل

أسئلة حائرة تدغدغ عرض كل مسلم واع مهموم بالإسلام:

لماذا صار الإسلام في قفص الاتهام؟

وكيف أصبح في "موقف الدفاع"؟

وكيف أصبح هدفاً للرماة الجناة المجرمين؟

وكيف أصبح المسلمون رمزاً للعنف والإرهاب؟

و...... و......؟؟؟

ومن المسئوول عن ذلك؟

الجواب: المسؤول عن ذلك: شرذمة قليلة – من المسلمين أنفسهم – أو من الذين يسمون أنفسهم مسلمين – تشوه صورة الإسلام الوضاءة الجميلة البريئة بأفاعيلها النكراء، فتتيح للأعداء فرصة سانحة لاتهام الإسلام بما منه براء كبراءة الذنب من دم يوسف بن يعقوب.

نريد أن نقول بصراحة: إن إسلام "داعش" "والقاعدة" و"طالبان" و"بوكو حرام"، نقول إن إسلام هؤلاء المزعوم الذي لا نعرف له أصلاً ولا سنداً من الكتاب والسنة والسلف، أضر الإسلام إضراراً لا يوصف.

إن المنتسبين الحمقاء إلى هذه الحركات الظالمة ينفّرون من الإسلام

ويكرهونه إلى غير المسلمين بتصرفاتهم الرعناء، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

ألم يقرأ هؤلاء الأغبياء قول الرسول صلى الله عليه وسلم "إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين"، وقوله صلى الله عليه وسلم: "بشّروا ولا تنفّروا، ويسّروا ولا تعسّروا".

ولكن بالعكس من ذلك، انقلبوا رأساً على عقب، فصاروا معسرين منفرين، بدلا من أن يكونوا ميسرين ومبشرين.

ورسول الرحمة – صلى الله عليه وسلم – يقول: "ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء".

وهؤلاء جعلوا شعارهم: "اظلموا من في الأرض، ولا ترحموهم".

المسلمون الفاتحون السابقون عُرفوا في التاريخ رحماء كرماء متسامحين، فهذا المؤرخ الفرنسي "بوستاف غولون" يقول:

"ما عرف العالم فاتحاً أعدل ولا أرحم من محمد صلى الله عليه وسلم"، وهكذا سار سيرته الخلفاء الراشدون، والفاتحون الآخرون من بعده، فلم يسجل التاريخ أي حادث يدل على غير هذه الروح الإسلامية العادلة الرحيمة السمحة.

أما هؤلاء الظالمون فيسيرون سيراً معاكساً تماماً لسيرة النبي الراحم العادل صلى الله عليه وسلم.

تُفٍّ لتلك العقول السخيفة التي تصدق بحماقات وترّهات هؤلاء.

وأفٍّ لأصحابها الهُبْل.

يا أصحاب "داعش" و"القاعدة" و"بوكو حرام" وكل حركة تحذو حذوكم.

بالله! ارحمونا، أوقفوا هذا الخزي.

كفاكم عبثاً وتشويهاً لصورة الإسلام.

كفى صنيعكم شماتة بنا، وضحكاً على ذقوننا.

لا تزيدوا الطين بلة، ولا تشمتوا بنا أمم العالم.

عدتم بالخيبة، ورجعتم بالفشل، وخانكم التوفيق، ألم يأن لكم أن تحاكموا أنفسكم إلى العقل والضمير، إذا كان لكم عقل أو ضمير.

أي شريعة أو قانون أو عرف أو دين يسمح بتذبيح الأبرياء، واختطاف الطاهرات، واغتصاب العفيفات، وقتل الأطفال، وإحراق الناس وهم أحياء!!!

ربما حبكم وإخلاصكم هو الذي يدفعكم إلى ما يدفعكم إليه من......

ولكن الحب لأحد لا يكون على حساب الآخر، والإخلاص لفكرة أو تبني مبدأ لا يكون سبباً للإفلاس ضميراً أو عقلاً أو منطقاً.

أتريدون أن تذكروا في التاريخ كما تذكر الخوارج والقرامطة وغيرها من آل الضلال والإضلال، والفساد والإفساد، من سلالة الطوائف المقوتة الشاذة البائدة الهالكة الملعونة الممجوجة، التي إذا ذُكرت، ذُكرت باشمئزاز واستنكار واستبراء من شنائعها.

أيها "الداعشيون" وأيها "الطالبان" ويا أيها المتطرفون من "داعش" وأيها "الحراميون"!!!

إن أعمالكم تزيد الأمة مآتم إلى مآتم، وهزائم إلى هزائم، وفضائح إلى فضائح، وتجرعها الغصص.

وإن أعمالكم النكراء تجعل المسلمين نكرة في المحافل الدولية.

ولم يجن منكم الإسلام إلا الضرر والخزي والعار.

المسلم الصادق لا يظلم ولا يعتدي، ولكنه لا يرضى أن يعتدى عليه.

والإسلام يأمر بالقوة العادلة، لا الباغية الطاغية الظالمة، يقول سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[١]، ونهى عن الاعتداء بالقوة والظلم، فقال: ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٢].

ويل للظالمين من يوم لا حاكم فيه إلا الله ...... يوم تقام محكمة العدل الإلهية يوم العرض الأكبر، فانتظروا إنا منتظرون.



إن هؤلاء – من أصحاب هذه الحركات الهدامة – ليسوا بمريدي الخير أو الإصلاح للأمة، بل إنهم هواة الفتنة، ومدمرو بناء الأمة، ومعكروا صفو حياتها، وجالبو الطامات لها.

يجب غسل أدمغتهم من الانحراف والخلل الفكري والعقدي.

لقد حذر المفكرون والمصلحون بوجوب الاهتمام بإزالة الأفكار الخاطئة أكثر من الاهتمام بإزالة الورم والمرض من أجسادنا.

والقرآن الكريم نفسه حذر من المرض الفكري والعقائدي أعظم من

---

[١] سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

[٢] سورة البقرة، الآية: ١٩٠، وسورة المائدة، الآية: ٨٧.

المرض الجسماني، قال سبحانه: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[١]، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٢].

نعم! الإسلام قضية عادلة، ودعوة ربانية، ولكن إذا كان "المحامي" و"الداعي" من جناة "داعش"، وسفهاء "القاعدة"، ومتهوري "طالبان"، ومجرمي "بوكو حرام"، فعلى الإسلام السلام.



((الإسلام دين عالمي من أول يوم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٣]، ولا بد لحملته ودعاته من الإيمان بفكرة عالمية الإسلام، و– بالتالي – عليهم أن يحرصوا على جمال صورته وتقديمه للعالم في أبهى حلة، بحيث يكون إسلاماً محبوباً مقبولاً، إن الإسلام المشوه الذي يقدمه أصحاب الحركات المذكورة آنفاً ليس هو الإسلام الجميل الحقيقي الذي أتى به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، فالإسلام دين سلام كما يدل عليه اسمه، ودين أمن وعدل، ودين تسامح، لا ظلم فيه ولا قهر ولا عدوان: ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٤].

فكيف نقنع العالم بعدالة قضيتنا وسماحة دعوتنا، إذا قدّمنا لهم إسلاماً حاداً متشنجاً يهدد أمن الناس وحياتهم، لا بد أن يعيى العالم

---

[١] سورة البقرة، الآية: ١٠.

[٢] سورة الصف، الآية: ٥.

[٣] سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

[٤] سورة البقرة، الآية: ١٩٠، وسورة المائدة، الآية: ٨٧.

أن هذا الدين رحمة للإنسانية، يدعو إلى حياة آمنة للجميع، فيها تعارف وتحاور وتواصل، ولهذا رحبت أمم الأرض بالإسلام من أول يوم، ودخل الناس فيه أفواجاً، لأنهم وجدوا فيه السلام لأنفسهم، والأمن لحياتهم، والبناء لمستقبلهم، فالذي يريد أن يحافظ على صورته الجميلة فليحافظ على مقوماته، التي بعث بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

ومنها التعارف والتواصل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[١].

ومنها فتح الحوار والإقناع: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾[٢].

ومنها عدم الإكراه والقهر، بل الحجة والدليل: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[٣].

ومنها اعتراف إنسانية الإنسان وحقّه في الحياة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[٤].

وإن تقديم الإسلام بصورة مشوهة لهو معضلة كبرى قام بها الجهلة من الغلاة أو الجفاة، وهؤلاء كانوا سبباً في صد الناس عن الإسلام، واتهامه ظلماً وعدواناً بأبشع الأوصاف، كما قال المفكر المصري محمد

---

[١] سورة الحجرات، الآية: ١٣.

[٢] سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

[٣] سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

[٤] سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

الغزالي: "الإسلام قضية عادلة، ولكن المحامي فاشل"، إذا نحن بحاجة لمحام عن الإسلام عاقل رشيد، وبحاجة لمدع عام حكيم ذكي، أما الأغبياء والحمقى فيحتاجون إلى حجر صحي لمداواتهم، حتى يشافيهم الله من أمراضهم النفسية والفكرية.

ألا يسأل الإنسان نفسه ما سرّ انتشار الإسلام في عشرات السنوات، من سور الصين العظيم شرقاً إلى نهر الراين غرباً، أليس هذا دليلاً على عالميته وسماحته وجاذبيته، إن دول آسيا التي أسلم شعوبها لم يدخلها مقاتل مسلم ولا دبابة، ولا صاروخ، إنما دخلها تجار صالحون، دعو إلى الإسلام بأخلاقهم وتواضعهم وعدلهم، فاستجاب لهم أهل تلك البلدان، إن مهمتنا كدعاة للإسلام أن نحرص على أن يدخل الناس الجنة بالإسلام، ولو كانوا نصارى أو يهوداً، أو بوذيين أو مجوساً، فقضيتنا معهم: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ، وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

كان الرسول عليه الصلاة والسلام لما أرسل أمير المؤمنين أبا الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لقتال اليهود في خيبر قال له: "أدعوهم إلى لا إله إلا الله، وإني رسول الله، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم"، إذن ليست المهمة إنهاء الآخر بل إنقاذه من الضلال، وليس المطلوب بتعجيله إلى النار، بل إدخاله الجنة بالهداية.

لن يستجيب لنا أحد حتى يضمن الأمن والسلام لنفسه ولمستقبله، ولن ينصت لنا أحد حتى نحترم إنسانيته ونعطيه مكانته.

إن الإسلام عالمي ولو أبى الرعاع، والإسلام رحمة ولو كره الغوغاء، والإسلام حياة ولو رفض العقلاء، عمر الإسلام أطول من أعمار المنتسبين إليه، ، وآفاقه أوسع من آفاق المقصرين عن فهمه، الإسلام جميل، لكن لا يبصره أصحاب النظارات السوداء، قال المتنبي:

ومن يك ذا فم مرّ مريض
يجد مرا به الماء الزلالا))[1]

[1] بتصرف من "سنابل وقنابل" للقرني، ص: ٧ - ٨.

تاريخ الإصلاح والدعوة والتجديد لماذا يكاد يتشابه....؟

إذا قرأنا تاريخ الإصلاح والتغيير والتجديد لمختلف الشعوب والأمم التي عاشت في أزمنة وأمكنة مختلفة، وجدناه تاريخاً يكاد يتشابه ويتماثل منذ أن تكونت الجمعية البشرية إلى يومنا هذا، فكأنه تاريخ أمة واحدة لا أمم عديدة تتباين أزمنتها وأمكنتها، وتتضارب معتقداتها وتصوراتها.

نعم! فمما يستدعي العجب العجاب أن تاريخ إصلاح أوضاع الأمم والشعوب ومحاولات تغيير ظروفها يكاد يتماثل ويتساوى..، ولعل الأمر يعود إلى أن النفسية الإنسانية والفطرة البشرية – تجاه الإصلاح والتغيير والتجديد خاصة – سواء....لا فرق فيها مع اختلاف الزمان أو المكان.

تضحية وثبات وصمود وصبر على المتاعب والآلام من قبل دعاة الإصلاح والتغيير والتجديد.... في جانب!

تحدّ ومقاومة وإنكار للأفكار الجديدة، وتضييق الخناق على الذين يتبنونها ويدعون إليها ويتبعونها ومواجهتهم بشتى أنواع الاضطهاد والتنكيل من قبل مجتمعاتهم وشعوبهم... في جانب آخر.

ولا تلقى هذه الأفكار والدعوات – عموماً – نجاحاً أو انتصاراً إلا بعد أن يكون أصحابها قد أشرفوا على حافة القبور وخارت قواهم، وانهارت صحتهم، وبعد أن اعتصر الاضطهاد والتنكيل آخر قطرة من

ليمونة دمهم وحيوتهم وشبابهم، أو بعد أن انتقلوا إلى رحمة الله ليوفي لهم أجرهم!

ولا يختلف في ذلك تاريخ الشرق عن الغرب، أو زمن عن زمن.

لماذا تتكرر هذه الظاهرة التاريخية...؟ ولماذا يتشابه تاريخ محاولات الإصلاح والتغيير في كل عصر ومكان....؟؟ السبب في ذلك أن الناس يكونون قد ألفوا أفكاراً وتصورات خاصة وأنماطاً معينة من العمل والسلوك، وأحبوها، وجرت تلك.... منهم مجرى الروح والدم... وتغلغلت في أحشائهم وعروقهم، وتمكنت من أفئدتهم كل التمكن بحيث صارت جزءاً من حياتهم وكيانهم، وكأنهم رضعوا بلبانها، فلا يمكنهم التنازل عنها بحال من الأحوال، ثم ماذا....؟

يأتي دعاة الإصلاح وهواة التغيير، فيدعون إلى أفكار ومعتقدات جديدة، تكون غريبة عن أفكار القوم، وأنماط جديدة من السلوك والعمل، يعتبرها الناس شاذة عجيبة، غير منسجمة مع عقليتهم وطبيعتهم ومزاجهم وعواطفهم.

هنالك يقع الصدام بين دعاة الأفكار الجديدة، وبين المحافظين المتشبثين بالأفكار القديمة المتوارثة، فلا يبغون عنها حولاً، ولا يرضون عنها بديلاً.

يعتقد القوم أن هذه الأفكار تتعارض مع ما درجوا عليه من أفكار ومناهج وشرائع...، ويعتبرون الداعين إليها دخلاء غرباء، وأشخاصاً غير مرغوب فيهم، فيكرهونهم، ويكرهون أفكارهم، ويبذلون ما في وسعهم لمنع انتشارها في الناس، ويواجهونها بكل ما أوتوا من قوة ومكر ونفوذ.

وتكون المعارضة والمواجهة شديدة بقدر ما تكون الأفكار الجديدة غريبة عن أذهان القوم، فكلما كانت الأفكار أشد غرابة كانت المناهضة والمقاومة أشد، والإنكار والكره – للأفكار وأصحابها – أشنع!

هذا ما حدث مع جميع الرسل والمصلحين، ورجال التجديد ودعاة التغيير، وقد ذكر ذلك القرآن الكريم مستنكراً ناعياً على الأمم فعلتهم هذه: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

وكما جاء في الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما حدث ورقة بن نوفل بما نزل عليه من الوحي، قال: "ليتني حيا إذ يخرجك قومك"، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "أو مخرجي هم؟"، قال: "نعم! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي".

وذلك لأن الإنسان أشد ما يتعلق بما ألف من التصورات والتقاليد وصور السلوك، وأعظم حرصاً على الحفاظ عليها والتقيد بها أو أكثر اقتناعا بها، وعضا عليها بالنواجذ، وأكره ما يكره التنازل مما نشأ وشب عليه من الاعتقاد والعمل.

فإذا ما رأى أو سمع دعوة إلى أفكار ومبادئ جديدة، أبى واستكبر، وثار وفار، وأرغد وأزبد، واعتبر الدعوة نشازاً، وحرباً على سابق أفكاره ومبادئه، وسبباً لإقلاق راحته، وهدماً لهدوئه، وتعكيراً لصفوه وقضاء على أمنه فكأنها – الدعوة – أصابت مقتله...، فهب لنصرة مألوفاته، وتصدى لكل ما يقلل من شأنها، وعارض بشدة ما يضادها، ولم يبال في سبيل ذلك بأي ثمن يدفعه ما دام في ذلك حفظ ما

ألف ، واستمرار ما أحب ، وثبات ما نشأ وشب عليه من الأفكار والمبادئ والطقوس والعادات.

والسؤال : لماذا يطارد الإنسان الأفكار الجديدة؟ يحلل ذلك الكاتب المصري أحمد أمين قائلاً :

"إن المخ يشعر أنه إذا قبل الأفكار الجديدة ، اقتضته تعديلاً في نظامه ، وتجديداً في أوضاعه ، وتغييراً في نسيجه ، ومجهوداً كبيراً في إعادة ترتيب القديم والمألوف ، وهذه عملية شاقة لا يرتضيها العقل في سهولة ويسر ، ولاسيما أنه يشعر أن الفكرة الجديدة ستكلفه إعادة تقويم الأشياء ووزنها وزناً جديداً ، وهو قد استنام إلى ما حدث وألف ما كان.

ومخ الإنسان – وهو مركز عقله – أحدث الأعضاء وجوداً في الإنسان ، ومادته التي يتكون منها رخوة هينة لينة ، لم تتصلب تصلب الأعضاء القديمة في أسلافنا من الحيوان كاليد والرجل ونحوهما ، ومن أجل هذا كان المخ أشد الأعضاء حساسية بالتعب وكراهية لمداومة العمل ، وليس من الناس إلا القليل القادر على إعمال العقل وتحريك المخ زمناً طويلاً ، والفكرة الجديدة تكلف المخ عناء شديداً في قبولها ، لما يترتب عليها من أعمال كثيرة ، ولذلك هو يرفض كل هذا العناء ، فيرفض الفكرة ويستريح ، ولذلك كان أكثر الناس يخافون التفكير ، لأنه مؤلم لهم ، فما يبدأ فيه حتى يشعر بانقباض في صدره ، وصداع في رأسه ، وما أقل من يجد في التفكير لذته".

ومن هنا... ندر الأذكياء والعباقرة والنوابغ في كل أمة وفي كل عصر.

وليس السبب أنهم لا يولدون إلا نادراً...؟! بل نبوغ النوابغ وذكاء

الأذكياء لا يكاد يجد مجالاً أو فرصة للظهور... إما لنقص في التربية، فكما يقال: كم من عباقرة وأذكياء كمولانا آزاد أو إقبال أو محمد عبده أو شوقي يولدون....، ولكن لا يجدون من التربية أو التعليم أو التشجيع ما يبرزون به مواهبهم ويصقلون به صلاحياتهم الكامنة، فلاهم أنفسهم – أصحاب المواهب – يكتشفون أنفسهم، ولا غيرهم يتعرفون على ما وهبهم الله من الذكاء غير العادي أو النبوغ المتميز، فيموتون كما ولدوا.. دون أن يستفيدوا هم أنفسهم بمواهبهم أو يفيدوا غيرهم بها (ولله في خلقه شؤون).

وكذلك من أسباب ندرة الأذكياء: ندرة الشجاعة في الجهر بالحق أو اعتقاده، فالذكي أو العبقري أو المصلح والمجدد أحياناً لا يكاد يجد عنده من الشجاعة وقوة الاحتمال والصبر ما يحتاج إليه لتقديم أفكار وتصورات جريئة جديدة تصادم – تماماً – المألوف من أفكار وتصورات الناس، فتموت الأفكار والتصورات الجديدة – في مهدها – عند أصحابها الأذكياء الموهوبين، الخائفين من ردود فعل المخاطبين، من الإيذاء أو الاتهام أو التجريح وما إلى ذلك.

فيحرم الناس – هكذا – الاستفادة من إبداعات الأذكياء والعباقرة... فالجانبان أصحاب الذكاء والمخاطَبون لا يسلمان من التبعية... على أن خطأ الجانب الأول أصحاب الذكاء والنبوغ أقل وأخف... وهو قلة الشجاعة بالجهر بما يلهمون من الأفكار الجديدة...، بينما جناية الجانب الثاني الذي يمثل القوم أدهى وأمر، لأنه هو الذي يعرقل ويصد ويمنع ويفرش الأشواك في سبيل الأذكياء والعباقرة، الذين يبدعون أو يلهَمون (أو يُوحَون) أفكاراً وتصورات جديدة ويدعون إليها.

وليس معنى ما مضى أن الأفكار الجديدة تعارض – بفتح الراء – مائة في المائة، وأن المصلحين ودعاة التغيير يخفقون تماماً ولا يجدون أي تجاوب أو تعاون أو مناصرة ممن يدعونهم إليها، لا....

بل يجدون شيئاً من الاستجابة والترحيب بما يدعون إليه، وإن أكثر من يناصر هؤلاء المصلحين والمجددين: الشبابُ... لأن الشباب عادة تكون عقليتهم مرنة وغير جامدة، صالحة للترحيب بشيء جديد، والحقيقة أن معظم الحركات والدعوات (بل نكاد نقول جميعها) قامت على أكتاف الشباب وتقدمت بعواطفهم وقوتهم ونضالهم، وقد أشاد الرسول صلى الله عليه وسلم بتعاون الشباب في بداية دعوته قائلاً: حالفني الشباب وخالفني الشيوخ.

وكذلك يجد المصلحون والمجددون ورجال الأفكار الجديدة، تجاوباً ممن يرى فيها – من الطبقات والأفراد المستضعفين – تحقيق بعض مصالحهم، فيؤيدونها نظراً لما يطمعون فيها من منافع ومغانم.

ومن هنا.... فإن عظمة دعاة الإصلاح والتغيير تكمن في الجهر بالحق واحتمالهم لأنواع من الآلام والمتاعب في سبيله أكثر منها في اهتدائهم إلى الحق أو الأفكار الجديدة عبر الإلهام أو بفضل العبقرية، لأن الصدع بالحق والدعوة إليه أو إلى الجديد من التصورات لا يقوم بذلك إلا الجرآء الشجعان المغامرون الذين يعرضون نفوسهم للمخاطر والتضحية بالنفوس والنفائس والاستعداد الكامل لتحمل الأذى والعناء.

ومعلوم أن التضحيات التي يقدمها الجاهرون بالحق والدعاة إلى الإصلاح والتغيير لا تذهب سدى، بل تثمر ولو بعد حين، وتبرد المقاومة

ثم تموت، وتروج وتسود الأفكار والتصورات الجديدة، وينتصر الجيل الجديد الذي كان رحب بها في مبدأ أمرها.

وهذا تاريخ كل دعوة — أو معظم الدعوات — إلى الإصلاح والتغيير والتجديد عبر المسيرة الإنسانية الضاربة في القدم.

والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

العرب: بعض خصائصهم وسر عزهم

في ضوء النصوص والآثار

تمتاز الأمة العربية بشمائل وخصائص ترفع شأنها، وتعلي قدرها، بل وتجعلها شامة بين غيرها من الأمم والشعوب والجنسيات، فكأنها — الأمة العربية — الغرة في وجه الفرس، والتاج على رأس الملك.

فإنها توصف — بحق وجدارة — بكونها أمة العقل والبيان والاستيعاب.

كما أن من صفاتها: الكرم والشجاعة وعزة النفس ونصرة المظلوم، وأكثر ما كان يثير العربي إهانته وإذلاله، أو إهانة أحد أفراد القبيلة.

يقول الإمام الندوي (١٣٣٢ -١٤٢٠هـ) — وهو يتحدث عن خصائص العرب—:

"أما العرب فقد امتازوا بين أمم العالم وشعوبه في العصر الجاهلي بأخلاق ومذاهب تفردوا بها أو فازوا فيها بالقدح المعلى، كالفصاحة وقوة البيان، وحب الحرية والأنفة والفروسية والشجاعة والحماسة في سبيل العقيدة، والصراحة في القول، وجودة الحفظ وقوة الذاكرة وحب المساواة وقوة الإرادة والوفاء والأمانة"[1].

كذلك من عظيم صفات العرب ومفاخرهم: إجابة الصوت وإغاثة الصريخ، كما قال سلاّمة بن جندل:

---

[1] ماذا خسر العالم، ص:٦٣، الطبعة ١٥، المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ، الهند.

إنـــا إذا مـــا أتانـــا صـــارخ فـــزع
كـــان الصـــراخ لـــه قـــرع الظنابيـــب[١]

وقال الراعي:

إذا مـــا فزعنـــا أو دعينـــا لنجـــدة
لبســـنا علـــيهن الحديـــد المســـردا[٢]

فكانوا ينعون على من يبطئ في إجابة الصوت، كما قال أبو علي الضرير:

كـــأنني يـــوم أدعوهـــا لنـــا ئبـــة
أدعـــو لهـــا مـــن بطـــون الأرض أمواتـــا

فهـذه أخـص شمائـل العـرب، ثـم جـاء الإسـلام بإتمـام مكـارم الأخلاق، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم – نفسه – أسرع الناس إلى إجابة الصوت وأعظمهم اهتماماً بإغاثة الصريخ، حتى لقد كان فزع بالمدينة، فركب على فرس عُري لأبي طلحة، وسبق الناس إلى الصريخ، وقال: "إن وجدناه – يعني الفرس – لبحرا"[٣].

ثم ما بالك بقوم تعلم من أنفتهم[٤] وحميتهم وحفاظهم ما تعلم،

---

(١) الظنوب: حرف الساق اليابس، وعنى بذلك سرعة الإجابة، وجعل قرع السوط على ساق الخف في زجر الفرس قرعاً للظنوب.
(٢) السرد: اسم جامع للدروع وغيرها من سائر الحلق.
(٣) أخرجه عن أنس البخاري (٢٦٢٧) في الهبة، ومسلم (٢٣٠٧) في الفضائل.
(٤) حتى قال قوم منهم أدركوا الإسلام: كيف نركع ونسجد فتعلونا أستاهنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود (صيد الخاطر لابن الجوزي، ص: ٣١١).

وأكرمهم الله بالإسلام، حتى خالط قلوبهم، وامتزج بلحومهم ودمائهم، فإنهم بعد أن كانت حميتهم جبلة صارت ديناً وملة، فَلاَ جَرَمَ على قلة العدد وضعف العُدَد، انكفؤوا على عُروش الملوك، وأبلوا ما يشهد به التاريخ، فحدث عن البحر ولا حرج....، فإن لهم في إرخاص النفوس واستعذاب البؤس، وإغاثة الصريخ ونصر المظلوم ما صغر كل عظيم، ولقد صدق من قال: إن الصحابة الكرام أحق بجميع الأشعار المادحة والثناء البالغ، فما أحقهم بقول أبي تمام:

مترسلين إلى الحتوف كأنما
بين الحتوف وبينهم أرحام

وقول البحتري:

تسرّع حتى قال من شهد الوغى
لقاء أعاد، أم لقاء حبائب[1]

هذا، وأعجبني – بهذا الصدد – ما قاله علامة حضرموت ومفتيها السيد عبد الرحمان بن عبيد الله السقاف (١٣٠٠ – ١٣٧٥هـ) وهو يتحدث عن ميزة العرب هذه – إغاثة الصريخ – تحت عنوان: "نجدة القرآن وشهامته" في كتابه النفيس الفريد: "العود الهندي.. عن أمالي في ديوان الكندي":

((لقد قام أحد عظماء الأدب المصريين بمنى عام حججنا، فقال: إني تأملت القرآن.. فوجدت في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ

[1] العود الهندي للسقاف، ص: ٢٧٦، دار المنهاج، لبنان، الطبعة الأولى.

﴿الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، ما يشبه قانون جمعية الأمم، فلما انتهى إليّ القول، تعرضت لمقاله من إعجابي بموضوعه، وقلت أما نجدة القرآن وشهامته وتمكينه للسلام بالعدل والانتصاف، فهو من وراء كل قياس.. لا يوزن به اليوم شيء من أحوال الناس، لكن بين أيدينا مثال من أعمال أهل الجاهلية الجهلاء، يزيد على ما في قانون تلك الجمعية من وجوه، ذلك المثال هو حلف الفضول الذي يقول عنه صلى الله عليه وسلم:

"لقد شهدت حلفاً في دار عبد الله بن جدعان، ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دُعيتُ به في الإسلام لأجبت"[1].

وأما وجوه فضله:

فمنها: أن قانون تلك الجمعية لا يتعهد بنصر من لم ينضم إليها، وإنما هو مقصور على أهلها فقط – فيما إخال – بخلاف حلف الفضول، فقد اقتطع على نفسه نصرة المظلوم، أيا كان، من غير شرط ولا قيد.

ومنها: أن نصر جمعية الأمم ضمار[2] ووعد، ونصرَ هذا خلاص ونقد، وما بين المظلوم وبينه إلا أن ينادي: يا آل حلف الفضول، فتتبادره السيوف، ثم لا تنحجز عنه حتى تستخرج له حقه ممن كان، ولله در بشامة بن حزن إذ يقول:

---

[1] أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٦/٣٦٧) عن طلحة بن عبيد الله ومحمد بن إسحاق الفاكهي في أخبار مكة (٥/١٩١) بنحوه.

[2] الضمار: ما لا يرجى من الدين والوعد، وكل ما لا تكون منه على ثقة.

إنـــا لمـــن مَعْشـــرٍ أفنـــى أوائلَهـــم
قيـــلُ الكمـــاة ألا أيـــن المحامونـــا
لـو كـان في الألـف منـا واحـد ودعـوا:
مـــن فـــارس؟ خـــالَهم إيـــاه يعنونـــا
ولا تـــراهم وإن جلّـــت مصـــيبتهم
مـع البكـاة علـى مـن مـات يبكونـا)).[1]

ومن أجمع الآيات في النجدة والوفاء، قوله تعالى:

﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

فلقد صح أن اليمان وابنه حذيفة لما قاما في الصف يوم بدر، قالا للرسول صلى الله عليه وسلم: إن بعضهم أخذ علينا العهد بعد ما منّ علينا ألا نشهر السلاح عليه، فعسى أن لا يكون في حربهم علينا حرج، فأخذ بأيديهما، وقال لهما: فُوالهما"[2].

فأي وفاء بربك يشبه هذا الوفاء، مع الحاجة، وأي صدق كمثل هذا الصدق، وقد ارتفعت العجاجة[3].

نظراً إلى صفات العرب وخصائصهم هذه المتميزة، التي تكاد لا

---

[1] العود الهندي، ص: ٢٧٥.

[2] أخرجه عن حذيفة الطبراني في الكبير (١٦٥/٣) والسيوطي في الجامع الصغير، ثمامة: "ونستعين الله عليهم".

[3] العود الهندي، ص: ٢٧٩.

تضارعهم فيها أمة من الأمم، سُمُّوا: "أفضل الأمم" كما جاء في كلمة الثعالبي (٤٢٩هـ - ١٠٨٣م) الشهيرة:

"من أحب الله تعالى أحب رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، ومن أحب الرسول العربي، أحب العرب، ومن أحب العرب، من أحب العربية، التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عُني بها وثابر عليها، وصرف همته إليها، ومن هداه الله للإسلام، وشرح صدره للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمداً — صلى الله عليه وسلم — خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد"[١].

ويقول ابن رشيق في العمدة: "العرب أفضل الأمم، وحكمتها أشرف الحكم".

وقال الألوسي في بلوغ الأرب:

"....والحاصل أن العرب لما كانوا أتم الناس عقولاً وأحلاماً، وأطلقهم ألسنة، وأوفرهم أفهاماً، استتبع ذلك لهم كل فضيلة، وأورثهم كل منقبة جليلة"[٢].

والحقيقة أن هذه المقومات والصفات والخصائص التي يتفرد بها العرب، هي التي أهلتهم للاضطلاع بأعباء الرسالة السماوية العظمى، التي جاءت لهداية البشرية بأسرها.

---

[١] القاموس الوحيد لوحيد الزمان الكيرانوي ١/٤.

[٢] فجر الإسلام، ص: ٣٤، الطبعة العاشرة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

"فقد اختار الله العرب للإسلام لخصائص طبيعية ومزايا خلقية ينفردون بها، وقد أثبت العرب الأولون حكمة هذا الاختيار بفهمهم العميق بطبيعة الإسلام، وإساغتهم الكاملة لتعاليمه، وتجردهم النادر عن كل ما ينافيها، وحماستهم – المنقطعة النظير – في نشر الإسلام، وتفانيهم الغريب في إعلاء كلمتهم، ورفع شأنه، وأمانتهم الدقيقة في حفظ روحه ونفسيته ونجاحهم المدهش في تسخير القلوب والعقول بقبول عقيدته وثقافته"[١].

أو قل بتعبير الطنطاوي: إن تخلق العرب بأخلاق الصحراء، جعلهم جديرين بأن يكونوا طليعة الإسلام ومادته الأولى، يقول:

"الصحراء عرين أسود، لا حظيرة أغنام، فلا يعيش فيها إلا الآساد والجمال، ومن له قوة الأسد وصبر الجمل، لذلك انبثق الإسلام من هذه الصحراء، لا من جنات الشام، ولا من سواد العراق، ولا من تحت قباب القسطنطينية، ولا بجنب إيوان كسرى، ولا في أوربة التي كانت يومئذ غابة وحوش على صورة بني آدم، إنما الإسلام في الصحراء امتهد ليجيئ كل مسلم أسد.. كما قال الرافعي"[٢].

ومن هنا.... ما ضعُف العرب إلا حينما فقدوا أخلاق الصحراء كما صرح بذلك الطنطاوي – أيضاً – قائلاً:

"من أخلاق الصحراء: الصبر والجلد والاحتمال والصراحة والبعد عن النفاق، فثقوا بأنكم لا تزالون أقوياء، ما دمتم متمسكين بها، تجمعون

---

[١] من كلمة للإمام الندوي، مجلة الصحوة الإسلامية، عدد ممتاز عن الصحابة الكرام، شعبان ١٤٣٢هـ.

[٢] ذكريات علي الطنطاوي، ٩١/٢، دار المنارة، جدة، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ.

إلى فضائلها فضيلة العلم والمعرفة بأسرار الفكر، فما ضعف العرب إلا حينما فقدوا أخلاق الصحراء"[١].

نعم! لقد تشرف العرب بأن جعلهم الله حملة الإسلام الأولين ورعاته الأسبقين، الذين وصفهم – يعني الصحابة الكرام – الرافعي، فقال:

"فكانوا أناساً إن عبتهم بشيء لم تعبهم إلا أنهم دون الملائكة"[٢].

وما أروع ما قاله الإمام الندوي – وهو يصف مزايا العرب الأولين – الصحابة الكرام – رضوان الله تعالى عليهم أجمعين:

"إن كل فرد من الصحابة (رضوان الله عليهم أجمعين) معجزة مستقلة وآية من آيات النبوة، ومأثرة من مآثرها الخالدة، وبرهان ساطع على عظم الرسالة المحمدية، وإن شاعراً لم يتخيل بخياله الخصيب وقريحته الفياضة، ومقدرته الشعرية، أوصافاً أجمل، وسيرة أعطر، وجمالاً أكمل مما وُجد في هؤلاء الأصحاب رضي الله عنهم، ولو اجتمع أدباء العالم في صعيد واحد، فعرضوا نموذجاً إنسانياً رفيعاً لم يصل بهم الخيال إلى ما وصل إليه الواقع في حياة هؤلاء الأصحاب وحضانتها، وتخرجوا في مدرستها"[٣].

وقال عنهم العالم المصري محمد الغزالي: "إن الله ربى محمداً ليربي به العرب، وربى العرب بمحمد، ليربى بهم الناس كافة".



---

[١] نفس المصدر، ١٥٨/٥.

[٢] وحي القلم، ٦/٢.

[٣] مجلة الصحوة الإسلامية، عدد ممتاز عن الصحابة الكرام، شعبان ١٤٣٧هـ، ص: ٩٣٥.

فحصل مما سبق أن العرب كانوا – بحق – التربة المباركة الخصبة لحمل رسالة الإسلام الخالدة، التي كرم الله سبحانه الإنسانية بها.

ومن هنا... نستطيع أن نقول – ونعتز بما نقول – إن تربة الإسلام عربية خالصة محضة، أو عجنت طينته بالعربية الخالصة الأصيلة، فالإسلام والعربية – أو العروبة – كل لا يتجزأ، وشيئان متلازمان متلاصقان كالظل من الشيء، وتوءمان لا يفترقان، وحقيقتان لا تنفصلان.

ويعني هذا أن حياة العرب وقوتهم تعني عزَ الإسلام وغلبته، ويعني عزُ الإسلام حياةَ العرب وشرفهم، وبالعكس إن محاولة إقصاء العرب أو إضعافهم تعني إبعادَ الإسلام عن المسرح الإنساني والعالمي.

وقد جاء في الأثر: "إذا ذل العرب ذل الإسلام"، وقد تحقق هذا المعنى حين ذل سلطان العرب السياسي، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم، فالعرب هم عصبة الإسلام وحراسه الأمناء، وحفظته الأوفياء، والإسلام روح العروبة وجوهرها، ولحمتها وسداها، وطابعها الدائم الأصيل، والعروبة وعاء الإسلام ومادته، ومحضنه ومنبعه، وحصنه ومعقله، ومأزره ومعدنه.



فمن هنا... أي من حيث أن الله اختار العرب ليكونوا أول من تشرفوا بالإسلام ونشره، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

"إن الله ا ختارني واختار لي أصحابي، فجعل منهم وزراء وأختانا وأصهاراً"[1].

---

[1] تفسير القرطبي، سورة الفتح.

....يحظى العرب بحب المسلمين جميعاً، بل هناك ما يروى من أحاديث تحث على حب العرب، منها:

"أحبوا العرب لثلاث، لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي، ويقول: بغض العرب نفاق"[١].

ولاشك أن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، أحبوا – ولا يزالون – العرب حباً لا يتصور فوقه حب، وهاكم شهادة من عربي قح عظيم، وهو الأستاذ علي الطنطاوي:

"إن القوم هنا – أي في شبه القارة الهندية – يحبون العرب حب تقديس، ويتبركون بالعربي تبركاً، ويعدون معرفة العربية شرفاً ومجداً، بل إنهم يرون تعلمها ديناً، لأنها لغة قرآنهم وسنة نبيهم، ولا يسرهم شيء كما يسرهم التقرب إلى العرب.

رأينا هذه الحقيقة عند الحاكمين والمحكومين والكبار والصغار، والمتعلمين والجاهلين"[٢].

لكاتب السطور تعليق صبياني بسيط على بعض أجزاء كلمة الشيخ الطنطاوي الآنفة الذكر، فإنه قال: إن أهل شبه القارة الهندية يعدون تعلم العربية من الدين، فليس مسلمو شبه القارة الهندية هم القائلون بذلك فقط، بل قال بذلك وقرره – قبل مئات من السنين – بل في فجر الإسلام – عظماء الإسلام وعلماء الأمة الأوائل، فمما يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال:

---

[١] رواه الحاكم في المستدرك في باب فضل كافة العرب برقم: ٦٩٩٩.

[٢] ذكريات علي الطنطاوي ٥/١٩٠.

"تعلموا العربية فإنها من دينكم" وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم"، وقال:

"أما بعد! فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، فإنها من دينكم"[١].

وقال الإمام الشافعي:

"....فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك"[٢].

وهذا الإمام ابن تيمية – أيضاً – يجعل تعلم العربية من الدين، فيقول:

"إن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"[٣].

ثم العربية في العصور الأولى كادت أن تكون مرادفة للإسلام، فقد سأل أبو جعفر المنصور – يوماً – مولى لهشام بن عبد الملك (ت١٣٣هـ) عن هويته: فقال المولى: "إن كانت العربية لساناً فقد نطقنا بها، وإن كانت ديناً فقد دخلنا فيه"[٤].

---

[١] اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية، ص:٢٠٧، مكتبة أنصار السنة، لاهور.

[٢] الرسالة، ص:٤٨، المكتبة العلمية بيروت، لبنان.

[٣] اقتضاء الصراط المستقيم، ص:٢٠٧.

[٤] مجلة "الداعي" العربية، الهند، شعبان ١٤٣١هـ.

بعد هذا الاستطراد – مع الاعتذار – أعود إلى صميم الموضوع فأقول: إن حب العرب وعزهم ينبع من كونهم أمة اختيرت للقيام بحمل رسالة الإسلام، فلا عز لهم ولا شرف ولا ذكر إلا بالإسلام ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

ومن أنا – ذلك العجمى المسكين – حتى أقول ذلك، فقد قال بذلك وقرره وجهر به العرب العرباء، وأبناء العروبة الأصلاء الأقحاح من السابقين واللاحقين، فأقدم – فيما يلي – ثلاث شهادات فقط، شهادتين من القرن الأول، وشهادة من القرن الرابع عشر الهجري.

فالشهادة الأولى من الخليفة الثاني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – الذي كان ناطقاً بالحق والصواب، فقد قال كلمته الشهيرة:

(نحن كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز من غيره أذلنا الله).

والشهادة الثانية من الصحابي المعروف عبد الله ابن مسعود الذي قال:

(كنا رعاة غنم، وبفضل الإسلام صرنا رعاة أمم).

وهاكم الشهادة الثالثة من القرن السابق، وهي لأحد أبناء العرب الأعلام، وهو الشيخ علي الطنطاوي – الذي يسمى أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء – فقد قال:

(...هذه هي العزة التي جعلها الله لله ولرسوله وللمؤمنين، ليست العزة للعرب بأنهم عرب، لقد كان العرب ضلالاً، فهداهم الله بهذا الرسول، وأعزهم بهذا الدين، ولا عزة لهم في الدنيا ولا نجاة في الآخرة إلا بهذا الدين.

لا يفيدكم عند الله أن تقولوا نحن عرب، فإن دخول الجنة ليس بالبطاقات الشخصية ولا بالجنسيات بل بالأعمال الصالحات ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢][1].

فالواقع أن الإسلام يسري في العروبة سري الكهرباء في الأسلاك، أو الصهباء في العروق، والدم في الشرايين.

فلا عز للعرب إلا بالإسلام:

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه

فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب

فقد رفع الإسلام سلمان فارس

وقد وضع الشرك الحسيب أبا جَهْلِ

وقال شاعر آخر:

إذا لم يَسِرْ نجل النبيّ بسيره

فلا يدْعِ إن قال العداء إنه دَعِيّ

"إن قيمتكم أيها العرب! ليست في هذا الذهب الأسود الفائض الذي تتدفق به الصحراء، وفي هذه المباريات للريح والناطحات في السماء، إن قيمتكم واعتباركم وثمنكم في سوق العالم – مهما تغيرت وتطورت – هو إيمانكم بهذا النبي صلى الله عليه وسلم، وحبكم له، واتباع النور الذي أنزل معه.

---

[1] ذكريات علي الطنطاوي ٨٦/٦.

إن قيمتكم أيها العرب هي الحفاظ على سمعة هذا الاسم الحبيب والانتصار له، والتمسك به، والتفاني في سبيل عزته وكرامته في وقت عم فيه الضلال، وانتشر فيه الغوغاء، وقل فيه الوفاء، وكثر فيه النكران والجحود.

إنكم أسعفتم الإنسانية أيها العرب في القرن السادس المسيحي، بعد أن كادت تقع في الهاوية، وأخرجتموها من جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، وهي لا تزال تذكر فضلكم، وتذكر أبطالكم الغر الميامين، من الصحابة والتابعين، ولكنها ترنو إليكم مرة ثانية، مستعطفة مسترحمة أن تسعفوها مرة أخرى، وتتولوا زمام قيادتها من جديد"[(١)].

فاليوم – في هذه الظروف الحرجة – تتطلع الأمة إلى العرب، الذين هم أول من شرفهم الله بالخطاب عبر قرآنه، وجعل رسوله الأخير منهم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وأكرمهم بأن اختارهم كجنود الإسلام الأولين، ودعاته الأسبقين وربط مصير بعضهما ببعض.

"فقد عقد الله بين العرب والإسلام للأبد، ولا يظهر الإسلام في مظهره الصحيح إلا إذا قاد العرب ركبه الصحيح، وحملوا مشعله، وقد حرص رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على بقاء هذا الرباط المقدس بين العرب والإسلام"[(٢)].

فالأمة الإسلامية – في مشارق الأرض ومغاربها – ترى عزها

---

(١) مقتبس – بتعديل – من: "الإسلام الممتحن" لمحمد الحسني، ص: ١٧٤.

(٢) مقتبس من كلمة للإمام الندوي، مجلة الصحوة الإسلامية، عدد ممتاز عن الصحابة، شعبان ١٤٣٢هـ.

مربوطاً بعز العرب، الذين تتصورهم كأفضل رائد لها، وترى سلامتها وعزها في قيادة العرب للركب الإنساني من جديد، فالعرب أولى بالدعوة إذا رجعوا، وأحق وأجدر بالقيادة إذا عادوا...، فأدركوا عظمة منصبهم، وشرف مسؤوليتهم، وتولوا أمر قيادة الإنسانية وتوجيهها من جديد... كما فعلوا في فجر الإسلام، فسعدت البشرية، وعمّ النور، وساد السلام، وعلت كلمة الحق، وانكسرت شوكة الباطل.

فالأمة تعتز بالسير وراء العرب، وتتمنى لو يقوم السادة العرب رحماءُ الإنسانية وطليعة الإسلام بقيادة سفينة الإنسانية من جديد، ويرسوها إلى شاطئ النجاة وبر الأمان، فيحسنوا إلى البشرية كما فعلوا في الماضي، فإذا عادوا إلى القيام بدورهم المرتقب هذا، أحسنوا إلى الأمة، وإلى الإنسانية جمعاء، وإلى أنفسهم هم...!

لماذا انحطت: (خير أمة)..؟
وهل ترتفع كرة أخرى....؟!
دراسة موضوعية في ضوء الكتاب والسنة وآراء أقطاب الأمة

كانت الأمة الإسلامية قد استوت على عرش العظمة والعز والقيادة عن جدارة واستحقاق، وارتفعت إلى مناط السماء الأعلى، ووصلت هامتها إلى الثريا، وبلغت من مراقي الصعود ومطالع النهوض ومراتب السعود ما لا يحتاج إلى دليل، كما لا تحتاج الشمس والقمر في وجودهما إلى تدليل أو توضيح، ومن طالب بذلك، ضحك الناس على عقله، أو عدّوه أعمى العميان...، ولعل كلمة "العمى" قاصرة عن بيان عماه الشامل المطبق العجيب.

فازدهار الحضارة الإسلامية وسعة الرقعة الإسلامية في القرون الماضية شيء لا يتجرأ على تجاهله أو إنكاره أجهل الجاهلين أو أجحد الجاحدين، فضلاً عن البصراء الخبراء الواعين، وحقيقة لا يكابر فيها مكابر ولا يجادل فيها مجادل، حقيقة كحقيقة "الحياة" نفسها، أو "الليل" و: "النهار" و: "الكواكب" و: "النجوم" و: "الأرض" و: "السماء".

"اسألوا ديار الشام وسواد العراق ورياض الأندلس، ووادي مصر، وفيافي الجزيرة، وبطاح إفريقيا، وربوع العجم وبلاد الهند، وأرجاء الصين ومعالم الدنيا كلها عن تاريخنا وأمجادنا وعلومنا وحضارتنا وقيمنا وأخلاقنا، وبطولاتنا وتضحياتنا.

إن أسلافنا هم الذين هذبوا النفوس، وهدوا القلوب، ورقوا الحضارة، وابتكروا العلوم والفنون، ونشروا المعارف".

كانوا ملوكاً سرير الشرق تحتهم
فهل سألت سرير الغرب ما كانوا
عالين كالشمس في أطراف دولتهم
في كل ناحية ملك وسلطان

فالإسلام قد وثب بالمسلمين وثبة هائلة، وهذه الوثبة الهائلة كانت – طبعاً – على إثر إشعاع القرآن الكريم في آفاق الأرض، فأنارها بعد ظلمة، وهدى الإنسانية بعد حيرة، ونظمها بعد اضطراب، وفتق أذهان أبنائها بعد ارتقاق، وأزال الأصفاد والقيود التي كانت تقف حجر عثرة أمام الفكر والتقدم.

هذا كله في الوقت الذي كانت فيه أوربا تعيش في ظلمات الجهل، والفوضوية والأمية والهمجية والتأخر، ولم ينقذ أوربا من ورطتها التي كانت واقعة فيها إلا حضارة المسلمين.

نماذج من الإسهامات والإبداعات الحضارية والعلمية لعلماء المسلمين:

وهنا ينبغي أن نقدم إسهامات لعلماء المسلمين كنماذج:

١. أبو البركات هبة الله بن ملكا البغدادي (٤٨٠ -٥٦٠هـ) المعروف بأوحد الزمان مكتشف القانون الثالث للحركة: (لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه) ويظهر ذلك في كتابه (المعتبر في الحكمة) وليس نيوتن كما يدعي علماء الغرب.

٢. اكتشف ابن يونس الصدفي المصري (المتوفى سنة ٣٩٩هـ) الرقاص الذي نسب لغاليليو، كما أنه يعتبر من الممهدين لعلم اللوغاريتمات، وذلك باكتشافه المعادلة [جتا أجتاب = ١/٢ جتا (أ+ب) + ١/٢ جتا (أ -ب)]. وليس كما يزعم علماء الغرب زورا أن جان نابيير اسكتلندي الأصل (١٥٥٠ -١٦١٧ ميلادية) هو مخترع علم اللوغار يتمات.

٣. عمر الخيامي (٤٣٦ -٥١٧هـ) واضع اللبنات الأولى لعلم الهندسة التحليلية، وليس ريني ديكارت (١٠٠٥ -١٠٦٠هـ)، وذلك بحله المعادلات ذات الدرجة الثالثة باستخدام القطوع المخروطية، فحصل على جذر المعادلة بإيجاد الأحداث السيني لنقطة تقاطع قطع مخروطي مع دائرة أو تقاطع قطاعين مخروطين، كما أولى عمر الخيامي عناية خاصة لتصنيف المعادلات حسب درجاتها، وحسب الحدود التي فيها، محصورة في (٢٥) نوعاً، ومن المؤسف حقاً أن علماء الغرب ينسبون هذا التصنيف لسيمون استيفن (١٥٤٨ - ١٦٢٠م) هولاندي الأصل.

٤. أبو بكر الكرخي (المتوفى سنة ٤٤١هـ) الخليفة الوحيد ليديو فانتوس في علم الحساب، ابتكر مثلث معاملات نظرية ذات الحدين، ولكن الغرب نسبوا هذا الابتكار للعالم الفرنسي بإسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢م) واتضحت هذه الحقيقة لعلماء الرياضيات بعد العثور على كتاب صيني اسمه (المرآة الثمينة للعناصر الأربعة) للكاتب الصيني تشويشي كي (١٣٠٣م) والذي شرح فيه طريقة إيجاد معاملات نظرية ذات الحدين باستخدام مثلث الكرخي لمعاملات نظرية ذات

الحدين، كما ذكر نصير الدين الطوسي ٥٩٧ -٦٧٢هـ) مثلث الكرخي لمعاملات نظرية ذات الحدين في مؤلفاته العديدة، ولم يترك السمؤل المغربي مجالاً للشك في كتابه الباهر في الجبر الذي حققه كل من صلاح أحمد ورشيد راشد أن الكرخي مبتكر مثلث معاملات نظرية ذات الحدين، والكرخي صاحب نظرية (مجموع مكعبين لا يكون مربعاً) وليس فرما (١٦٠١ -١٦٦٥م) العالم الفرنسي الذي تنسب له هذه النظرية.

٥. محمد بن موسى الخوارزمي (١٦٤ -٢٣٥هـ) مؤسس علم الجبر، وهو أيضاً أول من أوحى في المحددة التي طورها العالم الياباني سيكي كاو (١٦٤٢ -١٧٠٨م) ولكن علماء الغرب يصرون كالعادة على أن العالم الألماني ليبنز هو مبتكر المحددة، وطبقها في العلوم التطبيقية العالم الفرنسي أو قستين كوشي (١٧٨٩ -١٨٥٧م).

٦. أثبت ويفيد كنج إنجليزي الأصل عام ١٩٧٠م أن معظم نظريات العالم البولوني كوبرنيكس (١٤٧٣ -١٥٤٣م) في علم الفلك مسروقة من إنتاج أبي عبد الله البتاني (٢٣٥ -٣١٧هـ) الذي ابتكر الكثير من الدوال، والمتطابقات المثلثية.

٧. أبو الفتح الخازني (توفي سنة ٥٥٠هـ) اشتهر في كتابه (ميزان الحكمة) الذي يحتوي على علم الميكانيكا والهيد روستانيكا، وسبق الخازني تورشيلي في الإشارة إلى مادة الهواء ووزنه، وأشار إلى أن للهواء وزناً وقوة رافعة كالسوائل، وأن وزن الجسم المغمور في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي، وأن مقدار ما ينقصه من الوزن يتوقف على كثافة الهواء، كما بين الخازني أن قاعدة اخميدس لا تسري فقط على

السوائل ولكن تسري أيضاً على الغازات، وبذلك فقد مهد لاختراع البارو متر (ميزان الضغط) ومفرغات الهواء والمضخات، لذا فقد سبق الخازني كلا من تور شيلي وبويل وباسكال.

٨. انتحل العالم الألماني ريجيو مونتانس (١٤٣٦ -١٤٧٦م) المشهور في علم المثلثات، والذي كتب أول كتاب في هذا المجال (عام ١٤٦٤م) نظريات أبي الوفاء البوزجاني (٣٢٨ -٣٨٨هـ) في علم المثلثات.

٩. أول من تكلم عن دوران الأرض بوضوح الشريف الإدريسي (٤٩٣ -٥٦٠هـ) ولكن علماء الغرب ينسبون هذا لكوبرنيكس.

وباختصار فإن الحضارة الإسلامية والعربية سجل تاريخي يوضح تطور العقل البشري، فهي وإن كانت امتداداً للحضارات السابقة، إلا أنها حضارة ذات معالم متميزة ومفتوحة وليست منغلقة على نفسها كالحضارة الغربية خلال العصور الوسطى.

شهادة الغربيين بازدهار حضارة المسلمين:

ولقد سجل التاريخ آيات هذه الحضارة الإسلامية، وشهد بها المنصفون من فلاسفة العالم ومؤرخيه، الذين لا يبغون من بحوثهم ودراساتهم إلا مرضاة العلم في ذاته.

تقول الكاتبة الألمانية الدكتور سيجريد هونكه: (إن أوربا تدين للعرب، وللحضارة العربية، وأن الدين الذي في عنق أوربا وسائر القارات للعرب كبير جداً)، وقال العلامة دريبر (المدرس في جامعة هارفرد بأمريكا) في كتابه: (المنازعات بين العلم والدين): "إن نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جلياً بالتقدم الباهر الذي نالته الصناعات في عصر

المسلمين، فقد استفادت منها فنون الزراعة في أساليب الري والتسميد وتربية الحيوانات، وسنن النظم الزراعية الحكيمة، وإدخال زراعة الأرض وقصب السكر واللبن".

وقد انتشرت معامل المسلمين ومصنوعاتهم لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن، وكانوا يذيبون المعادن ويجودون في عملها على ما حسنوه وهذبوه من سبكها وصبغها، وإننا لندهش حين نرى في مؤلفات المسلمين من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر.. وإن جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الأوروبيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم، وكان ملوك أوربا وأمراؤها يفدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها.

ويعرف المطلعون على تاريخ المسلمين العباقرةَ من المسلمين من واضعي علوم الجبر والمقابلة والكيمياء، ومخترعي البندول والبوصلة والساعة الدقاقة التي أهداها الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا ففزع منها سامعوها فزعاً شديداً، وسموها شيطاناً رجيماً أو آلة سحرية أو مكيدة عربية، إلى كثير من أمثال هذه الآثار والمفاخر الإسلامية[1].

سنة الحياة في الصعود والهبوط:

وإنها لحقيقة أخرى – أيضاً – من حقائق الحياة الكبرى وسننها العظمى أنه:

ما طار طير طار وارتفع
إلا كما طار وقع

و: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، و:

"الأيام دول"، و: "عجلة الزمان دوارة"، و: "الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك" و"لكل شيء إذا ما تم نقصان".

فلا تدوم لأحد – أفراداً أو جماعات، شعوباً أو أمماً – العزة والغلبة، أو الذلة والهزيمة:

من سره زمن ساءته أزمان

فالسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا انحطت الأمة بعد ما رقيت، وشقيت بعد ما سعدت؟

ولماذا وقعت في الحضيض بعد ما وصلت إلى السماء، ودانت لها البلاد والأمم، واعترفت بعظمتها وسيادتها – طوعاً أو كرهاً – الدول والشعوب؟؟

وكيف أصبحت هذه الأمة – مع الأسف – في مؤخرة الركب وذيل القافلة وعلى هامش الأمم؟

وصارت تخضع وتنقاد – بعد ما كانت قائدة مطاعة – وتستجدي وتكدي، وتتأبط الكشكول، وتحمل ظرف "الشحادة"، وتعيش الغثائية والهامشية...؟؟

من يهن يسهل الهوان عليه

ما لجرح بميت إيلام

وألف ألف معذرة على هذا التصريح السافر الفاضح بهذه الحقائق المرة الأليمة، التي تفتت الأكباد وتخلع القلوب أسى وحزناً، وتبكي العيون دماً لا دمعاً... ولكنها – على كل حال – حقيقة لا محيص عن تسجيلها، وواقع لا مناص من الاعتراف به، فوالله يكاد يذوب قلبي كمدا

وهما، ويدي ترتعش، وقلبي لا يساعدني وطبيعتي لا تطاوعني وأنا أقيد هذه الحقائق المخجلة، التي تخص أمتي، التي أنا جزء منها، أفلم تعد الأمة تركع وتخضع للقوى الكبرى — وهي كلها معادية حانقة حاسدة للإسلام والمسلمين — وتستجديها كل ما تحتاج إليه من أتفه شيء إلى أضخم الأشياء، وتكفف دهاقينها صاغرة خاضعة، وتهان في المحافل الدولية، فلا تسمع لها كلمة، ولا يطاع لها أمر، وفي كل حارة مأتم، وفي كل شارع جنازة، وفي كل واد بنو سعد، والمصائب تترى، والكوارث لا حد لها ولا نهاية، والمجازر حديث يومي، والإهانات شيء عادي (من وطأته العيون، وطأته الأقدام):

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي
بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد
ليسوا من الخير في شيء وإن هانا

حتى كأن وجودها أصبح لا يعد وجوداً، وحياتها أصبحت لا تعد حياة:

فالسؤال المطروح الكبير: كيف هوت الأمة في هذه المهواة.. مهواة الشقاء والشنار والعار...؟؟ ولا يزال معها قرآنها محفوظاً كما نزل، وسنة نبيها مسجلة مدونة بكامل تفاصيلها ودقائقها... والمساجد عامرة، والعلماء والدعاة كثر، والنشاطات الإسلامية على قدم وساق، ففي تشخيص الداء الدواء، وقبل الرماء تملأ الكنائن.

بداية الانحطاط:

وقبل أن نتقدم ونجيب عن هذا السؤال الذي طرحناه آنفاً... لعله

ينبغي أن نثير سؤالاً آخر ونجيب عنه... وهو: متى بدأ ضعف الأمة الإسلامية التي بلغت من المجد والعظمة ما لا يتصور أسمى ولا أرفع منها، فقال أحد المفكرين:

"أمران لا يحدد لهما وقت بدقة: النوم في حياة الفرد والانحطاط في حياة الأمة، فلا يشعر بهما إلا غلبا واستوليا".

هكذا قال بعض المفكرين، ولكن الشيخ أبا الحسن الندوي حدد بداية انحطاط هذه الأمة قائلاً:

"إنه لحق في قضية أكثر الأمم، ولكن بدأ التدلي والانحطاط في حياة الأمة الإسلامية أوضح منه في حياة الأمم الأخرى، ولو أردنا أن نضع إصبعنا على الحد الفاصل بين الكمال والزوال لوضعنا على ذلك الخط التاريخي الذي يفصل بين الخلافة الراشدة والملوكية العربية أو ملوكية المسلمين"(٢).

بعدما عرفنا بداية الانحطاط في الأمة تحديداً في رأي الشيخ الندوي، وهو رأي مطلع بصير بتاريخ الأمة، له أهمية وقيمته، (ولا ينبئك مثل خبير) أقول بعد معرفة الجواب عن السؤال عن بداية الانحطاط في تاريخ هذه الأمة، نعود إلى السؤال المركزي الأول: ما هي أسباب انحطاط الأمة؟ فنحاول في السطور الآتية الإجابة عن ذلك، وأولاً نشير إلى السبب الرئيسي لعز الأمة.

السبب الرئيسي لعز الأمة:

يجب علينا – ونحن في بداية المطاف – أن نؤكد على أن عزنا معقود بالإسلام والإسلام واحده، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: نحن كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغيره أذلنا الله"،

وكما قال ابن مسعود رضي الله عنه: "كنا رعاة غنم، وبفضل الله صرنا رعاة أمم".

فهذا ما نؤمن به إيماناً جازماً، وأكدت عليه وصدقته التجارب عبر تاريخ الأمة الطويل، وصدق الكاتب الإسلامي أحمد أمين حينما قال: "خير ما في الأمم حاضرها، وخير ما فينا ماضينا"(٣).

إي والله! لقد أصاب كبد الحقيقة... فرقي أمتنا وعزها ينحصر في أن ترجع وترجع حتى تلحق بركب الرعيل الأول ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.

دين يشكو إلى الله قوماً أضاعوه:

والحقيقة أن في معرفة السبب الرئيسي لعز الأمة إجابة مكتومة شافية عن السبب الرئيسي لانحطاط الأمة وضعفها، فيعني انحطاط الأمة عدم ثباتها على الجادة المستقيمة وعدم وفائها بالتزاماتها من الاعتصام بحبل الله المتين.

فإننا ما أصبنا بما أصبنا به من هذه النكبة الشعواء والداهية الدهياء — التي نزلت بنا منذ عشرات السنين ما تفارقنا ولا تهدأ عنا — في صورة الانحطاط الشامل في جميع مرافق الحياة، إلا من ناحية الانحطاط العملي.

ونؤمن — كذلك — بأن الله سبحانه عادل لا يصيب قوماً إلا بما قدمت أيديهم ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

لقد أشار الله سبحانه في كتابه والرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه إلى سنن إلهية لارتفاع الأمم وأسباب لزوالها، نحاول — فيما يلي — إلقاء الضوء على أهمها.

قوانين إلهية لحياة الأمم

نشير فيما يلي إلى بعض مقومات الأمم:

وجود طائفة صالحة من أسباب حفظ الأمم:

أي لابد من وجود طائفة في الأمم يدعون إلى الإصلاح ويجهرون بالحق ويستنكرون الفساد، فإذا قصرت هذه الطائفة في القيام بواجبها، أسرع الفساد إلى الأمة، وضلت عن الطريق السوي، وسارت في طريق الفناء، قال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، ويقول: "فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ" [هود: ١١٦]، أي لو كان فيهم جماعة تنهاهم عن المنكر، وتدعوهم إلى الخير لما هلكوا.

و – كذلك – ذم القرآن الكريم اليهود بأن أحبارهم لم يكونوا ينهونهم عن الفساد في الأرض، فقال: ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣].

فمثل هذه الجماعة أو الطائفة للأمم كالأطباء للأفراد، يشخصون أمراضهم، ويصفون لهم علاجهم، فإن تداوى الأفراد المرضى بوصفات الأطباء العلاجية وجعلوها نصب أعينهم، صحت أجسادهم وبرئت أسقامهم، وبعدت عنهم أمراضهم، وظفروا بالصحة وإلا تعرضوا للهلاك.

فتمثل هذه الطائفة المباركة – المنبهة إلى أمراض الأمة الروحية، الآمرة بالمعروف، الناهية عن المنكر – أطباء الأمة الروحانيين، الذين

يشخصـون أمراضـها الباطنـة ويرشـدونها إلى وصـفات علاجيـة لهـا، ويأخـذون بأيـديها مـن الهـلاك والـدمار، ويحـذرونها مما فيـه ضـررها وخسارتها، وهؤلاءهم الذين يسميهم القرآن الكريم: "الصالحين"، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

فيتوقف صلاح الأمم وحياتها وبقاؤها على جد هؤلاء الصالحين وجهودهم وتضحياتهم ﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

صلاح أولي الأمر من أسباب بقاء الأمم:

لقد بين القرآن الكريم أن الأمراء ومن بيدهم زمام الأمم إذا طغوا واتبعوا الشهوات، واسترسلوا للملذات وغرقوا في الترف والبذخ هلكت الأمم وبادت، لأنهم بذلك أنفقوا الأموال في إشباع شهواتهم، ولم يبذلوها في المرافق العامة وإصلاح الشعوب وتقويتها والنهوض بها مادياً وعسكرياً وعلمياً وأدبياً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، أي أن الله لن يهلك الأمم والشعوب مادام أهلها صالحين وغير ظالمين ولا

فاسدين، فالأمم إن أخذت بهذين المبدأين: (التزام الصلاح وتجنب الفساد والطغيان) قدر لها البقاء والقوة والعزة، وإذا أهملتهما منيت بالضعف والخذلان والغضب من الله.

يقول المفكر العربي شكيب أرسلان متحدثاً عن أسباب ضعف الأمة:

"بفساد أخلاق الأمراء ومواطأة بعض العلماء لهم، أصاب الأمة الإسلامية ما أصابها)[٤].

العلم من أعظم أسباب تقدم الأمم:

ومن وقف على أحوال الأمم وتصفح أخبارها وعرف شؤونهم على اختلاف طبقاتهم وأزمانهم، تبين له أنهم في ارتفاع وانحطاط، وترق وهبوط، وعزة وذل، وإبادة وبقاء وتبين له أن سبب تقدمهم ومدار ارتقائهم على منصة السؤدد وذروة العز هو العلم.

فبالعلم ترقى الأمم، وبالجهل تنحط الأمم، وحيث أننا من الأمم الحية على مدار التاريخ، إلا أن العزة أتت لهذه الأمة باعتناق الدين الإسلامي الذي هو المصدر الأساسي لمكارم الأخلاق، والتي بها ترقى الأمم.

وبالعلم يقضى على الجهل، والعلم على اختلاف فنونه من أعظم أسباب سعادة الأمم وعزها، ونعني بالعلم: النافع الدافع إلى ضروريات حاجات الإنسان، فيدخل فيه جميع العلوم النقلية والعقلية أصلاً وفرعاً.

أما الجهل فهو أساس كل بلاء، وأصل كل مشقة وعناء، وهذه أوربا التي شجعت العلم ووضعت له الخطط والميزانيات، وأنشأت مراكز البحوث والمعرفة قد سبقت غيرها في مجالات كثيرة بالرغم من وجود الكثير

من السلبيات، التي لن تكون في مجتمعاتنا الإسلامية التي تعتمد الأخلاق ملفاً شاملاً للعلوم والمعرفة والالتزام بالسلوك القويم والخصال الحميدة[٥].

ويقول مصطفى السباعي: "مفتاح السعادة للأفراد والجماهير والحكومات: الأخلاق أولاً، ثم العلم والكفاءة"[٦].

ويقول الإمام الشافعي عن أهمية العلم: "من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم".

مقومات أخرى لحياة الأمم:

إن الله جعل لحياة الأمم ركائز ومقومات أخرى، منها تربية النشء تربية صالحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة نظام العائلة أو نحو ذلك، فإذا تمت مقومات الأمة صلحت، وإذا لم توجد أو لم يوجد بعضها لم تتكون أمة صالحة، وكذلك للأمة قوانين لارتقائها، لا ترتقي بدونها، كبنائها الحياة على العدل وتدعيمها بالقوانين الاقتصادية التي تكفل رفاهيتها وثروتها، فمن عمل بتلك القوانين نجح وارتقى، وإلا ضعف وفني، كذلك نرى أن الأمة إذا أخذت بمبدأ الشورى ومبادلة الرأي وخصوصاً في جلائل الأعمال ارتقت، وإذا استبد حكامها بالرأي من غير مناقشة ضعفت وانهارت، لأن المستبد مهما عقل فليس بمأمون الزلل[٧].

قوانين إلهية لعقاب الأمم وانحطاطها

والآن نشير – فيما يلي – إلى بعض أسباب انحطاط الأمم:

سكوت أهل الرأي عن واجب النصيحة:

من القوانين الإلهية وسنن الله في الأمم – أيضاً – أنه إذا عم الفساد في

الأمم وانتشر البغي والطغيان لدى أولي الأمر، ولم يقم أهل الرأي بواجب النصيحة والتحذير، حل عقاب الله فيها. فقد أوجب الله على نفسه عقاب الأمم الطاغية الباغية، ثم لا يرتفع العقاب إلا بالإنابة إلى الله والتوبة النصوح، كما يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يرتفع إلا بتوبة"، وكما قال تعالى نفسه في القرآن الكريم:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

الظلم والفساد:

كذلك من القوانين العامة في الأمم أن الظلم والبغي والفساد من أسباب انحطاط الأمم وضعفها وهلاكها، بل ورد في القرآن الكريم أن ذلك سبب لقلة المطر، وللقحط ولفساد الزرع وهلاك الحرث والنسل.

استبداد الأغنياء:

ومن هذه القوانين – أيضاً – أن الأمم تهلك لسيطرة أصحاب الأموال ورغبتهم الجامحة أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون، وقد ضرب الله مثلاً أمة شعيب إذ كانوا يستبيحون تنمية الثروة بكل الطرق الممكنة كالتطفيف في الكيل والميزان وبخس الناس أشياءهم، فكان شعيب عليه السلام ينهاهم عن ذلك كله، ويوصيهم باجتناب أكل أموال الناس بالباطل وقناعتهم بالحلال، وهم يقولون: إنهم أحرار في أموالهم يفعلون بها ما يشاءون: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧].

تفرق الأمم شيعاً وأحزاباً:

كذلك من سنن الله في الأمم أنه إذا تفرقت الأمم شيعاً وأحزاباً، يضرب بعضهم بعضاً، ويحارب بعضهم بعضاً، حق عليها الفناء، وإذا

توحدوا وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وتعاونوا وحمل كل عبئه، وساعد الباقين على تحمل أعبائهم نجحوا وكونوا أمة واحدة.

هذه كانت نظرة عامة موجزة على مقومات لحياة الأمم وأسباب ضعفها وهلاكها، وتلك بعض قوانين الله في الأمم، أبانها القرآن الكريم والسنة الصحيحة، فمن اتبعها وعمل بها أمن الفناء، وضمن الرقي والبقاء، ومن تهاون فيها كان عرضة للضعف والفناء، وهذه القوانين دائمة لا تتغير، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، كانت فيما مضى، ولا تزال باقية إلى اليوم، وستظل باقية في المستقبل[٨].

وأمتنا الإسلامية كانت مرفوعة الهامة مصونة الكرامة ما دامت ملتزمة بأسباب الصعود والارتفاع، فلما تخلت عن التزاماتها انحطت وهبطت.

يقول أحمد أمين:

"لقد سار المسلمون الأولون على مقتضى السنن الإلهية في الأمم، ففازوا بنتيجتها، واتحدوا ولم يتفرقوا، وعدلوا ولم يظلموا، واتبعوا القوانين الاقتصادية في الشؤون المالية فنجحوا نجاحاً باهراً، وفتحوا ما لم يكن في الحسبان، وهرع الناس إليهم من ظلم الفرس واليونان، وكانوا في كثير من المواقف يعينونهم على عدوهم، ويعرفونهم بمواضع الضعف عند حكامهم، كما فعل الإسبانيون في أسبانيا والأقباط بمصر ، وليس يصلح المسلمون إلا بما صلح به أولهم"[٩].

أسباب أخرى لانحطاط الأمة:

إلى ما ذكر من أسباب انحطاط الأمم، هناك – أيضاً – أسباب أخرى لانحطاط هذه الأمة نوردها فيما يلي:

الأمة الإسلامية – اليوم – كثيرة بالأعداد البشرية (أكثر من مليار مسلم) وغنية بالإمكانات المادية (المعادن والمياه والمزارع والمواد الخام) وفقيرة في مجالات التقنية الحديثة وعلوم التكنولوجيا وصناعة السلاح، ولذلك فإن إنتاج الأمة – في جملته – لا يكفيه ولا يسد كل احتياجاتها، فيضطر كثير من دولها إلى الاقتراض من البنك الدولي، والمؤسسات الربوية الغربية، وتعتمد في اقتصادها – ونكاد نقول في حياتها – على الآخرين، الذين يوجهونها، وقد يسخرونها لخدمة أهدافهم ورعاية خطواتهم، وتنمية مصالحهم، وهذا العجز والضعف البادي على وجه أمتنا من أكبر الأسباب الداعية للتقهقر في ميدان الحياة والبعد عن مجال التنافس والتسابق مع الأمم الأخرى.

إن سنن الله الجارية في كونه لا تتخلف ولا تتبدل من أجل الناس أيا كانت ديانتهم، وقد جرت سنة الله بأن القاعدين لا مكان لهم في المقدمة، وأن الغافلين لا يقودون أحداً، ولا يصنعون نصراً، وأن الهزيمة الداخلية أقوى أثراً وأشد ضرراً من الهزيمة الخارجية "إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ" [الرعد: ١١] ويكاد يستقر في قلوب بعض قادة الفكر والرأي، أن اتباع غير سبيل المؤمنين، قد يؤدي إلى شيء من الحركة والحيوية في جسم الأمة الإسلامية، بعد أن أصابها الترهل والعجز، ومن ثم فقد عمل هؤلاء على تأييد كل عمل يقوم به الغربيون لمحو أثر التعاليم الإسلامية من حياة الشعوب، حتى إن كثيراً من أبناء الأمة بدأ يفقد هويته الإسلامية وتذوب شخصيته، فيظهر في جوهره غربي الهوى والمزاج، وربما الثقافة واللسان، وفي مظهره شرقي مسلم يعيش في ديار المسلمين، وهذا من أعظم الأخطار التي تواجه الأمة، فلم تلق الأمة من قبل خطراً

مساوياً أو فوريا لهذا الخطر، رغم مرور عواصف الصليبيين عليها من قبل، ورغم زلزال التتار الذي هدم بعض أركانها بعد الصليبيين، لأن هؤلاء كان خطرهم عسكرياً محضاً، فلم تكن عندهم ثقافة يريدون غرسها، ولم تكن لديهم حضارة يودون نشرها، وإنما كانت لديهم قوة جامحة لم تستطع أن تخلع الإيمان من القلوب، وإن استطاعت أن تخرب الديار وتعيث في الأرض فساداً وتنشر الهلاك في الوطن الإسلامي.

وبقيت قوة الإيمان تعلو في نفوس المؤمنين، وقوة الأبدان والسلاح والكراع تضعف عند الصليبيين ثم التتار، حتى تغلبت عليهما قوة الإيمان، فعاد الصليبيون من حيث جاءوا، ودخل التتار في الإسلام، وأصبحوا من جنوده العاملين، بعد أن دخل في قلوبهم الإيمان الذي كان السبب الأول في صمود المسلمين أمام هجوم الأعداء الماكرين.

وعرف الأعداء المعاصرون ذلك فلم يجعلوا هدفهم: التغلب العسكري – وحده – على أمة الإسلام، بل ربما سبقته ولحقه التغلب الحضاري الذي يصنعونه ويعتقدونه في بلادهم، ويوجهونه إلى بلادنا الإسلامية في صورة غزو فكري واستعلاء أرضي، وتقدم علمي تقني مصحوب بمظاهر الحياة اليومية عندهم، وليس لهذا كله من هدف إلا الحيلولة بين المسلمين وإسلامهم ليسهل انقياده لهم ويسلم لهم بالتفوق المطلق ويقر أمامهم بالعجز التام، فيصبح تابعاً لهم، أو بوقاً من أبواقهم، وهذا ما وقع فيه بعض أصحاب الرأي والفكر في بلادنا، حتى تراهم يدافعون عن الصهيونية ويمتدحون التوجهات الغربية ويهاجمون تعاليم الإسلام، وكل مسلم متمسك بها، حريص على نشرها.

إن الأمـة اليـوم يجـب أن تقـف وقفـة حازمـة في وجـه هـذه الهجمـة الشرسة، التي تحاول أن تنزع الإيمان من القلوب، حتى تحافظ على هويتها الإسلامية في كل مكان، وعلى العلماء والدعاة خاصة عبء القيام بأكبر الواجبات في هذا المجال، ليوقظوا الأمة من سباتها، ويعيدوا إليها قوتها المعنوية وقوتها المادية التي أمر الله بها في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠] وإذا كانت الأمة قد عجزت عن تحقيق القوة المادية نظراً لتخلفها العلمي والتقني... فما سبب تخلفها في حشد القوة المعنوية (قوة الإيمان) التي هي أساس لابد منه في مواجهة الأعداء والثبات أمام هجومهم الشرس الذي يهدف إلى سقوط الحصن المنيع الذي تحتمي به الأمة؟

إن الجماهير العريضة من المسلمين ما تزال فيهم غيرة على الدين، ومحبة للتمسك به وإعلاء شأنه، وهي لا تحتاج في ذلك إلا إلى موجهين حكماء وإلى قادة أدلاء نصحاء، وهؤلاء — بحمد الله — موجودون في الأمة، فلماذا نترك لغيرنا الفرصة ليسيطر على عقول أبنائنا، ويغذي أفكارهم ويشوه دينهم ويزين دنياهم لهم[١٠].

فالأمة الإسلامية تعيش انحطاطاً شاملاً، وهذا الانحطاط سيزول إذا ما حاولت الأمة الخروج منها والعودة إلى مقدمات عزها وشرفها، يقول أحد رواد نهضة الأمة والدعاة إلى رقيها الأستاذ عبد الرحمن الكواكبي (١٢٧١ -١٣٢٠هـ):

".....ينبغي لنا أن لا يهولنا ما ينبسط في جمعيتنا من تفاقم أسباب

الضعف والفتور كيلا نيأس من روح الله، وأن لا نتوهم الإصابة في قول من قال: إننا أمة ميتة فلا ترجى حياتنا، كما لا إصابة في قول من قال: إذا نزل الضعف في دولة أو أمة لا يرتفع..، فهذه الرومان واليونان والأمريكان والطليان واليابان وغيرها كلها أمم أمثالنا، استرجعت نشأتها بعد تمام الضعف وفقد كل اللوازم الأدبية للحياة السياسية، بل ليس بيننا ولاسيما عرب الجزيرة منا، وبين أعظم الأمم الحية المعاصرة فرق سوى في العلم والأخلاق العالية، على أن مدة حضانة العلم عشرون عاماً فقط، ومدة حضانة الأخلاق أربعون سنة"(١١).

هل وكيف ومتى ترتفع الأمة مرة أخرى؟

نعم – وبالتأكيد – سترتفع الأمة مرة أخرى إن شاء الله إذا ما رجعت إلى أسباب عزها.

هنا يحلو لنا أن نذكر الحديث الذي دار بين الشيخ الشعراوي ومستشرق وجه إليه أسئلة حول القرآن الكريم والإسلام والمسلمين:

يقول الشيخ: لما كنت في سان فرانسيسكو، سألني أحد المستشرقين: هل كل ما في قرآنكم صحيح؟

فأجبت: بالتأكيد نعم.

فسألني: لماذا إذاً جعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً؟ رغم قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١].

فأجبته: لأننا مسلمون ولسنا مؤمنين.

قال فما الفرق بين المؤمنين والمسلمين؟

رد الشيخ الشعراوي:

المسلمون اليوم يؤدون جميع شعائر الإسلام من صلاة وزكاة وحج وصوم رمضان.. إلخ من العبادات.

ولكن هم في شقاء تام: شقاء علمي واقتصادي واجتماعي وعسكري إلخ، فلماذا هذا الشقاء؟

سألني: إذاً لماذا هم في شقاء؟

أوضحه القرآن الكريم، لأن المسلمين لم يرتفعوا إلى مرحلة المؤمنين، فلنتدبر ما يلي:

لو كانوا مؤمنين حقاً لنصرهم الله بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

لو كانوا مؤمنين لأصبحوا أكثر شأناً بين الأمم والشعوب بدليل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، ولكنهم بقوا في مرحلة المسلمين، ولم يرتقوا إلى مرحلة المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

فمن هم المؤمنون؟

الجواب من القرآن الكريم هم: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الأَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

نلاحظ أن الله تعالى ربط موضوع النصر والغلبة ورقي الحال بالمؤمنين وليس بالمسلمين!

فإذا عاد المسلمون مؤمنين عاد إليهم عزهم التليد.

آراء لكبار القادة للعودة إلى سابق المجد:

نستعرض فيما يلي آراء وأقوالاً لكبار العلماء والزعماء بخصوص عودة الأمة إلى شرفها السابق:

هناك مقولة معروفة (تنسب إلى أكثر من إمام) تتداولها الألسنة وتتناقلها الكتب، وهي:

- "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"

فالحقيقة هذه الجملة بيت القصيد وأصل الأصول في الباب، وكيف صلح أول هذه الأمة؟الجواب يعرفه كل مسلم، إنما صلح بالاعتصام بالكتاب والسنة، فأمام الأمة خيار واحد لا ثاني له، وهو خيار التمسك بحبل الله المتين.

- كذلك هناك مقولة أخرى يبين سبب عز الأوائل وهي:

"لم يدرك الأول الشرف إلا بالفعل، ولا يدركه الآخر إلا بما أدرك به الأول".

نعم! حاز السابقون المجد بالتضحيات الجسام والبطولات الرائعة التي حيّرت العقول، فإذا ماشاء اللاحقون أن يحوزوا ما حازه الأولون حذوا حذوهم ونهجوا مسلكهم، فنجحوا هم كما نجح من قبلهم.

فالتاريخ الإسلامي زاخر بأمثلة رائعة من الجهود الجبارة التي قام بها المسلمون لنشر الإسلام، وكنموذج لذلك نقدم المجاهد المسلم المعروف عقبة بن نافع، فلما وصل إلى بحر الظلمات (البحر الإطلنطي أو

الأطلسي) قال كلمته الباقية العظيمة: "اللهم لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً في سبيلك، حتى أفتح الدنيا لنور الإسلام أو أهلك دينه".

إذا أنت لم تحم القديم بحادث

من المجد لم ينفعك ما كان من قبل

- المفكر المصري أحمد أمين يقول بخصوص عودة الأمة إلى مجدها السابق:

"قد كتب الله على نفسه "أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ" [الأنبياء: ١٠٥] وليس الصالحون من صلوا وصاموا ثم ناموا، إنما الصالحون من ضموا إلى عبادة ربهم رعاية حقوقهم وواجباتهم، وعرفوا كيف يسوسون الممالك، ويديرون أمورها على خير وجه وأقوم طريق، وتسلحوا بكل ما يقتضيه الزمان من سلاح مادي ومعنوي، أولئك هم الصالحون الذين يرثون الأرض، أما من عداهم فيرثون الذل والمسكنة في الدنيا وفي الآخرة ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥ -٢٦](١٢).

- وهذا الداعية الإسلامي الكبير الدكتور يوسف القرضاوي يرشد الأمة إلى طريق العودة إلى العز السابق متحدثاً عن أسباب مجدها الماضي:

"المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف".

"استعن بالله ولا تعجز" "اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل" "ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده" "وإن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة (نخلة أو شتلة صغيرة) فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها".

إن هذه الروح هي التي صنعت الحضارة الإسلامية المتميزة... حضارة

العلم والإيمان، وأقامت دولة العدل والإحسان، ومدت شعاع الإسلام في آفاق الأرض، فما انتشر الإسلام إلا بأخلاق المسلمين، وجل بلاد الإسلام لم يدخلها جيش فاتح بل مسلم صالح، على أن الجيش قد يفتح أرضاً ولكنه لا يفتح قلباً، إنما القلوب تفتح بالإقناع والقدوة.

إن الأمة مطالبة اليوم بأن تقدم شيئاً للبشرية كما قدمت بالأمس، ولن تفعل ذلك وهي كل على غيرها في العلم والعمل، تستورد غذاءها كما تستورد سلاحها، ولا يشفع لها التغني بأمجاد الماضي إذا لم تصل أسبابه بالحاضر، وإلا صدق فيها ما قاله الشاعر قديماً:

ألهى بني تغلب عن جُلّ أمر همو
قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها منذ كان أولهم
يا للرجال لشعر غير مسؤوم
إن القديم إذا ما ضاع آخره
كصارم فلت الأيام مثلوم"(١٣)

وكما قيل: الافتخار بالآباء مع العجز منقصة، والشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية.

- مرة أخرى ننقل هنا قولاً آخر لأحمد أمين الذي يؤكد فيه على دور القوة للعودة إلى العز السابق:

"وشيء آخر أحب أن أقرره من الناحية العملية وهو أن تراخي الأفراد والأمم في تأييد الحق اعتماداً على أنه بذاته سينتصر تصرف سيء باطل يشبه من كل الوجوه التوكل على الله من غير أخذ بالأسباب، فالحق محتاج إلى

قوة وراءه تدفعه وتحميه، والحق غير المسلح إذا وقف أمام الباطل المسلح انهزم، وظل في انهزامه حتى ينازل الباطل في مثل عدته وسلاحه، ولذلك لم تثبت النصرانية الأولى وتنتصر إلا بعد أن تسلحت، ولم ينتصر الإسلام في بدء حياته، ويدخل فيه الناس أفواجاً إلا بعد أن تسلح، بل إننا نرى أن الحق – أحياناً – يحتاج إلى أن يعتمد في حربه على شيء من الباطل كالذي قال معاوية: "إنا لا نصل إلى الحق إلا بالخوض في كثير من الباطل"[١٤].

وكما قيل – عن بيان أهمية القوة –: (من لم تقنعه قوة المنطق أقنعه منطق القوة، ومن لم يسمع صرير الأقلام أسمعه صليل السيف)

- العالم السوري الكبير مصطفى السباعي يحصر أسباب قوة الأمم وضعفها في ثلاثة أشياء، يقول:

ثلاثة تقوي أضعف الأمم: العقيدة الصحيحة، والعلم النافع، والأخلاق القوية.

وثلاثة تضعف أقوى الأمم: تبذل المرأة وطغيان الحاكم، واختلاف الشعب[١٥].

- عملاً بالنصيحة الإسلامية الغالية: "الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق بها"، نذكر هنا ما قاله نابليون الذي كان شاباً فقيراً، لكنه جد واجتهد حتى أخذ التاج من لويس الرابع عشر، وفتح المشرق، وصار في التاريخ أسطورة، وهو القائل: الحرب تحتاج إلى ثلاثة: المال ثم المال ثم المال، والمجد يحتاج إلى ثلاثة: العمل، ثم العمل ثم العمل[١٦].
- المفكر المصري أحمد أمين أثار سؤالاً حول ضعف الأمة رغم

عقيدتها العظيمة التي من شأنها أن ترفع رأس معتنقها، فما الذي جعل المسلمين في أنحاء العالم في الذيل لا في الصدر، وفي المؤخرة لا في المقدمة، وكان مقتضى العقل أن تجعلهم هذه العقيدة في طليعة أهل العالم، وحاملي لوائهم وهداتهم والسابقين إلى الخيرات، والآمرين لا المؤتمرين، والقائدين الأعزة لا المقتادين الأذلة، ثم أجاب أحمد أمين نفسه قائلاً:

سؤال صعب، والجواب الصحيح أن العقيدة الصحيحة تقوّم بذاتها لا بمعتنقها، فقد ينحرف أهلها عنها، أو يحتفظون بشكلها لا بجوهرها، ولو آمنوا بها حق الإيمان لصح أن يكونوا مقياساً كما كان معتنقوها الأولون، ولكن مع الأسف فقد المسلمون روح العقيدة وحرارتها وحياتها، وتمسكوا بظاهرها، والظاهر لا عبرة بها ولا قيمة لها.

والفرق بين المؤمن والكافر اليوم أن المؤمن مؤمن نظرياً، كافر عملياً، والكافر كافر نظرياً وعملياً، ولذلك سيبقى العالم مضطرباً حائراً فاسداً حتى يجد روحه وقلبه، وقد تفوق العالم المسيحي على العالم الإسلامي اليوم، لأنه كان أعرف بوسائل الأعمال ووسائل الحياة، وأكثر استكشافاً لقوانين المادة، وقوانين القوة المادية لا لأنه أرقى ديناً وأعظم روحاً، فالعالم كله اليوم مخطئ إذا نحن نظرنا إليه نظرة روحية، وهو شقي بتقدمه المادي وتقدمه العقلي من غير أن تسندهما قوة الروح، وليس ينقص المسلمين إصلاح في عقيدتهم، ولا روحانية في دينهم ولكن ينقصهم أمران: الأول أن يكون الدين روحاً لا شكلاً، وقلباً لا جوارح، وحرارة لا مظهراً، ونبضاً لا جموداً، وأن تكون "لا إله إلا الله" و"الحمد لله رب العالمين" معنى لا لفظاً وصادرة من أعمال القلب لا من طرف اللسان، وأن يكون معنى

"لا إلـه إلا الله" أن لـيس عـرض مـن أعـراض الـدنيا إلهـاً ، فالمـال والجـاه والسـلطان ليسـت آلهـة تعبـد ، ولا قـوة يخضـع لهـا ، وإنمـا الخضـوع للحـق وحده ، لأن الله هو الحق ومعنى أن الله رب العالمين : أن لـيس في العـالم رب يطاع... تسمع أوامره ونواهيه إلا هو – جل شأنه – والثاني : ارتباط عملـهم بعقيـدتهم ، وإيجـاد العلاقـة الوثيقـة بـين مـا يعملـون ومـا يعتقـدون ، فلـيس للعقيـدة مـن قيمـة إذا حفظـت في خزانـة لا تفـتح ، أو قدسـت وأهملـت ، أو لفت في ثياب من حرير ثم تركت ، فكما أن لا قيمة للمـال إلا مـا انتفـع بـه ، ولا لأي عرض من أعراض الحياة إلا إذا استغل للمصلحة ، فأهم مـن ذلـك كله العقيدة : إذا لم يبن عليها العمل كانت نجماً جميلاً في السماء ، أو لوحـة جميلـة في المعـرض ، أو خيـالاً بـديعاً في أخيلـة الشـعراء ، أو صـورة فنيـة مـن صور الأدباء ، إنما العقيدة المصلحة هي العقيدة يتبعها العمل وتبعث النـور في طريق الحياة ، وتهدي إلى الصراط المستقيم"[١٧] .

- لكي تعود الأمة إلى مجدها السابق لابد لها مـن التسـلح بـالأخلاق ، يقول الأديب المصري الكبير مصـطفى لطفـي المنفلـوطي : "نحـن في حالة نحتاج فيها إلى أن يعلم الناس عنا في كل مكان أننا أمة أخلاق وآداب ، وأن في نفـوس أفرادنـا مـن الصـفات والمزايـا مـا يرفعنـا إلى مصاف الأمم العظيمة ، ومقياس عظمة الأمـم عنـد العـالم إنمـا هـو بصفاتها ومزاياها قبل أن يكون أي شيء غير ذلك ، فإن فات آباءنا أن يورثونـا خلـق العظمـة والإبـاء في عهـدهم ، فلنتخلـق بـه نحـن لنورثه أبناءنا من بعدنا"[١٨] .

وإنمـــا الأمـــم الأخـــلاق مـــا بقيـــت
فـــإن همـــو ذهبـــت أخلاقهـــم ذهبـــوا

نحن في حاجة إلى عودة ذلك الحكم الذهبي: "الذي يقول فيه التاريخ لرجاله: "عففتم فعف ولاتكم، ولو سرقتم لسرقوا".

الحكم الذي يقول كبير أمرائه: "مثلي ومثلكم كمثل قوم وكلوا إلى واحد منهم أموالهم، فلا يحل له أن ينفق منها إلا برأيهم ومشورتهم....، وهو الحكم الذي يقول فيه رجل الدولة: "القوي عندكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"[١٩].

ذلك الحكم الذي كان يتمتع فيه كل إنسان بالحرية التي تعتبر روح الدين، يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه في بيت ينسب إليه:

وما الدين إلا أن تقام شرائع
وتؤمن سبل بيننا وهضاب

فلننظر كيف حصر هذا الصحابي الجليل الدين في إقامة الشرع والأمن.

هذا، ولاشك أن الحرية أعز شيء على الإنسان بعد حياته، وإن بفقدانها تفقد الآمال، وتبطل الأعمال، وتموت النفوس، وتتعطل الشرائع، وتختل القوانين، وقد كان فيناراعي الخرفان حراً لا يعرف للملك شنآناً (العداوة) يخاطب أمير المؤمنين بـ: يا عمر ويا عثمان.... فصرنا ربما نقتل الطفل في حجر أمه، ونلزمها السكوت فتسكت، لا تجسر أن نزعج سمعنا ببكائها عليه.

وكان الجندي الفرد يؤمن جيش العدو، فلا يخفر له عهد، فصرنا نمنع الجيش العظيم صلاة الجمعة والعيدين ونستهين دينه لا لحاجة غير الفخفخة الباطلة[٢٠].

لقد جربت الأمة الآن الأفكار والأيديولوجيات الأجنبية فما زادتها إلا هوانا وشقاء:

وإن تكـــن الأيـــام فينـــا تبـــدلت
بنعمـــى وبؤســـى والحـــوادث تفعـــل
فمـــا لينـــت منـــا قنـــاة صـــليبة
ولا ذللتنـــا للـــتي لـــيس تجمـــل

ومن لم يتقدم يتقادم، ومن لم يتجدد يتبدد، والبقاء للأصلح، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] والغلبة للأرقى والأقوى، والتفاعل الدائم بين المتجاورين، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

صحيح أن الأمة تواجه كقطع الليل تأتي مشتبهة كوجوه البقر، لا يدرى من أي.....؟

وصحيح مات الأبطال، ولكن لم يمت بموتهم الظفر والانتصار، ونحن على يقين أن الرقي والسعد سيعودان للأمة، وما ذلك على الله بعزيز، وهو على كل شيء قدير.

ونعتقد أن هذا الظلام سينحسر عن فجر منير وصبح سعيد.

اشـــــتدي أزمـــــة تنفرجـــــي
قـــــد آذن صـــــبحك بـــــالبلج

(وإذا اشتد الحبل انقطع وإذا أظلم الليل انقشع، وإذا ضاق الأمر اتسع) وأن الانتصارات العظيمة، والأيام الغر المحجلة المكتوبة بمداد الذهب في صفحات تاريخنا المجيد ستعود بإذن الله، وذلك يقتضي:

"أن نعيد ترميم أنفسنا بالإيمان والعمل، وتهذيب عقولنا بالعلم والتفكر، وهذا جوهر رسالتنا الربانية الخالدة وطريق ذلك: المسجد والمكتبة والمصنع"[٢١].

فحسبنا – كما قال الطنطاوي – تفكيراً برؤوس غيرنا، حسبنا نظراً بعيون عدونا، حسبنا تقليداً كتقليد القرود، ولنعد إلى أنفسنا، إلى عربيتنا وإسلامنا، إلى طهرنا وعفافنا[٢٢].

فالآن قد آن الأوان أن تراجع الأمة حسابها، وتعود إلى رشدها وصوابها وسبيل ربها، ولا ملجأ لها ولا منجى من الله إلا إليه.

إذا الشعب يوماً أراد الحيا
ة فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلي
ولابد للقيد أن ينكسر

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وتترك اليأس، فلا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة، قال شكيب أرسلان: "اليأس من جهة العقل انتحار، ولا ينتحر إلا الذي خالط عقله جنون، ومن جهة الدين كفر، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولتشمر عن ساق الجد، فالمجد ما يأتي هبة، ولكن يحصل بالمناهبة، ولولا المشقة لساد الناس كلهم.

والنجاح قطرات من الآهات والزفرات والعرق والجهد، (شمر عن ساعد المسعى، وأبشر بحسن الرجعى).

فلابد أن تغرس في صحراء العالم الإسلامي المجدبة أغراس الجد والعمل، والشجاعة والإقدام، والهمة والاستقلال:

تريــــدين لقيــــان المعـــالي رخيصـــة
ولابـــد للشـــهد مـــن إبـــر النحـــل

ولتنظر كيف جاهد أسلافها وكافحوا وناضلوا، فمن لا يجيد قراءة التاريخ لا يجيد قراءة وصنع المستقبل.

الهوامش

١. آفاق إسلامية، للدكتور أحمد عبد الرحيم السريح، مجلة "الداعي" الهند، العدد: ١١، السنة: ٢٤، ذو القعدة ١٤٢١هـ.

وما جاء تحت عنوان: "نماذج من الإسهامات والإبداعات الحضارية والعلمية لعلماء المسلمين" مأخوذ من مجلة: (الجامعة) الصادرة عن جامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالظهران، ١٥/ محرم الحرام ١٤٢١هـ.

٢. ماذا خسر العالم، ص: ١٢٩، الطبعة الخامسة عشرة.
٣. فيض الخاطر ٢٥٤/١، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
٤. الأسطورة للدكتور عائض القرني، ص: ٦٣٢، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ، بيروت.
٥. جريدة "الندوة" المكية ٢١/ شعبان ١٤٢١هـ، العدد: ١٢٧٧٧، من مقال للأستاذ فهد الطوير في.
٦. دروس من الحياة، ص: ٣٠.
٧. فيض الخاطر، ٣٩/١٠، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٨. أيضاً، ص: ٣٧ -٣٨.
٩. بتعديل من: فيض الخاطر ٩/ ٣٩.
١٠. الشيخ الدكتور جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين، **مجلة المجتمع** الكويتية، العدد ١٤٢٨، ٣/رمضان ١٤٢١هـ.
١١. الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي، ص: ٢٨٢، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، بيروت، وهذه إشارة إلى صعوبة اكتساب الأخلاق قياساً إلى تلقي العلوم.
١٢. فيض الخاطر، ٨/ ١٠٤.
١٣. الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم، ص: ٤٩.
١٤. فيض الخاطر، ٨/ ١٦١.
١٥. دروس من الحياة، ص: ١٦٧.
١٦. سنابل وقنابل للدكتور عائض القرني، ص: ١٩، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.
١٧. فيض الخاطر ٩/ ١٧٤.
١٨. الأعمال الكاملة لمصطفى المنفلوطي، ص: ٢٣٢، الدار النموذجية، بيروت، ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م.
١٩. دروس من الحياة لمصطفى السباعي، ص: ٣٤٧.
٢٠. الأعمال الكاملة للكواكبي، ص: ٢٩١.
٢١. سنابل وقنابل للدكتور عائض القرني، ص: ٢٠، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ / ٢٠١٨م.
٢٢.مع الناس لعلي الطنطاوي، ص: ١٧٥، مكتبة إحسان، لكناؤ، الهند.

انحطاط المسلمين انحطاط القادرين على التقدم والازدهار

إنها ليست أسطورة من أساطير الأولين، أو قصة من نسج الخيال، أو رواية من الروايات التي يضعها الكتاب (المحترفون) للمجلات أو المسرحيات والتمثيليات، بل إنها قصة حقيقية واقعية "ذات فنون وشجون"، قصة تمثلت على أرض الواقع، وتجسدت فصولها وتمثلت أدوارها عبر قرون متطاولة على مسرح التاريخ البشري... لا على مسرح الرواية السينمائي، أو منصة التمثيل الملهاتي.

إنها حقيقة ثابتة من أعظم حقائق التاريخ الإنساني التي لا يمكن إنكارها أو تجاهلها للحاقد الأعمى... فضلاً عن البصير الواعي....!

ولكن هذه الحقيقة التي تساوي — في حتمية وجودها — الشمس والقمر، والأرض والسماء، والبحار والأنهار، والجبال الشماء والسهول الفيحاء، وغيرها من الحقائق الكبرى الناطقة المرئية المعاشة — المبثوثة في الكائنات — التي لا مجال فيها لأدنى ذرة من شك وشبهة... أقول: إن هذه الحقيقة تبدو الآن أغرب من الخيال، أو نوعاً من الأحلام التي يراها الرائي في المنام.

وسبحان مقلب الليل والنهار، ولله في خلقه شؤون، وبيده الملك، يعز من يشاء ويذل من يشاء، وتلك الأيام نداولها بين الناس.

إنها قصة "أمتنا" المخرَجة للناس، المحظوظة بآخر وأعظم الكتب السماوية، المحظية بأفضل الرسل، الأمة التي سماها القرآن الكريم: "خير

أمة" فجعلها شامة في مصاف الشعوب ومنظومة الأمم، أمة مصطفاة مجتباة مختارة، فكأنها واسطة العقد، وبيت القصيد، والغرة في وجه الفرس، والتاج على رأس الملك.

فما هي القصة؟ وما هي الحقيقة التاريخية التي تبدو الآن أغرب من الخيال؟؟!!

ذلك ما نحاول الإجابة عنه فيما يلي:

إن أغلى ما وهب الله أمتنا الإسلامية: "العقيدة"...، فهي — العقيدة — روحها وجوهرها وسر وجودها، وقطب رحاها الذي يدور حوله سائر نشاطاتها، وعليها يتوقف — قبولاً ورداً — جميع أعمالها، فهي — العقيدة والإيمان — أغلى من الوجود وأثمن من الحياة.

العقيدة التي بها تميزت الأمة وسادت....، فبفضلها حققت ما حققت من الإنجازات والانتصارات والفتوح والبطولات التي حارت — ولا تزال تحار — فيها العقول العبقرية، وبفضلها حازت من الرقي والازدهار، ومنها — العقيدة — تفجرت ينابيع العلوم والفنون والمعارف التي لا تضارعها فيها أمة من الأمم.

والعقيدة هي التي جعلت العرب البدو يقفون من الإمبراطوريتين (الفارس والروم: القوتين العظميين آنذاك) اللتين كانتا تحكمان العالم، موقف الند للند، بل موقف السيد للمسود، فبهذه العقيدة هزموا الإمبراطوريتين شر هزيمة، فعادتا قصة ماضية، وكأنهما لم تغنيا بالأمس.

فكانت عقيدة الأمة أساس كل مجد أثلته وانتصار أحرزته، وعلم ابتكرته، وسبب سعادتها التي هصرت أغصانها، وجنت ثمارها، وطارت

في سمائها حقباً من الزمن، وبها أصبحت ترعى الأمم بعد ما كانت ترعى الغنم، ووصلت إلى الجوزاء بعد ما كانت تتسكع في الصحراء، وبلغت أوجها وذروتها.

وبهذه العقيدة أدرك أصحابها منبع قوتهم، وسر حياتهم، وغاية وجودهم.

وذلك شأن العقيدة، (أي العقيدة الصحيحة) فهي إذا صلحت أصلحت الفساد أو سدت الخلل وأكملت النقص الذي قد يوجد في مرافق أخرى من الحياة، وبالعكس إذا فسدت لم تنفع معها أحدث الأسلحة ولا أرقى الآلات، أو أبهى المظاهر وأضخم الثروات.

فالعربي البدوي حينما تسلح بسلاح العقيدة الصحيحة والإيمان الغالي والعمل الصالح...، واجه – وليس في يده إلا أسلحة بالية عتيقة – بها أرقى أمم العصر وأكثرها ثروة وامتلاكاً لأنواع الأسلحة الفتاكة بالنسبة لذلك العصر، ففاز وغلب ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فالعقيدة الصحيحة تصلح كل فاسد وتجبر كل انكسار، وتقوم كل اعوجاج، وتسد كل فراغ، وتؤدي إلى التقدم والازدهار، وإن كان صاحبها خاملاً مغموراً، جاهلاً معدماً فقيراً، مجرداً من كل شاشة ولافتة، عاطلاً محروماً من كل أسباب الرخاء والرفاهية، والرواء والبهاء، يعيش في بلد ليس له نصيب من المدنية، أو التقدم وزخارف الحياة ومباهجها.

وبالعكس إذا انعدمت العقيدة أو فسدت لم تجْد شيئاً ولم تغن غناء وإن كان صاحبها ذا غنى وثقافة وعلم وتجارب.

فالفرس والرومان لم تثبتا – مع قوتهما الحربية الضخمة والكثرة العددية الهائلة – أمام العرب القرويين – أصحاب الأسلحة الساذجة البسيطة....، لأن هؤلاء العرب كانوا يحملون في قلوبهم عقيدة ملتهبة لا تقهر، وإيماناً قوياً لا يتزلزل... وعاطفة جياشة لا يغرها الجمال الكاذب والمتاع الذاهب، وروحاً معنوية عالية تكهرب طاقتهم الكامنة، وحنيناً عارماً إلى الشهادة في سبيل الله، حنين الليل إلى مطلع الفجر والجدب إلى ديمة القطر.

أما الفرس والرومان فكانت قلوبهم هواء فارغة البطارية، محرومة من أي عقيدة أو إيمان أو عاطفة نبيلة، لا تحرك أصحابها إلا دواع تافهة وشهوات رخيصة، ولذات فانية، ومتاع عاجل.

إن هذه العقيدة غيرت العرب تغييراً كاملاً، غيرت عقليتهم ومزاجهم ونظرتهم إلى الكون والحياة، ووسعت أفقهم، وأخرجتهم من إطارهم المادي الضيق المحدود.. إلى أفق أوسع وغاية أسمى وهدف أنقى، إلى ما فوق المادة... إلى ماوراء المعدة والشهوة والمشاهد المحسوس والواقع الملموس، وحررتهم من رق الخرافة، ووضعت عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، ورفعت تفكيرهم ورققت شعورهم، وجعلتهم يسمون عن تقديس الأحجار وعبادة الأصنام والأوثان، ويتصلون بفاطر السموات والأرضين اتصالاً مباشراً بدون وسائط أو مقربات ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

نعم! هذه العقيدة هي التي خرّجت من العرب البدو والمسلمين غير

المتحضرين رجالاً عظماء وعباقرة خالدين من قواد العالم، وفاتحي الإمبراطوريات، وممصري البلدان ومؤسسي الممالك، ومهندسي العمران، ومدوني الدواوين، ومبتكري العلوم والمعارف، الذين لا تستطيع الأمم والشعوب المتحضرة أن تقدم نظراء لهم.

إن هذه العقيدة جعلت العرب المسلمين ينظرون إلى الفرس والروم نظرة العطف والشفقة، نظرة الحر الكريم إلى الأسارى المكبلين بالسلاسل والأغلال، فإنهم – الفرس والروم – كانوا عبيداً يعيشون في الأقفاص من الذهب (والقفص قفص ولو كان من ذهب) عبيد الشهوات والملذات والعادات والتقاليد والعقائد الفاسدة، فيحتاجون إلى أن يحرروا من هذه العبودية بجميع أشكالها وصورها وألوانها.

إن هؤلاء العرب كيف كانوا ينظرون – بعد ما تشبعوا بالروح الإسلامية – إلى أصحاب الحضارات السائدة آنذاك، يكفي لتقدير نظرتهم هذه ما حكت الكتب من منظر دخول ربعي بن عامر، بلاط رستم قبل وقعة القادسية، فإن فيه تفسيراً لما نقول وتصويراً لموقفهم من الحضارات المادية؛ بل إن هذا المنظر يمثل – في الواقع – موقف المسلمين في كل زمان ومكان من الحضارات قديمها وحديثها:

"أرسل سعد بن أبي وقاص قبل القادسية ربعي بن عامر رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم، فدخل عليه، وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي والحرير، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب، ودخل ربعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض

تلك الوسائد وأقبل وعليه سلاحه، وبيضته على رأسه، قالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حينما دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق، فخرق عامتها، فقال له رستم:

ما جاء بكم فقال: "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عد الإسلام".

هنالك نرى الحضارة الإسلامية واضحة جلية في موقف ربعي بن عامر في هذا البلاط وحديثه مع الملك، ودعوته إلى الدين الحق، وهو يدلنا أن حضارة "النمارق والزرابي" ليست إلا بداوة وتأخراً وانحطاطاً إذا خلت عن نور الوحي الإلهي والهدي السماوي، وأن المظاهر لا اعتبار لها، بل إن الاعتبار للروح التي تحدوها"[١].

فهذه العقيدة المعلية الرافعة هي التي جعلت أصحابها يرفعون راية الإسلام ويعلون كلمة الله، يفتحون البلاد ويعمرون الأمصار ويعتلون العوالي، ويحتلون المعالي، ويقتنصون النجوم، ويصلون الجوزاء، وينالون من المجد والعظمة ما لم يخطر للأمم السابقة ببال.

واستمرت هذه السلسلة من السؤدد والرفعة للأمة مئات من السنين.

ثم ماذا حدث...؟ حدث ما يخجل القلم من تسطيره، حدث ما يعرفه الجميع.

---

[١] الإسلام الممتحن: ١١٢ -١١٣.

كأن هذه الأمة أصابتها العين (والعين حق) فهبطت من الثريا إلى الثرى..

لماذا حدث هذا.....؟ أتركت الأمة عقيدتها التي رفعتها إلى السماء...

كلا.....!

إذن ما هو السبب....؟! إذا كانت الأمة لا تزال تعتنق تلك العقيدة الإسلامية التي كانت سبب صعود سلفها إلى الثريا..

فلماذا لم تعد العقيدة ترفع أصحابها كما فعلت في الماضي.

هل فقدت العقيدة – والعياذ بالله – مفعولها وأثرها....؟!

فما الجواب؟ الجواب أن المسلمين فقدوا روح العقيدة وجوهرها وحرارتها... إنهم متمسكون بها ظاهراً، فلم تعد تجري منهم مجرى الروح والدم في الاعضاء، والكهرباء في الأسلاك شأن سلف هذه الأمة...

فعادت العقيدة شكلاً لا روحاً، وقالباً لا قلباً، ولفظاً لا معنى.

الأذان يرتفع، ولكن فقدت الروح البلالية، الصلوات تقام، ولكن فقدت معنويتها وروحها، وخشوعها وخضوعها، "لا إله إلا الله" تقال من طرف اللسان، ولا تصدر من أعماق الجنان.

فغلبت الظواهر والرسوم والشكليات والطقوس على الروح والجوهر والمعنى.

فإذا عادت إلى العقيدة روحها وحياتها عادت إلى المسلمين غلبتهم وعزتهم.

فالعقيدة الحقة، والعمل الصالح المخلص، والبطولات والتضحيات هي التي ترفع أمة، وتصنع تاريخاً، وتحقق مجداً، وتجلب نصراً وفتحاً من الله.

ويحلو لي أن أنقل هنا كلمة بليغة قوية للكاتب الإسلامي الموهوب الأستاذ محمد الحسني (ابن شقيق الإمام الندوي رحمهما الله) عن أهمية العقيدة ودورها في بناء الأمة:

"إن هذه العقيدة الدافقة، وهذا اليقين الراسخ والحب الصادق، هو أكبر قوة موجهة، وأكبر معجزة عرفتها البشرية في عمرها الطويل، وبهذه القوة الخارقة والمعجزة الكبرى كان وجود حضارتنا الإسلامية وحياتها، وبذلك كان بقاؤها واستمرارها، وبذلك كان نموها وازدهارها، وبذلك كان إبداعها وإعجازها، الحضارة التي أدهشت عقول الفلاسفة والمفكرين، وحيرت العلماء والمؤرخين في التاريخ، ولا غرابة فإنها شيء أعز وأثمن من التاريخ، إنها من الله وإليه... إنها.... الحضارة الإلهية"[1].

بعد ما اطلعتم على كلمة قوية لكاتب هندي، أحب أن تطلعوا – أيضاً – على كلمة قوية أخرى لكاتب عربي وهو سيد الكتاب مصطفى لطفي المنفلوطي الذي أكد على أن المسلمين لن يستردوا سابق مجدهم ما لم يعودوا إلى الاعتصام بعقيدتهم السالفة الصحيحة، يقول: "جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين، ويغرس في قلوبهم الشرف والعزة والأنفة والحمية، وليعتق رقابهم من رق العبودية، فلا يذل صغيرهم لكبيرهم ولا يهاب ضعيفهم قويهم، ولا يكون لذي سلطان بينهم سلطان إلا بالحق والعدل، وقد ترك الإسلام بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور ا الأولى، فكانوا ذوي أنفة وعزة، وإباء وغيرة، يضربون على يد الظالم إذا ظلم، ويقولون للسلطان إذا

[1] الإسلام الممتحن، ص: ١٠٠.

جاوز حده: قف مكانك، ولا تغل في تقدير مقدار نفسك، فإنما أنت عبد مخلوق لا رب معبود واعلم أنه لا إله إلا الله.

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد، أما اليوم وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطن تارة والظاهر أخرى، فقد ذلت رقابهم، وخفقت رؤوسهم، وضرعت نفوسهم، وفترت حميتهم، فرضوا بخطة الخسف، واستناموا إلى المنزلة الدنيا، فوجد أعداؤهم السبيل إليهم، فغلبوهم على أمرهم، وملكوا عليهم نفوسهم وأموالهم ومواطنهم وديارهم فأصبحوا من الخاسرين.

والله لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهناءتها إلا إذا استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدة التوحيد، وإن طلوع الشمس من مغربها، وانصباب ماء النهر في منبعه، أقرب من رجوع الإسلام إلى سالف مجده، مادام المسلمون يقفون بين يدي الجيلاني كما يقفون بين يدي الله، ويقولون للأول كما يقولون للثاني: "أنت المتصرف في الكائنات، وأنت سيد الأرضين والسموات.

إن الله أغير على نفسه من أن يسعد أقواماً يزدرونه ويحتقرونه ويتخذونه وراءهم ظهرياً، فإذا نزلت بهم جائحة، أو ألمت بهم ملمة، ذكروا الحجر قبل أن يذكروه، ونادوا الجذع قبل أن ينادوه.

يا قادة الأمة ورؤساءها، عذرنا العامة في إشراكها وفساد عقائدها، وقلنا إن العامي أقصر نظراً وأضعف بصيرة من أن يتصور الألوهية إلا إذا رآها ماثلة في النصب والتماثيل والأضرحة والقبور، فما عذركم أنتم وأنتم تتلون كتاب الله، وتقرؤون صفاته ونعوته، وتفهمونه معنى قوله

تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٨].

إنكم تقولون في صباحكم ومسائكم وغدوكم ورواحكم: "كل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف" فهل تعلمون أن السلف الصالح كانوا يجصصون قبراً، أو يتوسلون بضريح؟ وهل تعلمون أن واحداً منهم وقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم، أو قبر أحد من أصحابه وآل بيته، يسأله قضاء حاجة، أو تفريج هم؟ وهل تعلمون أن الرفاعي والدسوقي والجيلاني والبدوي أكرم عند الله وأعظم وسيلة إليه من الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين؟ وهل تعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل... نهى عنها عبثاً ولعباً؟ أم مخافة أن تعيد للمسلمين جاهليتهم الأولى؟ وأي فرق بين الصور والتماثيل وبين الأضرحة والقبور، مادام كل منها يجر إلى الشرك، ويفسد عقيدة التوحيد؟

والله ما جهلتم شيئاً من هذا، ولكنكم آثرتم الحياة الدنيا على الآخرة، فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم، وانتقاض أمركم، وسلط عليكم أعداءكم يسلبون أوطانكم، ويستعبدون رقابكم، ويخربون دياركم، والله شديد العقاب"[1].

---

[1] الأعمال الكاملة للمنفلوطي، ص: ١٣٥، الدار النموذجية، بيروت.

درر وجواهر
من بحر العلم والأدب الزاخر

توطئة وتمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وسيد المعلمين وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد! فكان الأوائل من أعلام العلم ورجال الأدب يحثون على كتابة العلم، فمنذ طفولتنا نسمع المقولة الشهيرة: "القراءة صيد والكتابة قيد" وكذلك قرأنا كلمة الزهري: "إذا سمعت أدباً فاكتبه ولو في حائط".

والحقيقة – أن هذه الثروة الإسلامية المعرفية العظيمة – بجميع أنواعها – التي لا يوجد لها نظير في تاريخ أي أمة – يرجع الفضل – بعد الله – في صيانتها وبقائها ووصولها إلينا، إلى حرص الأوائل البالغ على الكتابة والتقييد رغم عدم توفر أدوات الكتابة في عصرهم مثلما توفرت وتيسرت للاحقين.

وقد ظلت الأمم والشعوب – منذ القدم – حريصة على حفظ مآثرها وصيانة روائعها بمختلف صور الحفظ والصيانة، فكانت العجم تقيد مآثرها بالبنيان والمدن والحصون مثل بناء أزدشير، وبناء اصطخر، وبناء المدائن، والسدير، والمدن والحصون، ثم إن العرب شاركت العجم في البنيان، وتفردت بالكتب والأخبار والشعر والآثار، فلها من البنيان غمدان، وكعبة نجران، وقصر مأرب، وقصر مارد، وقصر شعوب، والأبلق الفرد، وغير

ذلك من البنيان، وتصنيف الكتب أشد تقييداً للمآثر على ممر الأيام والدهور من البنيان، لأن البناء لا محالة يدرس وتعفى رسومه، والكتاب باق يقع من قرن إلى قرن ومن أمة إلى أمة، فهو أبداً جديد والناظر فيه مستفيد، وهو أبلغ في تحصيل المآثر من البنيان والتصاوير، وكانت العجم تجعل الكتاب في الصخور ونقشاً في الحجارة، وخلقة[1] مركبة في البنيان، فربما كان الكتاب هو الناتئ، وربما كان هو المحفور إذا كان ذلك تاريخاً لأمر جسيم، أو عهداً لأمر عظيم، أو موعظة يرتجى نفعها، أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره، كما كتبوا على قبة غمدان، وعلى باب القيروان، وعلى باب سمرقند، وعلى عمود مأرب، وعلى ركن المشقر، وعلى الأبلق الفرد، وعلى باب الرها، يعمدون إلى المواضع المشهورة، والأماكن المذكورة، فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور، وأمنعها من الدروس[2]، وأجدر أن يراه من مر به ولا ينسى على وجه الدهور، ولولا الحكم المحفوظة والكتب المدونة لبطل أكثر العلم، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر، ولما كان للناس مفزع إلى موضع استذكار، ولو لم يتم ذلك لحرمنا أكثر النفع، ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من عجيب حكمتها، ودونت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها كل مستغلق، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لقد بخس حظنا منه، وأهلُ العلم وأصحاب الفكر والعبر، والعلماء بمخارج الملل وأرباب النحل وورثة الأنبياء وأعوان الخلفاء يكتبون كتب الظرفاء والصلحاء وكتب

---

[1] الخلقة: الهيئة، الشكل.

[2] الدروس والدثور: الزوال.

الملاهي، وكتب أعوان الصلحاء، وكتب أصحاب المراء والخصومات، وكتب السخفاء وحمية الجاهلية، منهم من يفرط في العلم أيام خموله وترك ذكره وحداثة سنه، ولولا جياد الكتب وحسانها لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم، ونازعت إلى حب الكتب، وأنفت من حال الجهل وإن يكونوا في غمار الوحش، ولدخل عليهم من الضرر والمشقة وسوء الحال ما عسى أن يكون لا يمكن الإخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير[1].

وكاتب السطور يحمد الله سبحانه أنه خلقه في بيت علمي، فلما بدأ يعي ويشعر رأى والده مكباً على القراءة والكتابة، ومعلوم أن الطفل يتأثر بجو بيته، فنشأ الكاتب وشب – والحمد لله – على القراءة والكتابة، بحيث أصحبت القراءة والكتابة هوايته المفضلة، ويستطيع أن يقول – تحديثاً بنعمة الله – أنه رضع بلبان العلم، ثم إن الحرم الجامعي لندوة العلماء هو الآخر لعب دوره في تغذية الكاتب بالعلم والقراءة، حيث كان يحضر – منذ طفولته – مجالس الإمام أبي الحسن الندوي (رحمه الله) التي كان لا يسمع فيها الإنسان إلا ذكر الدين والعلم والدعوة والكتاب والعربية من حيث كونها لغة القرآن الكريم والحديث الشريف.

فهذه العوامل جعلت الكاتب يهوي القراءة منذ صباه، ولكنه كان لا يهتم كثيراً بتقييد ما يمر به – خلال المطالعة – من الكلمات والتعبيرات الجيدة، أو الحكم الغالية، أو المعلومات المفيدة وغير ذلك مما كان يستحسنه ويستجيده من مقروءاته.

---

[1] المحاسن والأضداد، ص: ٨، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

ولكن منذ سنوات قليلة بدأ يهتم – إلى حد ما – بتقييد الكثير مما كان يعجبه وينال استحسانه أثناء القراءة من الجمل والتعبيرات والمعلومات والحكم والنوادر، حتى ملأ ذلك نحو سبعة دفاتر كبيرة، وكان يخطر بباله – من حين لآخر – أن يرتب هذه المجموعة مما قيده في الدفاتر ويهذبها ويقسمها تحت مواضيع مختلفة، ثم ينشرها إفادة لطلاب العلم والأدب، ولم يتم للكاتب تحقيق هذا الخاطر ونقله إلى أرض الواقع لأسباب، ثم صح عزمه – أخيراً – على أن يختار – أولاً – من هذه المجموعة ما يتعلق بالعلم والأدب والعربية من النثر والشعر، فانتقى من هذه المجموعة نبذة مما يتعلق بذلك مما يبين أهمية العلم أو الأدب أو العربية أو يحمل معلومات قيمة أو طرائف أو فوائد جليلة عنها.

ولا يرمي من ذلك ... الكاتبُ إلا ليتحف الطلاب والمشتغلين بالعلم والأدب والعربية بما ينفعهم ويزيد شيئاً في معلوماتهم، ويعينهم في تهذيب بيانهم وتقويم ألسنتهم وصقل مواهبهم.

وأرجو الله تعالى أن يوفقني – مستقبلاً – لتقديم حلقات أخرى – من هذه السلسلة – مما قيدته في الدفاتر من الروائع والنوادر، والله الموفق لكل خير، وهو المرجو المسؤول، والمجيب إذا دعي وسئل، إنه خير مجيب، وبالإجابة جدير.

وإليكم الآن الحلقة الأولى (من هذه السلسلة) التي تتعلق بالعلم والأدب والعربية.

ومما ينبغي تنويهه أن المواد المقدمة في الحلقة، لم يراع فيها ترتيب خاص، وإنما كتبت – في الغالب – حسبما تيسر إدراجها في المذكرات.

النثر
(ما يتعلق بالعلم والأدب)

من مواقف سحر البيان العربي:

يذكر هنا موقفان، أحدهما شعري، والآخر نثري، كان للكلمة فيها سحرها وتأثيرها على المتلقي لدرجة جعلته يحس إحساس المتكلم، ويتجاوب مع وجدانه فيتعاطف معه، ويحقق له مراده، وهذا بلاشك من بطولة الكلمة المختارة ومن سحر نظمها المنتقى.

أما الموقف الأول فهو موقف مشهور للحطيئة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ذلك أن عمر كان قد حبس الحطيئة لكثرة هجائه، وبخاصة هجاؤه الزبرقان بن بدر أحد ولاته على بعض الأقاليم، فقال الحطيئة البيتين التاليين يستعطف بهما عمر ليطلق سراحه:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة
فاغفر – عليك سلام الله – يا عمر

وكان للبيتين أثر بالغ في نفس عمر رضي الله عنهم، فأطلق سراحه، ولكنه هدد بقطع لسانه إن عاد إلى الهجاء مرة أخرى.

أما الموقف الثاني فقد كان لامرأة مع الحجاج بن يوسف الثقفي

عندما احتجز زوجها وابنها وأخاها، فذهبت تستعطفه في العفو عنهم جميعاً، فشفعها في واحد منهم تختاره من بين الثلاثة، وكأنه بذلك يختبر ذكاءها ويسبر غور عاطفتها في موقف تتوزع فيه العاطفة ويحار فيه الذكاء، ولكن المرأة قالت: أما الزوج فموجود، وأما الابن فمولود، وأما الأخ فمفقود، وكان لهذا الكلام فعل السحر في نفسه من حيث حسن تقسيم جمله وسجعه، اللذين استدعاهما مقام الحديث، فما كان منه إلا أن أطلق سراح الثلاثة جميعاً[(١)].

اللغة و النحو:

اللغة هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، والنحو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة أهلها"[(٢)].

وقال محمد عبده: اللغة مجلى للفكر وترجمان له.

الأديب الحقيقي:

الأديب الحقيقي لا يعطي القبر إلا العظام

(الكاتب الفرنسي: أندريه جيد)

خلفية: إن من البيان لسحرا:

سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم عن الزبرقان

---

(١) أضواء على مكانة اللغة العربية وأبرز خصائصها، د. عبد الجوار محمد طبق، مجلة المنهل – جدة – العدد: ٤٩٨، ص: ١٣٣ -١٣٤، صفر ١٤١٣هـ.

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي، ص: ٢٤٩.

بن بدر[١]، فقال عمرو: "مطاع في أدنيه، شديد العارضة[٢]، مانع لما وراء ظهره"، فقال الزبرقان: "والله يا رسول الله! إنه ليعلم مني أكثر مما قال، ولكنه حسد في شر في"، فقال عمرو: "أما لئن قال ما قال، فوالله: ما علمته إلا ضيق الصدر، زمر المروءة، أحمق الوالد، لئيم الحال، حديث الغنى"، فلما رأى أنه خالف قوله الآخر قوله الأول، ورأى الإنكار في عين رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال يا رسول الله! رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الأخرى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك قوله المشهور: "إن من البيان لسحرا"[٣].

فضل الاختيار:

قالوا: اختيار الكلام أصعب من تأليفه، و: اختيار الرجل وافد عقله".

وقال الشاعر:

قـــد عرفنـــاك باختيـــارك إذ كـــا
ن دلـــيلاً علـــى اللبيـــب اختيـــاره

وقال أفلاطون: "عقول الناس مدونة في أطراف أقلامهم، وظاهرة في حسن اختيارهم"[٤].

---

[١] هما سيدان من بني تميم.

[٢] العارضة: قوة الكلام وتنقيحه، والرأي الجيد.

[٣] جمهرة خطب العرب ١/١٦٥، والجامع الصغير للسيوطي ١/٢٤٥٨، وكشف الخفاء ١/٧٨٠.

[٤] العقد الفريد لابن عبد ربه، ص: ٢.

خذوا من كل شيء أحسنه:

قال ابن سيرين: "العلم أكثر من أن يحاط به، فخذوا من كل شيء أحسنه، وفيما بين ذلك سقطات الرأي، وزلل العقول، ولكل عالم هفوة، ولكل صارم نبوة"[١].

بين عالم وأديب:

قال عبد الله بن مسلم بن قتيبة: من أراد أن يكون عالماً، فليطلب فنا من الفنون، ومن أراد أن يكون أديباً فليتفنن في العلوم[٢].

وقال ابن عباس رضي الله عنه: كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسع جهله، وكفاك من علم الأدب أن تروي الشاهد والمثل"[٣].

الفقه شرف:

قالوا: من أكثر من النحو حمّقه، ومن أكثر من الشعر بذله، ومن أكثر من الفقه شرّفه[٤].

الاختصاص حسب الرغبة:

قال بعض الحكماء: اقصد من أصناف العلم إلى ما هو أشهى لنفسك، وأخف على قلبك، فإن نفاذك فيه على حسب شهوتك له، وسهولته عليك[٥].

---

[١] أيضاً، ص: ٣.
[٢] العقد الفريد ٦٥/١، ألجزء الثاني.
[٣] أيضاً، ص: ٦٦.
[٤] أيضاً.
[٥] أيضاً، ص: ٦٨.

قول العالم: لا أدري:

سأل إبراهيم النخعي عامراً الشعبي عن مسألة، فقال: لا أدري، فقال: هذا والله العالم، سئل عما لا يدري فقال لا أدري.

وقال مالك بن أنس: إذا ترك العالم: لا أدري أصيبت مقاتله.

وقالوا: "العلم ثلاثة: حديث مسند، وآية محكمة، ولا أدري"، فجعلوا: "لا أدري" من العلم، إذا كان صواباً من القول[١].

خير الأدب:

قال أحمد أمين: "خير الأدب ما كان صادقاً يعبر عما في النفس من غير تقليد، ويترجم عما يجر به الكاتب في الحياة من غير تلفيق[٢].

دور الأدب في الفتوحات:

قال صلاح الدين الأيوبي: والله ما أخذت البلاد بالعساكر، بل فتحتها برسائل القاضي الفاضل[٣].

اهتمام عمر بن عبد العزيز بالأدب:

لقد كان لعمر بن عبد العزيز اهتمام بسماع الأدب وروايته، فقد روي عنه قوله: "ما كلمني رجل من بني أسد إلا تمنيت أن يمد له في حجته، حتى يكثر كلامه، فأسمعه"...، فاختصهم بالفصاحة والبلاغة لحسن منطقهم وأدائهم الحجة أداء فنياً جميلاً، وعندما أحسن رجل في طلب حاجة بين يديه، وتأتى لها بكلام وجيز ومنطق حسن أثار إعجابه الإيجاز وحسن

---

[١] أيضاً، ص: ٧٣.

[٢] حياتي، ص: ٣٠٣.

[٣] مجلة الأدب الإسلامي، الرياض، العدد: ٣٢، ١٤٣٢هـ.

المنطق، فقال: "هذا والله السحر الحلال"[١]، وكان حريصاً على أدب يلتزم الإسلام، ويقف إلى جانب الحق فيما يرويه ويحفظه من أشعار، فقد عرف عنه كثرة إنشاده شعر عبد الله بن عبد الأعلى القرشي الذي يقول فيه[٢]:

تجهـزي بجهـاز تـبلغين بـه
يـا نفـس قبـل الـردى لم تخلقـي عبثـا
وسـابقي بغتـة الآجـال وانكمشـي
قبـل اللـزام فـلا منجـى ولا غوثـا[٣]

الفرق بين العلماء والجهلاء:

"....فالعلماء والجهلاء إن دققت النظر سواء لا فرق بينهما إلا أن هؤلاء يعلمون المعلومات منظمة، وأولئك يعلمونها مبعثرة، وإن هؤلاء يحسنون البيان عنها، وأولئك لا يبينون"[٤].

مفهوم الأدب الإسلامي عند الطنطاوي:

"لا يزال في الناس من يختلط عليه أمر تعريف الأدب الإسلامي، ويدخل فيه كتابات إسلامية ليست أدبا، وكتابات أدبية ليست موافقة للإسلام، والذي أفهمه أنا بذهني الكليل وفهمي القليل أن الأدب الإسلامي هو ما كان أدباً مستكملاً شرائطه، جامعاً عناصره، وسواء في ذلك أكان ذلك قصيدة، أم كان قصة أم كان مسرحية، أم كان رواية، فالشرط فيها أن تكون

---

[١] البيان والتبيين للجاحظ، ١٧٤/١.
[٢] أمالي القالي ٣١٩/٢.
[٣] مجلة الأدب الإسلامي العدد: ٣٢.
[٤] النظرات للمنفلوطي، ص: ٤.

بالميزان الأدبي راجحة لا مرجوحة، وأن يكون الأثر الذي تتركه في نفس قارئها إذا انتهى منها، مرغباً له في الإسلام، ودافعاً له إلى الاقتراب منه لا أن تكون بحثاً فقهياً ولا تاريخياً ولا شرح حديث، ولا تفسير آية، فهذا كله ليس أدباً، وإن كان شيئاً أغلى وأثمن وأعلى من الأدب"[١].

الفرق بين العلم والأدب والفن:

العلم غايته الحقيقة ووسيلته الفكر، وأداته المنطق، والفن غايته الجمال، ووسيلته الشعور، وأداته الذوق، والأدب لون من ألوان الفن أو أسلوب من أساليب التعبير عنه.

من أسباب التكلف في الأدب:

ولست أدري ماذا يقول مؤرخو الأدب في هذا الرأي الذي أراه، وهو أن خضوع البلاد العربية لسلطان الأجنبي وقتاً طويلاً لم يحرم أهلها حريتها السياسية وحدها، بل حرمها حريتها العلمية والفنية، وكان هذا هو الذي اضطر الأدباء إلى الإمعان في التكلف والتصنع والانتهاء إلى الغموض وشيء يشبه العقم، إن لم يكن هو العقم"[٢].

الأدب ذكر:

قال الزهري: الأدب ذكر لا يحبه إلا الذكور من الرجال، ولا يبغضه إلا مؤنثهم، وقال: إذا سمعت أدباً فاكتبه ولو في حائط[٣].

---

[١] ذكريات علي الطنطاوي ١١٥/٨.

[٢] خواطر لطه حسين، ص: ١١٨، دار العلم للملايين.

[٣] المحاسن والأضداد لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، شرح د. يوسف فرحات، دار الجيل، بيروت، ص: ١٣.

مراتب اللغات:

"إن أبلغ الألسن واللغات لغة العرب، فهي في الدرجة الأولى، والثانية والثالثة شاغر مكانها، وفي الرابعة اللغة الفرنسية والفارسية والأردية، أما الإنجليزية فلا يحق لي أن أقول فيها شيئاً، لأنني لا أعرف منها إلا ثلاث كلمات: إذا أردت أن ترجو أحداً قلت: "بليس"، لعنة الله على إبليس، وإذا أردت أن ترحب به قلت له: "ويلكم"، بدلاً من قولك: أهلاً وسهلاً، وإذا سألت بياعاً عن ثمن شيء قلت له: "همج""[1].

الفرق بين العلم والأدب:

قال الطنطاوي: "كان علماؤنا يفرقون بين العلم والأدب، فالعلم تخصص وتعمق في علم واحد، والأدب أخذ من كل شيء بطرف، فكان معنى كلمة الأديب قديماً كمعنى كلمة المثقف فكرياً الآن"[2].

من مسوغات الدعوة إلى الأدب الإسلامي:

"الذين يتحدثون عن مسوغات للدعوة إلى أدب إسلامي، يحملهم على ذلك لحاجة قوم ألفوا أن يكون كل شيء لهم من صنع غيرهم، حتى كأن معدهم لم تعد تسيغ طعاماً يعد في مطبخ بيتهم، أو شراباً مصنوعاً من فواكه حقولهم، ولم تعد أجسامهم تطيق لباساً ينتجونه بأيديهم، كأنما صار هذا الآخر من نسيج شخصيتهم، كل ما يخصهم ينبغي أو يستحب أن يأتي من عنده بما في ذلك فكرهم وأدبهم.

---

[1] ذكريات علي الطنطاوي، ٦/٢٧٣.

[2] ذكريات علي الطنطاوي، ٧/١٠١.

ولو لا ذلك ... أكان ثمة داع أن يتساءل عن سبب الدعوة إلى أدب إسلامي؟ إذ أليس ذلك هو الأصل؟ أليس من بدهيات الأمور ومسلمات الأقوال أن يكون أدب (أمة مسلمة) أدباً إسلامياً؟ أدباً مصبوغاً بصبغة عقيدتها، نابعاً من تصورها الفكري، عاكساً رؤاها لكل جزئية في هذا الكون من حولها؟

أليس من الغريب مثلاً أن تكون أمة مؤمنة بعقيدة معينة، ينطق بها لسانها، ويشد عليها قلبها، وتذكر ذلك في هويتها التي تنتقل بها بين الأمم، ثم يكون ما يعبر عنها من الفكر والإحساس والقول غير ذلك.

أليس ذلك من "التناقض" و"انفصام الشخصية" الذي ينبغي أن يسأل عن مسوغات له، لا العكس، لأنه يعد من الأمراض التي ينبغي أن يلتمس لها البرء.

أما لماذا نشطت الدعوة إلى هذا الأدب: (القديم الحديث) في هذا العصر بالذات؟ ولماذا وجد له مصطلح نقدي جديد لم يعرفه تراثنا، ولم يذكره نقادنا القدماء، الذين قد يكونون أورع منا وأحرص؟ فنقول في مختصر من القول: لأن الأدب الإسلامي – عدا أنه الأصل الذي يمثل هويتنا الفكرية – فإن هنالك في هذا العصر بالذات، من يحاول إلغاء المرجعية الإسلامية عن جميع العلوم الإنسانية ومنها الأدب، ذلك النشاط المؤثر الفعال.

إن المحاولات اليوم جادة – على أيدي طوائف كثيرة – لإبعاد الأدب عن العقيدة، بل عن الحياة والمجتمع والرسالة، وهذا لم يحصل يوم أن كان الإسلام لا يقدم بين يديه رأي أو فكر يصادمه، ولذلك لم يجد علماؤنا المتقدمون حاجة أن نشاطاً معرفياً بأنه إسلامي، لأنه كذلك حقاً، لم يكن

أحد يتحدى هذه الصفة أصلاً، أو يحاول إقصاءها، أما الآن فقد ظهرت عندنا مذاهب أدبية غريبة – مستوردة من شرق ومن غرب – تلغي الإسلام وتعاديه وتعده تخلفاً وانحطاطاً، كالوجودية والواقعية والاشتراكية، والمدارس الحداثية المختلفة، وكثير من التيارات والمذاهب[1].

دور الأدب:

قال الطنطاوي: "الأدب هو محرك الشعوب، ومثير الهمم، وباعث العزائم، الأدب يوقظ النائم وينبه الغافل، فأين أنتم يا أدباء العرب (من قضية فلسطين) إن خطبة طارق فتحت الأندلس، وخطب نابليون أكسبته استرلتز، وخطب فيخته أعادت الروح إلى الألمان، وأرجعتهم إلى مكانهم من الحياة"[2].

مفهوم التجديد في اللغة:

"والتجديد كما نفهمه (أو كما أفهمه أنا على الأقل) لا يكون بقطع الصلة بالماضي، ولا بالخروج على قواعد اللغة وسنن العرب في كلامها، ولا بالدعوة الحمقاء إلى العامية، ولا بأن نعمد إلى عقود الشعر، فنقطع خيوطها، وننثر حباتها، ونأتي بشيء لا هو بالنثر ولا هو بالشعر، بل أن تبقى اللغة عربية سليمة من العلل، بليغة قوية بعيدة عن الركاكة والضعف، ونصب فيها بعد ذلك ما شئنا من أساليب جديدة وأفكار جديدة، أي أن نصنع ما صنع أجدادنا في العهد العباسي حين ترجموا كتب اليونان والفرس فجعلوها عربية، ولم يجعلوا لغتهم من أجلها يونانية

[1] مجلة الحرس الوطني (الرياض) ص: ٨٧ وما بعدها، جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ.
[2] ذكريات علي الطنطاوي، ٢٧٥/٢.

ولا فارسية، ولا لغة ممسوخة مسخاً، هي من أصلها العربي كالقرد الذي كان إنساناً فمسخ قرداً أو خنزيراً[١].

هذه اللغة القردية التي نراها في المجلات تترجم عن الإنكليز والفرنسيين أدبهم انتقل إلينا كما ينقل التمثال البديع لكن بعد كسره، لا ننقله تمثالاً بل رفات تمثال، وقد أنفق ساعة من وقتي أحاول أن أفهم صفحة منه، ثم لا...."[٢].

بين التصوير والأدب:

"التصوير والأدب لغتان تعبران عن الحقيقة الواحدة، إن الطبيعة أبرع في الألوان، ولكن الفن البشري أبرع في الأصوات، والطبيعة ليست موسيقية فنانة، ولكن عندها من الألوان ما لا نهاية له، هذا الذي قدره الله عليها، وكتبته لها.

هل في الطبيعة من الأصوات إلا هدير الموج، وخرير النهر، وحفيف الأشجار، وتغريد البلابل، وسجع الحمام، وقصف الرعد؟ هذه موسيقاها، ومن هنا.... كانت الموسيقى البشرية أسمى الفنون، لأنها ابتكار وتجديد، على حين الأدب والتصوير تقليد"[٣].

قول علي في فضل العلم:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كفى بالعلم شرفاً أنه يدعيه

---

[١] المسخ الوارد: من العلماء من قال إنه كان مسخاً حقيقياً، ولكن من يمسخ لا يعيش إلا قليلاً، ولا يكون له نسل، ومن قال إنهم مسخوا في أخلاقهم وسلوكهم فصارت كصفات القردة والخنازير.

[٢] ذكريات علي الطنطاوي ١٧/٣.

[٣] ذكريات علي الطنطاوي ٢٠٨/٣.

من لا يحسنه ويفرح إذا نسب إليه من ليس من أهله، وكفى بالجهل خمولاً أنه يتبرأ منه من هو فيه، ويغضب إذا نسب إليه.

فنظم بعض المحدثين ذلك، فقال:

كفى شرفاً للعلم دعواه جاهل
ويفرح أن يدعى إليه وينسب
ويكفي خمولاً بالجهالة أنني
أراع متى أنسب إليها وأغضب

وقال رضي الله عنه أيضاً: كل شيء يعز إذا نزر، ما خلا العلم، فإنه يعز إذا غزر"[١].

أهمية النحو:

حدث أبو العيناء عن وهب بن جرير أنه قال لفتى من باهلة: يا بني: اطلب النحو فإنك لن تعلم منه بابا إلا تدرعت من الجمال سربالا[٢].

وقال أبو عمرو بن العلاء: إنما سمي النحوي نحوياً لأنه يحرف الكلام إلى وجوه الإعراب[٣].

كلمة بليغة في الجمع بين الفن والدين:

"إذا تفنن رجل الدين، وتدين رجل الفن التقيا في منتصف الطريق لخدمة العقيدة الصحيحة والفن السليم"[٤].

---

[١] معجم الأدباء ١/٦٦.
[٢] أيضاً، ص: ٨٣.
[٣] أيضاً، ص: ٨٢.
[٤] الموسوعة الشرباصية للدكتور أحمد الشرباصي.

بيت في الإعراب:

وليســـــت بنحـــــوي يلـــــوك لســـــانه
ولكـــــن ســـــليقي أقـــــول فـــــأعرب

معنى الثقافة:

"الثقافة" كلمة تدل على الفهم والحذق والذكاء، ومعناها في العرف الحاضر أن يكون للإنسان ملكة ومعارف يستطيع بها أن يدرك الحقائق في دقة وتفصيل، وأن يشارك في أمور الحياة بوعي وبصيرة"[١].

القرآن معجمي أدبي لغوي:

"....فلنقوم ألسنتهم ولنصحح لغتهم، ولنضبط تفكيرهم وتعبيرهم بالاغتراف من منهل القرآن وكثرة الترتيل له، فإنه المعجم الأدبي اللغوي الإلهي الذي تستقيم به الألسنة وتعتدل الأفكار، ولنضف إلى ذلك زادا من أدب الرسول ومن الآثار الأدبية المزكاة بنور الإسلام خلال العصور التي ازدهرت بروعة البيان مع جلال الإيمان"[٢].

روائع عن لغتنا الحبيبة:

- جاء في رسالة من عبد الحميد الكاتب إلى معشر الكتاب:

"فتنافسوا يا معشر الكتاب في صفوف الآداب، وتفقهوا في الدين، ابدؤوا بتعلم كتاب الله عز وجل ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم".

- ويقول الأديب السعودي أحمد عبد الغفور عطار رحمه الله:

---

[١] الموسوعة الشرباصية ٢/١١٦.
[٢] أيضاً، ص: ١٣٤.

"إن العربية ليست أصعب من (الفيزيا والهندسة والرياضيات والطب) بل نقول في ثقة واطمئنان: إن العربية سهلة، وقواعدها أسهل من قواعد أي لغة أخرى، فالإعراب سهل وواضح، وقواعده محدودة، فالاسم له حالات ثلاث هي: الرفع وله مظاهر ستة والنصب وله أحد عشر مظهراً، والجر وله مظهران، وليست معرفة هذه المظاهر صعبة، لأننا عرفناها (ونحن أطفال) ندرس النحو في المرحلة الابتدائية، وليس معنى هذا أننا ننفي الصعوبة عن تعلم العربية، فما من علم إلا وفيه شيء من الصعوبة التي لا تحول دون التعلم والتفقه.

- وجاء في كتاب سيبويه:

"وطفق سيبويه يطلب العلم بها – أي بالبصرة – فكان الحديث والفقه من أول ما يدرس العلماء، فأعجبه ذلك، وصحب الفقهاء وأهل الحديث، وكان يستملي الحديث على حماد بن سلمة، قال القفطي: (وكان شديد الأخذ، فبينما هو يستملي قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس من أصحابي إلا من لوشئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء) فقال سيبويه: (ليس أبو الدرداء) وظنه اسم ليس، فقال حماد: لحنت يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبت، وإنما (ليس) هاهنا استثناء فقالك لا جرم سأطلب علماً لا تلحنني فيه، فلزم الخليل فبرع.

وفي خبر آخر يرويه حماد بن سلمة أنه جاء إليه سيبويه مع قوم يكتبون شيئاً من الحديث، قال حماد: فكان فيما أمليت ذكر الصفا، فقلت: (صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا)، وكان هو الذي يملي، فقال: (صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفاء) فقلت يا فارسي

لا تقل الصفاء، لأن الصفا مقصور، فلما فرغ من مجلسه كسر القلم، وقال: (لا أكتب شيئاً حتى أحكم العربية).

ولعل هاتين الحادثتين مع حوادث أخرى هي التي حدت بسيبويه إلى العناية الشديدة بتعلم النحو، فتعلم وأخرج لنا كتابه المعروف (كتاب سيبويه) المتميز من بين الكتب[1].

مقولة شهيرة في الأدب:

الأدب كتب في مصر، وطبع في الشام، وقرئ في السودان".

أدب الدنيا والدين:

لابد أن يعلم المسلم المعاصر أن أسلافه قامت حضارتهم على أدب الدين والدنيا، فأدب الدين ما أدى الفرض، وأدب الدنيا ما عمر الأرض، كما يقول الفقيه أبو الحسن الماوردي.

بيت لشوقي عن العربية:

إن الذي ملأ اللغات محاسنا
جعل الجمال وسرّه في الضاد

العلم والتعليم:

قال أبو سليمان: "العلم صورة المعلوم في نفس العالم، وأنفس المتعلمين عالمة بالقوة، والتعليم هو إبراز ما بالقوة إلى الفعل، والتعلم هو بروز ما هو بالقوة إلى الفعل"[2].

---

[1] مجلة "الرابطة"، مكة المكرمة، رمضان ١٤٢٢هـ.

[2] الإمتاع والمؤانسة لأبي حبان التوحيدي، ص: ٢٨، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

ضرورة التنوع في العلوم:

قال يحيى بن خالد لابنه: عليك بكل نوع من العلم، فخذ منه، فإن المرء عدو ما جهل، وأنا أكره عدو شيء من العلم، وأنشد:

تفـــنن وخـــذ مـــن كـــل علـــم فإنما
يفـــوق امـــرؤ في كـــل فـــن لـــه علـــم
فأنـــت عـــدو للـــذي أنـــت جاهـــل
بـــه ولعلـــم أنـــت تتقنـــه ســـلم[1]

بين العلم والأدب:

قال ابن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.

حول الأدب:

قال رويم – عالم صالح – لابنه: "يا بني اجعل علمك ملحا، وأدبك دقيقاً".

الشيخ الندوي والأدب الإسلامي في ظلال البيت الحرام:

يقول الدكتور عبد القدوس أبو صالح رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية: ".....ومن هنا تأتي ضرورة الإفادة من الأدب الإسلامي الذي قال عنه سماحة الشيخ الندوي رحمه الله في آخر لقاء لي معه في ظلال البيت الحرام: "إني أدعو الله أن يلهم المسئولين في العالم العربي والإسلامي أن يفيدوا من الأدب الإسلامي لإنقاذ الأجيال مما تتردى فيه من فتن العصر".

[1] أدب الدنيا والدين لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب المصري الماوردي المتوفى ٤٥٠هـ، ص: ٢٩، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥م / ١٤٢٦هـ.

يقول الدكتور معلقاً على كلمة الندوي: "وما ذلك إلا لأن الأدب الإسلامي هو الأقرب إلى فطرة الشباب المسلم، ولأنه يهتدي بمشكاة الوحي والنبوة، ولأنه يستمد من تراث الأمة، ويلائم ذائقتها، ويعبر عن آمالها وآلامها، ويرسم طريق النهضة لهذه الأمة ويحقق لها الأمن النفسي والأمن الفكري"[١].

تعريف الأدب الإسلامي:

هو التعبير الصحيح عن الكون والحياة والإنسان بصورة جمالية ممتعة، ولأن الإسلام يمثل مناخ هذا الأدب ومنبعه، فهو يتسع كاتساع الإنسان، ويمتد بامتداد حياته ولا يتعارض إلا مع ما يتعارض مع مصلحة الحياة الإنسانية ذاتها ومع ذوقها الجميل[٢].

أكبر كتاب العربية خمسة:

قال الطنطاوي: "**الجاحظ**: لا أستطيع أن أنفيه منهم، ولا أبعده عنهم، **وأبو حيان التوحيدي**: أول قصصي مبتكر في أدبنا، **والغزالي**: حين يحلل النفس البشرية في (الإحياء)، **وابن عربي** في (الفتوحات) إذا قسناه بمقياس الأدب لا بمقياس الدين، **وابن خلدون** في المقدمة"[٣].

رسالة الأديب والفيلسوف سواء:

"فالذي أرى أن رسالة الأديب هي من جنس رسالة الفيلسوف، كلاهما يرمي أو يجب أن يرمي إلى إبراز الحقيقة ونقلها إلى السامع أو

[١] مجلة الأدب الإسلامي (الرياض) العدد: ٦٣.
[٢] مجلة الأدب الإسلامي، العدد: ٦٢.
[٣] ذكريات الطنطاوي ٢/٢٧.

القارئ، وغاية ما بين الفيلسوف والأديب من فرق أن الفيلسوف ينقلها إلى عقل السامع أو القارئ، والأديب ينقلها إلى قلبه، ومن أجل هذا يستعين الفيلسوف بالمنطق وما يتبعه من مقدمات محكمة ونتائج مستلزمة، فهي بالعقل أليق، والأديب يؤدي الحقيقة من طريق الخيال الجميل والأسلوب الجميل، لأنهما بالقلب أليق"[1].

الرد على من يقول بأن في العربية حشوا:

قد حكى الإمام عبد القادر الجرجاني، قال: "ركب الكندي – هو نفسه الجرجاني – المتفلسف إلى العباس، وقال له: إني أجد في كلام العرب حشوا، فقال له أبو العباس في أي موضع؟ قال: وجدت العرب تقول: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال له أبو العباس: لا، بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبد الله قائم، إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم، جواب على إنكار منكر قيامه، فما أحار المتفلسف جواباً، فإذا ذهب مثل هذا على الكندي فما الظن بغيره؟ وإن كان من محاسن الكلام ما لا يحكم في امتزاجه بالقلوب غيرُ الذوق الصحيح، كما قال الشاعر:

شيء فتن الورى غير الذي
يدعي الجمال، ولست أدري ما هو

لكن الغالب في الكلام أن يعلم سبب تحسينه وتعليل مواد تمكينه،

---

[1] فيض الخاطر لأحمد أمين ١/٢٩٣.

ويجاب عن العلة في انحطاطه وارتفاعه، ويذكر المعنى في ارتقائه من حضيض القول إلى يفاعه"[١].

قول الأفغاني عن سعة العربية:

"اللغة العربية وسعها البدو في البراري والقفار، وضيقها الحضر في المدن والأمصار"[٢].

أصول الأدب:

قال ابن خلدون في مقدمته عند الكلام على علم الأدب: "وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة كتب، هي: أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب الأمالي لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها".

أول من كتب بالعربية:

لقد اختلف في أول من كتب بالعربية، فذكر كعب الأحبار أن أول من كتب بها ثم وجدها بعد الطوفان إسماعيل على نبينا وعليه السلام.

وحكى ابن عباس رضي اله عنهما، أن أول من كتب بها ورضعها إسماعيل على لفظه ومنطقه، وحكى عروة بن الزبير رضي الله عنهما أن أول من كتب بها قوم من الأوائل، أسماؤهم: أبجد، وهوز، وحطي، وكلمن، وسعفص، وقرشت، وكانوا ملوك مدين، وحكى ابن قتيبة في

[١] صبح الأعشى ١/٢٢٣.
[٢] فيض الخاطر لأحمد أمين ٤/٢٢١، عنوان المقال: (جمال الدين الأفغاني).

المعارف: أن أول من كتب بالعربي مرامر بن مرة من أهل الأنبار، ومن الأنبار انتشرت.

وحكى المدائني: أن أول من كتب بها مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، فمرارة وضع الصدر، وأسلم فصل ووصل، وعامر وضع الإعجام[١].

الأدب قد بلغ سن الرشد:

"....ومن هنا جاءت عظمة الأدب، وجاء خلوده، أنه ليس كالعلوم، إن قرأ طالب الطب في كتاب ألف قبل أربعين سنة، سقط في الامتحان، أما طالب الأدب فيقرأ شعراً قيل من ألف وخمسمائة سنة، ولا يزال جديداً كأنه قيل اليوم، لا، لا تقولوا إن العلوم تترقى وتتقدم وتسعى إلى الكمال، لأن الجواب حاضر، إن الأدب قد بلغ سن الرشد وحدّ الكمال، من قبل أن يولد العلم، وقد عاش البشر دهوراً بلا علم، ولكنها لم يعيشوا يوماً بلا أدب، إن آدم قال لحواء كلمة الحب، لم يحدثها في الكيمياء، ولا حل معها مسائل الجبر في رياض الجنة، والحب أول كلمة في سجل الأدب.

الشعر أخلد من الكيمياء، وأبقى من الرياضيات، كم مرة تبدلت نظريات العلم، منذ نظم هوميروس قصيدته إلى اليوم، وأشعار هوميروس لا يزال لها رونقها ومنزلتها"[٢].

---

[١] أدب الدنيا والدين لأبي الحسن بن محمد بن حبيب البصري الماوردي (م٤٥٠)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٥م / ١٤٢٦هـ.

[٢] رجال من التاريخ للطنطاوي، ص: ١٨٧، إحسان بكدبو، لكناؤ (الهند).

خصائص الأدب العربي:

"....فالظاهرة التي يمتاز بها أدبنا، والتي تمكننا من درسه وتتبع أطواره، هي أنه قديم جداً، وحديث جداً، قد اتصل قديمه بحديثه اتصالاً مستقيماً لا انقطاع فيه ولا التواء، ففيه خصائص الآداب القديمة، وفيه خصائص الآداب الحديثة، وفيه ما يمكننا من استخلاص حديثه من قديمه، وما يغنينا عن كثير من الفروض، أدبنا العربي كائن حي، أشبه شيء بالشجرة العظيمة التي ثبتت جذورها وامتدت في أعماق الأرض، والتي ارتفعت غصونها وانتشرت في أجواز السماء، والتي مضت عليها القرون والقرون، وما زال ماء الحياة فيها غزيراً يجرى في أصلها الثابت في الأرض، وفي فروعها الشاهقة في السماء"[١].

روعة وجمال اللغة العربية:

سئل أحدهم: من أسعدُ الناس؟

قال: من أسعدَ الناس!

ما العلم؟

".....لكن للعلم معنى غير هذا، ذلك هو الذي يقابل الشك ثم الظن، أي أنه يأتي بمعنى اليقين، فالشك خمسون بالمائة نعم، وخمسون لا، والظن ستون بالمائة نعم، وغلبة الظن سبعون بالمائة، والعلم مائة على مائة".

"ولكن أجود تعريف سمعت به وأقربه إلى الوضوح، ما قاله

---

[١] ألوان لطه حسين، ص: ١٣، دار المعارف، القاهرة.

سارطون، ولا يضرنا أن نأخذ منه، فإن الحكمة ضالة المؤمن، أي أنها ملك له ضاع منه، وند عنه، فهو يلتقطها حيث وجدها:

"قال سارطون: "العلم مجموعة معارف محققة ومرتبة".

لما قال: "معارف" أخرج المشاعر، ولما قال: "محققة" أبعد النظريات، ولما قال: "مرتبة" نفى الحقائق المفردة المنثورة، التي تبدأ بها العلوم عادة قبل استكمال تكوينها"[١].

الدليل القرآني على التخصص في فن واحد:

"ومن (الغرارة) ظننا أن الكياسة في "أدري وأقدر" جواباً للنفس في مقاصد كثيرة شتى، والحقيقة أن الكياسة لا تتحقق في الإنسان إلا في فن واحد فقط يتولع فيه فيتقنه حق الإتقان كما قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] فالعاقل من يتخصص بعمل واحد ثم يجاوب نفسه عن كل شيء غيره: "لا أدري، ولا أقدر" لأن الأول يتكلف أعمالاً لا يحسنها فتفسد عليه كلها، والثاني يتحرى لكل عمل لازم له من يحسنه فتنتظم أموره، ويهنأ عيشه"[٢].

أهمية الأدب عند الطنطاوي:

"وهل في الدنيا بعد الدين شيء أعظم من الأدب، إنه كلام، ولكنه

---

[١] ذكريات علي الطنطاوي ٦/٢٣٥ -٢٣٦.

[٢] الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي، ص: ٣٦٩، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.

كلام يجر فعالاً، إنه كلام ولكنه يقيمكم إن كنتم قاعدين، ويقعدكم إن كنتم قائمين، ويدفع بكم إلى الموت، ويأخذ بأيديكم إلى الحياة، وكذلك يتصرف الأدباء بالناس"[١].

دور الأدب في فهم القرآن الكريم:

".....فلولا الأدب ما استطاع أئمتهم المجتهدون فهم آيات الكتاب المنزل ولا استنباط تلك الأحكام التي دونوها لهم وتركوها بين أيديهم يستغلونها كما يستغل المالك ضيعته، ويعيشون في ظلها عيش السعداء المترفين، ولولاه لما استطاع علماؤهم اللغويون أن يورثوهم هذه العلوم اللغوية التي يدرسون اليوم نحوها وتصريفها وبيانها في مجالس علمهم، ويدلون بمكانهم منها على الناس جميعاً، كما يعلمون أن الأدب هو خير ما يستعين به متعلم على علم، وأن الذوق الأدبي الذي يستفيده المتأدب من دراسة الأدب ومزاولته، هو الميزان الذي يزن به ما يحاول فهمه من عبارات العلوم وأساليبها"[٢].

فضل الأدباء على اللغة:

"فضل الأدباء على اللغة في سيرورتها وذيوعها وتداولها وخلودها أفضل من فضل اللغويين عليها في ذلك، لأنهم هم الذين يمهدون سبلها ويعبدون طرقها ويستدنون نافرها، ويجمعون شاردها، وينظمون لآلئها نظم الثاقب لآلئه في السلك، فيأخذها الناس عنهم من أخصر الطرق وأقربها، وأشهاها إلى النفس وأعلقها بالقلب"[٣].

---

[١] ذكريات ٣/٢٤٣.

[٢] الأعمال الكاملة لمصطفى المنفلوطي، ص: ٧، الدار النموذجية، صيدا، بيروت.

[٣] أيضاً، ص: ١٧.

الشعر والشعراء

أشعر الشعراء:

في العصر الجاهلي: (١)زهير (٢)امرؤ القيس (٣)النابغة الذبياني.

في العصر الأموي: (١)أخطل (٢)جرير (٣)الفرزدق.

في العصر العباسي: (١)المتنبي (٢)أبو تمام (٣)البحتري.

ماهية الشعر:

سئل الشاعر محمد تهامي عن ماهية الشعر، فقال: "الشعر عندي بمثابة آهات وخلجات نفس يضيق بها صدري، فتخرج على لساني كلمات"[(١)].

تأثر النبي صلى الله عليه وسلم بالشعر:

".....سمع النبي صلى الله عليه وسلم قول قتيلة بنت الحارث تعاتبه في قتله أخاها النضر بن الحارث على ما بينه وبينه من صلة القرابة:

أمحمد يا خير ضنء كريمة
في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت، وربما
من الفتى، وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب من أصبت وسيلة
وأحقهم، إن كان عتق، يعتق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه
لله أرحام هناك تشقق

---

(١) مجلة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، العدد: ١٦٦٨، ٢٤ جمادى الآخرة ١٤٢٦هـ.

فبكى، وقال — وهو من لا ظنة في عدله، ولا ريبة في حكمه —: "لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته".

تعريف الشعر عند المنفلوطي:

"لقد كتب الكاتبون في تعريف الشعر وأمعنوا إمعاناً بعد به عن مكانه وضل به عن قصده، وعندي أن أفضل تعريف له أنه (تصوير ناطق) لأن قاعدة الشعر المطردة هي التأثير، وميزان جودته ما يترك في النفس من أثر، وسر ذلك أن الشاعر يتمكن ببراعة أسلوبه وقوة خياله، ودقة مسلكه وسعة حيلته، من رفع ذلك الستار المسبل بينه وبين السامع، فيريه نفسه على حقيقتها، حتى يكاد يلمسها ببنانه، فيصبح شريكه في حسه ووجدانه، يبكي لبكائه، ويضحك لضحكه، ويغضب لغضبه، ويطرب لطربه، ويطير معه في ذلك الفضاء الواسع من الخيال، فيرى الطبيعة بأرضها وسمائها وشموسها وأقمارها، ورياضها وأزهارها، وسهولها وجبالها، وصادحها وباغمها، وناطقها وصامتها، من حيث لا ينقل إلى ذلك قدما، أو يلاقي في سبيله نصباً"[1].

الفرق بين شعر الغرب والعرب:

"إن علينا أن نقول الحق، ولو على أنفسنا، والحق أن معاني الشعر الغربي (الفرنسي أو الإنكليزي) أوسع مدى وأكثر عمقاً، وأن ميزة شعرنا في النظم في الموسيقى الشعرية تلك هي الميزة التي يحاول هؤلاء أن يحرمونا منها.

من يقارن أوزاننا وعروضنا بأوزان الشعر الفرنسي يدرك الفرق ما عندنا مثل الفلم الملون وما عندهم "أبيض وأسود" نحن نميز بين السبب والوتد،

---

[1] الأعمال الكاملة لمصطفى المنفلوطي، ص: ١٩٢، الدار النموجية للطباعة والنشر، بيروت.

السبب مثل السوداء في "النوتة" صوت بمقدار ضربة واحدة، أو بمقدار حركة واحدة (اصطلاح أهل التجويد) والبيضاء حركتان أي أنها مثل المد الطبيعي، والفرق بين عروضنا وعروضهم كالفرق بين موسيقانا وموسيقاهم، ما عندهم بين "دو" و"ره" إلا درجة واحدة، أي نصف صوت، إشارة الدييز ترفع "دو" نصف درجة أو إشارة البيمول تهبط بـ"ره" نصف درجة، أما موسيقانا ففيها ربع الصوت، فإذا أضعنا هذه الميزة، ميزة البحر والقافية أقررنا لهم بالسبق"[١].

تعريف الشعر:

يقول وِرْد سوِرْث: "هو الحق ينقله الشعور حياً إلى القلوب...، ويقول رسكن: "الشعر إبراز العواطف النبيلة عن طريق الخيال"[٢].

قول عمرو بن العلاء في الشعر العربي:

"ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافر لجاءكم علم وشعر كثير"[٣].

الشعر ديوان العرب:

أول من قاله عبد الله بن عباس، قال الأنباري نقلاً من الإتقان للسيوطي: ".....فإنه قال يوماً: الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن رجعنا إلى ديواننا، فالتمسنا معرفته[٤].

---

[١] ذكريات علي الطنطاوي ٣١٦/٣.

[٢] فيض الخاطر لأحمد أمين ٢٩٣/١، عنوان المقال في الأدب.

[٣] عربي كي تاريخ (لعبد الحليم الندوي) ١٦٥/١، قومي كونسل برائ فروغ اردو زبان، نئي دهلي.

[٤] أيضاً (في الهامش).

أشعر الشعراء خمسة:

(١)زهير إذا رغب، (٢)والنابغة إذا رهب، (٣)والأعشى إذا طرب، (٤)وعنترة إذا غضب، (٥)وامرؤ القيس إذا ركب[١].

شعراء جاهليون:

امرؤ القيس، النابغة الذبياني، طَرَفة بن العبد، أوس بن حَجَر، زهير بن أبي سلمى، الأعشى، عنترة، السَمَوْأل بن عاديا.

ومن المخضرمين:

وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام كحسان بن ثابت، ولبيد بن أبي ربيعة، وكعب بن زهير.

ومن المولدين:

وهم الذين ولدوا من العرب في الإسلام كالفرزدق، وجرير والأخطل، والكُميت بن زيد الأسدي.

ومن المحدثين:

وهم الذين أتوا بعد المولدين كإبراهيم بن هِرمة، وابن أُذينة، وأبي نُواس، وأبي العتاهية، وأبي تمام الطائي، وأبي عُبادة البحتري، وأبي الطيّب المتنبي وغيرهم[٢].

أهمية الشعر عند السلف:

"كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد

---

[١] أيضاً ص: ١٦٩.

[٢] صبح الأعشى ١/٣٢٨ -٣٤٠.

فيه بيت شعر"، وذكر صاحب: "الريحان والريعان" عن سعيد بن المسيب أنه قال: كان أبو بكر وعمر وعلي يجيدون الشعر، وعلي أشعر الثلاثة، قال: وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أفضل صناعات الرجل: الأبيات من الشعر، يقدمها بين يدي حاجته يستعطف بها الكريم، ويستنزل بها اللئيم.

وقد ذكر عن الشافعي أو عن غيره من بعض الأئمة الأربعة أنه كان يحفظ ديوان هذيل، وأما قول الشافعي:

ولـــو لا الشـــعر بالعلمـــاء يـــزري
لكنـــت اليـــوم أشـــعر مـــن لبيـــد

فإنه يريد من صرف همته إلى الشعر، بحيث صار شأنه وديدنه، وهو المعني بقوله صلى الله عليه وسلم: "لأن يملأ أحدكم جوفه قيحاً خير من أن يملأه شعراً"، أي من أراد صرف همته إليه حتى يملأ جوفه منه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (إن من الشعر لحكمة) وكان عمر بن الخطاب ليسمع البيت يعجبه فيكرره مرات كما ذكره الجاحظ وغيره"[١].

إشادة عمر رضي الله عنه بالشعر:

مرة خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المسلمين في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقام فيهم مستفهماً، فقال: أيكم يعرف هذا الحرف، ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ...﴾ ما التخوف هاهنا، فأرمّ[٢] القوم، فقام شيخ من أُخريات المسجد، فقال: أنا أعرف ذلك، التخوف

---

[١] صبح الأعشى ٣١٩/١ -٣٢٠.

[٢] أي سكت.

هاهنا: التنقص، فقال له عمر: أو يعرف العرب ذلك، فقال له: نعم، يقول شاعرنا:

تخـــوّف الرحـــل منهـــا تامكـــا قـــردا
كمـــا تخـــوّف عُـــود النبعـــة الســـفن

(تخوف): تنقص (التامك): السنام، (القرد) كثير الشعر، و(النبعة) شجرة تتخذ منها السهام و(السَفَن) المبراة، فقال أمير المؤمنين، "عليكم بأشعار العرب، فإن فيها معرفة كلام ربكم".

ومعنى الشعر: يصفه بأنه من كثرة أسفاره على ناقته... تنقص رحلها من سنامها، كما تنتقص السهم المبراة[1].

بداية الشعر ونهايته:

قال الصاحب بن عباد بدئ الشعر بملك وختم بملك، يعني امرأ القيس وأبا فراس.

---

[1] العود الهندي عن أماليّ في ديوان الكندي لعبد الرحمن بن عبد الله السقاف، ص: ١٤، دار المنهاج، لبنان، بيروت.

بين كلمة علي رضي الله عنه وغيره في استعذاب الموت

أمير المؤمنين سيدنا أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه من أجلة الصحابة وأفذاذ الإسلام في نواح شتى.

فكانت شخصيته شخصية جامعة للكمالات والفضائل وجلائل الأعمال، شخصية يندر نظيرها، ويقل مثيلها ويعز شبيهها.

ونحن هنا – في هذه المقالة – لا نريد ذكر علي بن أبي طالب ذكراً مفصلاً يشمل جوانب مختلفة من حياته العظيمة، وحتى ناحية واحدة من نواحيها الخصبة، فلا أتحدث في هذه العجالة عن شجاعته النادرة المضروب بها المثل، أو خطابته الساحرة الفاتنة الفائقة أو زهده وتقشفه ورغبته عن الدنيا، ولا أقواله العذاب الرطاب، أو كلامه البليغ الجزل الفخم، المعتلي أوج البيان، وقمة الفصاحة وسماء الأدب؛ الذي قال عنه قائل: أقرأ كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأكرره كأنني أشرب زلالاً بارداً حلوا على ظمأ في قيظ، حتى عقد له ابن كثير في "تاريخه" فصلاً عنوانه: (باب في كلماته الحاصلة التي هي إلى القلوب واصلة).

ولما افتتح البخاري كتاب الرقاق من صحيحه" ذكر قول علي: (إن الدنيا ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة ارتحلت مقبلة، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا

حساب ولا عمل)، فانظر إلى هذا الإيجاز مع قوة المعنى وحسن الفواصل وبراعة الإيراد أو جمال العرض)[١].

وإنما نكتفي هنا ببيان فضل كلمة من كلماته الثمينة، وهي: "**والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه**".

فهذه الكلمة العلوية أبلغ مما شبه الشعراء الآخرون الموت بالعسل، كما قال المتنبي:

فثب واثقاً بالله وثبة ماجد
يرى الموت في الهيجاء جني النحل في الفم

يقول المتنبي لصاحبه أو لنفسه على سبيل التجريد: قم مبادراً للحرب مبادرة كريم شريف، يجد في طعم الموت حلاوة العسل، وكثيراً ما يدعي المتنبي ذلك لنفسه ولعسكره الخيالي، كما في قوله (في العكبري ١/٣٧٤):

إذا شئت حفّت بي على كل سابحٍ
رجالٌ كأن الموت في فمها شهدُ

وهذه الدعوى الضخمة لا نعرف صدقها إلا لعلي بن أبي طالب — كرم الله وجهه — إذ قام بوروده من الصلاة ليلة الهرير[٢]، والسهام كالمطر حفافية (محيطة من كل جانب)، حتى عذله في ذلك أحد الحسنين، فقال له: لا يبالي أبوك وقع على الموت، أو وقع الموت عليه، فهو الذي له في

---

[١] الأسطورة للدكتور عائض القرني، ص: ٦٥٧.

[٢] ليلة الهرير: اسم واقعة حدثت بين سيدنا علي ومعاوية بظاهر (الكوفة) وسميت بالهرير، لأنهم لما عجزوا عن القتال صار بعضهم يهر على بعض.

قتله أرب، وهو الذي يرى قتاله أفضل القرب، وهو الأولى بقول الحماسي [حارثة بن بدر الغداني في "شرح الحماسة" ١/٤٢٢]:

وإنــا لتســتحلي المنايــا نفوسُــنا
ونــترك أخــرى مــرَّةً مــا نــذوقها

وقول الآخر:

رخــيصٌ عنــده مُهَــجُ العــوالي
كــأنّ المــوت في فكّيــه شــهدُ

وقول المُزينيِّ:

دعــوتُ بــني قُحافــة فاســتجابوا
فقلــتُ: رِدُوا فقــد طــابَ الــوُرُودُ

وقول أبي تمّام [في "ديوانه" ٢/٩]:

يســتعذبون منايــاهم كــأنهُمُ
لا يخرجــون مــن الــدنيا إذا قُتِلــوا

بل هو – عليّ بن أبي طالب – أكبر وأجل من ذلك، ولقد استسقى ليلتئذ، فأتاه بعض الهاشميين بماء فيه عسل، فقال له: عسلك هذا طائفي، فقال يا عمّ، في مثل هذا الموقف الذي شخصت فيه الأبصار، وذهِلَتِ العقول، وطاشت الأحلام، وبلغت القلوب الحناجر، تفرّق بين العسل الطائفي ممزوجاً وبين غيره؟! فقال له: يا ابن أخي! لم يملأ صدر عمك هولٌ قط، فما كان أحقه بقول الأعرابي:

لا يمــلأ الهــولُ صــدري قبــل موقعــه
ولا أضــيق بــه ذرعــاً إذا وقعــا

وقول مهيارٍ:

جَبَــل العُـــلا ســـعيُ الهُمـــوم فـــؤادُه
وتنـــــاط منـــــه بقـــــارحٍ متعـــــوّدِ

ونظيرها ما حُكي: أن أبا العلاء لما ورد العراق، تشوق إلى وطنه، فقال من أثناء قصيدة [كما في "ديوانه" ٢٨٥]:

فيــا بــرق لــيس الكــرخ داري وإنمــا
رمــاني إليــه الــدهر منــذ ليــالي
فهــل فيــك مــن مــاء المعــرّة قطــرةٌ
تبــلّ بهــا ظمــآن لــيس بســالي

فيقال: إن الأمير استدعى ماء على خيل البريد من معرَّة النعمان، وقدمه له ممزوجاً بماء الفرات، فقال: هذا ماؤها، فأين هواؤها؟ ولكن هيهات هيهات! فهذا يقولها في رخاء البال، وسعة الحال، والإمام يقولها وقد تقلصت الخصي[1]، وتقاصرت الخطا، وشتان ما بين المقامين، وبصدقٍ يقول: والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه.

وهذا أبلغ مما يشبه المتنبي وغيره الموت بالعسل وأصدق من وجوه:

أحدها: مطابقته للواقع وتظاهُر البيّنات به.

ثانيها: أن اللبن أفضل من العسل، كما صرّح به فقهاؤنا، ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يحمد الله كلما تناول شيئاً ويسأله خيراً منه إلا اللبن، فإنه يحمد الله عليه ويستزيده منه[2].

---

[1] أي تشمرت إلى أعلى من شدة الهول والفزع.

[2] كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه عند أبي داود (٣٧٣٠)، والترمذي (٣٤٥٥)

ثالثها: أن التذاذ الطفل باللبن أكثر من غيره، بل لا لذة له سواه، ولا صلاح له بغيره.

رابعها: أن ثدي الأم آنس لطفلها من سائر الثدي والألبان.

خامسها: الإشارة إلى ما جاء في "الصحيح": من أحب لقاء الله.. أحب الله لقاءه"[١]، ولذا قال آخرَه سيد المرسلين: "الرفيق الأعلى"[٢]، ففي الكلام من البدائع ما لا تتسع لها المدارك، ولا تستقر لها العقول، ولا غرابة في صدورها عن باب مدينة علم[٣] من لا ينطق عن الهوى.

هذا: والله الكلام الذي تزل العصمُ عن صفاته، وتختلج الفصحاء عن مرقاته، فلو أن قلباً تقطع أو حجراً تصدع لعذوبة هذا الكلام وحلاوته وجزالته وطلاوته... لكان محقوقاً بذلك، فيا سبحان المانح[٤]!

وحسنه، وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أكل أحدكم طعاماً، فليقل: اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيراً منه، ومن سقاه الله تعالى لبناً، فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه، فإنه ليس شيء يجزي من الطعام والشراب غير اللبن".

[١] البخاري: (٦٥٠٧)، مسلم: (٢٦٨٣)، النسائي: (٤/١٠)، ابن ماجه: (٤٢٦٤).

[٢] البخاري: (٦٥٠٩)، مسلم: (٢٤٤٤).

[٣] كما جاء في حديث علي رضي الله عنه عند الترمذي (٣٧٢٥) قال: أنا دار الحكمة وعلي بابها.

[٤] العود الهندي عن أمالي في ديوان الكندي للسيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، دار المنهاج، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ.

بخاريّ العصر

العلامة الشيخ محمد يونس الجونفوري رحمه الله تعالى

افتقدته الأرض ورحبت به السماء:

"إنها جنازة عاشق....، فلتخرج بأبهة وفخفخة وحشود هائلة وجموع غفيرة من المشيعين...!!.

هذه ترجمة – شبه حرفية – لبيت أردي معروف، تبادر إلى ذهني وأنا أتابع – عبر وسائل الإعلام المختلفة – المناظر المهيبة من تشييع جثمان الشيخ الراحل – رحمه الله تعالى – إلى مثواه الأخير.

نعم! إنها كانت جنازة عاشق....، أي عاشق..؟ عاشق العلم.. عاشق الحديث.. عاشق الرسول صلى الله عليه وسلم، الغارق في العشق الإلهي – ومعذرة إلى الذين قد لا يهضمون هذا التعبير – العلامة المحدث الحجة الناقد الحافظ، العالم النحرير، والمحقق البصير مسند العصر – أخص تلاميذ الإمام ريحانة الهند العلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي رحمه الله تعالى – الشيخ محمد يونس الجونفوري الذي لبى نداء ربه يوم الثلاثاء: ١٦/ شوال ١٤٣٨هـ الموافق ١١/ يوليو ٢٠١٧م.

فما رأيت مثل هذه الجنازة قط في حياتي التي تمر الآن بالعقد السادس من عمرها، فامتلأت الطرق والشوارع والأزقة والأرصفة والسكك والممرات، وقدرت أعداد الذين شاركوا في الصلاة عليه بنحو مليون رجل.

فكان هناك بحر زخار من البشر إلى حيث يمتد البصر...".

ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى
رضوى على أيدي الرجال تسير

لقد ذكرت جنازة الشيخ الجونفوري بجنازة الإمام أحمد بن حنبل المعروفة – في التاريخ – بكثرة المشيعين لها، وقوله المعروف – أيضاً –: "بيننا وبينهم الجنائز".

إنه عاش عظيماً مغبوطاً، ومات كذلك عظيماً مغبوطاً...

(علو في الحياة وفي الممات)

ولما كان الشيخ يوارى في التراب تذكرت قول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما لدى دفن زيد بن ثابت: "من سره أن يرى كيف يقبض العلم، فهكذا يقبض"؟.

وهكذا عباد الله الصالحون والعلماء الربانيون والدعاة العاملون تفتقدهم الأرض وترحب بهم السماء، يحزن بفقدهم من هم على الأرض، ويفرح بقدومهم من في السماء، والله عز وجل لا ينتزع العلم والخير والصلاح انتزاعاً، ولكن يقبض ذلك بقبض أهل العلم والخير والصلاح، فلا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا. (رواه البخاري ومسلم).

وتتصل بذلك نبوءة أخرى تنبأ بها الرسول صلى الله عليه وسلم:

"يذهب الصالحون الأول فالأول.. ويبقى حفالة كحفالة الشعير أو التمر، لا يباليهم الله بالة..." (البخاري).

ثم إن هذه الجموع الغفيرة التي هرعت لتشييع الشيخ الراحل والصلاة عليه تدل على محبة الناس العظيمة له، ومحبة الناس هذه من بشائر حب الله تعالى له، فإن الله إذا أحب عبداً وضع له القبول، وأوصى ملائكته بأنني (أحب فلاناً فاجعلوا الناس تحبه) ففي الحديث الشريف: "إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: يا جبريل! إني أحب فلاناً، فأحببه، فينادي جبريل في السماء: يا أهل السماء! إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض".

يونس والحديث:

أي حب، وأي أنس يفيض اسم "يونس" على قلوب تلامذته ومحبيه والمعجبين به..

هذا الاسم الأنيس المأنوس، الأليف المألوف، الحبيب الأثير العزيز...

"يونس" و"الحديث" صارا كيانين مترافقين متلازمين متلاصقين... فإذا ذكر يونس ذكر الحديث، والعكس صحيح.... وهذا لأن الرجل إذا عرف بشيء نسب إليه! وصاحبنا لم يصل إلى هذه المرتبة إلا لأنه جعل "الحديث الشريف" شعاره ودثاره، ومصبحه وممساه، وشغله الشاغل وغاية مناه، فكان يعيش به وله وفيه.

حقاً.. لقد كان يونس الجونفوري واحداً من ذلك الموكب الكريم، الذي يقوده ذلك الرهط المبارك: البخاري، ومسلم، وأبو داود، ومالك، والنسائي، وابن ماجه، والترمذي، والطحاوي، والدهلوي

والكشميري، والكاندهلوي وغيرهم من الذين يتصدرون محراب تاريخ "الحديث والسنة" ممن يعرفون باسم: "المحدثين الكرام".

هذا الموكب الكريم الممتد في شعاب الزمن من القرن الأول إلى عصرنا هذا..، سيستمر سيره المبارك إلى قيام الساعة..، ولم ولن تتوقف مسيرته إلى قيام الساعة، لأن أصحابه الأجلة — من صيارفة الحديث المهرة ومن أهل الرواية الصادقين والدراية العارفين وجهابذة النقل الواعين — قد اضطلعوا بأعباء مهمة عظيمة.. مهمة حفظ الحديث وصيانته، الذي يعد شارح كلام الله ونموذجه العملي، والمصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم.

اعتراف المعاصرين بعظمة الجونفوري:

إنما يعرف فضل العلم من
سهرت عيناه في تحصيله

يقال: "إن المعاصرة سبب المنافرة"، وأيضاً: "إن المعاصرة أعدى أعداء الاعتراف بالنبوغ"، ولكن هاتان المقولتان ثبت غير صحتهما — على الأقل — في شأن الجونفوري، فقد اعترف بتميزه ومكانته الجليلة الفذة في فنه كبار معاصريه، فقد سئل محدث ديوبند الشهير العلامة سعيد أحمد البالنبوري — شيخ الحديث بدار العلوم ديوبند — عمن يستحق لقب: "أمير المؤمنين في الحديث" في العصر الحديث، فقال: الشيخ محمد يونس الجونفوري، وهي شهادة لها أهميتها.. (إنما يعرف ذا الفضل من الناس ذووه).

النبوغ المبكر:

وإذا رأيت من الهلال نموه
أيقنت أن سيصير بدراً كاملاً

لقد كانت ظهرت مخايل النجابة وبشائر التفوق والامتياز في الشيخ الجونفوري في أول عهده بالدراسة، فقد كان توسم المتوسمون من أساتذته النبوغ المبكر في هذا "الطالب المبرّز المجد الذكي الجونفوري" لاجتهاده غير العادي – رغم ما يعاني من أمراض وأسقام – في طلب العلم، وصلاحه المتميز، حتى شيخه العلامة زكريا الكاندهلوي كان قد رأى – بعين بصيرته وفراسة إيمانه وسابق تجاربه – لتلميذه هذا مستقبلاً لامعاً، فبشر تلميذه الأخص هذا قائلاً: يا يونس ستبلغ مرتبة أعلى من مرتبتي..! وهذا ليس بغريب..! فكم من تلميذ فاقوا أساتذتهم، فهذا البخاري، ومالك وأبو حنيفة وغيرهم ممن وصلوا إلى مكانة أرفع من مكانة أساتذتهم... وهذا لا يحط من قدر الأساتذة بل ربما يرفع مكانتهم ويعلي شأنهم، لأنهم ربوا تلامذتهم تربية أوصلتهم إلى هذه المكانة الممتازة... وفي ذلك شرف لهم، وفوق ذلك إن الأمر كله بيده سبحانه، فهو يرفع من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، فلكل حظه وقدره، ويؤتى كل أحد حسب جده ومثابرته ونصيبه.

كذلك سمعنا أن بعض أساتذة الجونفوري كان لا يلقي درسه في الفصل إذا لم يحضر الطالب النجيب الجونفوري – يوماً – لمرض أو لسبب آخر، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حظوته عند أساتذته وحبهم إياه لتفوقه ومكانته الخاصة عندهم!

لم ير مثل نفسه:

ولعلنا إذا قلنا إن الشيخ محمد يونس الجونفوري لم ير مثل نفسه في الشغف بالحديث الشريف والإقبال عليه وفي باب الزهد التقوى.. ما

تجاوزنا الصواب، وما اتهمنا أحد بركوب متن الغلو أو المبالغة في وصف الشيخ، أو أننا علونا به فوق قدره.. وجزى الله خيراً أولئك الذين كشفوا لنا الكثير – مما كنا لا نعلمه من أحوال الشيخ في حياته – عن عجائبه ونوادره في تفرغه للعلم، وورعه، وإنفاقه في سبيل الله، وغرارته في الدنيا ورغبته عنها، ونكتفي – هنا – بذكر قليل من كثير مما سمعنا أو قرأنا عنه بعد وفاته:

- فمن عجائب شيخنا رحمه الله تعالى أنه قرأ مسند الإمام أحمد بن حنبل أربع مرات للبحث عن كلمة واحدة خلال تخريج حديث.
- ومن عجائبه الدالة على عظيم خشيته من الله أنه لم ير قط وجه أجنبية منذ أن بلغ كما ذكر لنا ذلك بعض تلامذته.

مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى
وسُهد المنى والجيب والذيل والردن[1]

وهكذا كان سلفنا رحمهم الله، فمما قرأنا في الكتب أن ابن سيرين كان يقول: ما غشيت امرأة في نوم ولا يقظة غير أم عبد الله، وإني لأرى المرأة لا تحل لي في المنام، فأصرف نظري، قال الشاعر:

كريم حليم الجفن والنفس لا يرى
إذا هو أغضى ما يرى الناس في الحُلم

وفي الحديث: "عفوا تعف نساؤكم" (الطبراني في "الأوسط" (٨/٢) مطولاً)، قال بعضهم:

---

[1] الكرى: النوم، ونقيضه: السهد، وقوله: سهد المنى، أنه إذا سهر في أمر يتمناه، لم يسهر إلا فيما يهمه، الردن: الكم.

عفّـــوا تعـــف نســـاؤكم في المحـــرم
وتجنبـــوا مـــا لا يليـــق بمســـلم
إن الزنـــا دَيـــنٌ إذا أقرضـــته
كـــان الوفـــاء مـــن أهـــل بيتـــك فـــاعلم

- في إحدى زيارته للمدينة المنورة أهدى إليه محبوه من الريالات ما ملأ كيسين كبيرين، فقال لخادمه قسمها على المستحقين من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال خادمه: أبق منها شيئاً لنفسك، فقال: لا.. بل قسمها كلها، فقسمها كلها، فلما وصل – عائداً إلى وطنه – إلى المطار... احتاج إلى بعض الريالات، فقال للخادم أعطني مأة ريال ديناً.. على أن أقضيها لك بعد عودتي إلى وطني...، لما سمعت هذه القصة ممن أثق به من تلامذته قلت: هذا مثال نادر للزهد في الدنيا وعدم الرغبة فيها في هذا العصر الذي كثر فيها التهالك على حطامها والتنافس في الحصول على شهواتها، وسمعت كذلك أن الشيخ كان لا يكاد يميز بين النقود من صغيرها وكبيرها.
- ومما سمعت كذلك من بعض تلامذته أن بعض محبيه أهدى إليه ذات مرة خمسة وعشرين ألف روبية هندية، فأنفقها على ضيوفه، ثم جاء ذلك المحب بعد مدة، وقال له: يا شيخ كان ذلك المبلغ من الزكاة.... فغضب الشيخ وقال هلا أخبرتني بذلك حينما كنت أعطيتني ذلك المبلغ... أنا أنفقته على ضيوفي.... يقول التلميذ: أنفق الشيخ بعد ذلك – عوضاً عن ذلك المبلغ (أو قل: كفارة لذلك المبلغ من الزكاة) – نحو مئاتين وخمسين ألف روبية.. ولكنه لم يزل

غير منشرح الصدر أو غير مقتنع بذلك، وظل يتأسف كثيراً على إنفاقه مبلغ الزكاة على ضيوفه.

- انتقده مرة بعض معاصريه انتقاداً لاذعاً، ونشره في مجلته الفصلية التي كان يصدرها، ومعلوم أن كثيراً من الانتقادات يكون على طريقة: من أراد أن ينتقد الورد فلم يجد فيه عيباً، إلا أن قال له: (يا أحمر الخدين)، أو كما قال عمر بن الخطاب: لو كان المرء أقوم من قدح لوجد له غامز...، كذلك هذا النقد الذي تناول به ذلك المعاصرُ الشيخَ يونس كان جهلاً في جهل في جهل.... وليس معنى هذا أننا نعتبر الشيخ أسمى من كل انتقاص ونقد...، بل نريد أن نقول إن ذلك النقد كان غير صحيح، ومبنياً على الجهل التام، فأراد تلامذة الشيخ أن يطلبوا من الشيخ الناقد التدليل على انتقاده للشخ، ولكن الشيخ منعهم من ذلك منعاً شديداً، وقال لهم كلا.... لا تواجهوه بأي اعتراض أو إنكار... ولا تطالبوه بأي دليل أو توجيه لنقده، ولا تقولن له شيئاً يؤذيه أو يجرح كرامته، وإياكم أن يناله منكم شيء لا ينبغي....، وقال: يمكن أن يكون قد انكشف له – للناقد – من عيوبي شيء..

هذه هي أخلاق العلماء الربانيين.. وقصة الشيخ هذه ذكرتني بقول بعض العلماء: لقد استوى عندي المادح والذام.

- معروف عن الشيخ أنه كان يذكر أسماء جميع الأئمة والعلماء باحترام يليق بمكانتهم، ولم يكن ينتقص من أحد أو يحطه من مكانته، ولكنه ذات مر وصف ابن همام – في بعض المسائل –

بكونه قليل العلم... ثم تنبه إلى قوله فيه، فجاء للغد الفصل وهو يتأسف ويندم كثيراً ويستغفر الله على قوله ذلك.. وكانت العبرات تسيل من عينيه، وقال: والله لو اكتحلت بغبار حذاء ابن همام لكان ذلك لي شرفاً عظيماً... وهو من هو في تبحره العلمي، ولكنه لعله ما وصلت إليه أحاديث هذه المسألة كاملة... فقال ما قال....:

هذا التواضع هو الذي رفع قدر الشيخ وجعله شامة بين أقرانه ومعاصريه.

مزاحه:

إلى تقشفه وصرامته وكامل إقباله على العلم والعبادة كان خفيف الروح وصاحب دعابة ومزاح، وهذا أيضاً عملاً بالسنة الشريفة... فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا الحق، ويسابق عائشة، ويتلطف بنفسه والعلماء في الحقيقة هم: "امتداد لعمل النبوة في الناس دهراً، ينطقون بكلمتها، ويقومون بحجتها، ويأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرآة النور، تحويه في نفسها، وتلقيه على غيرها، فهي أداة لإظهاره وإظهار جماله معاً"(١).

فالمزاح ليس عيباً إذا كان غير مسرف فيه، قال الجاحظ: "من كانت فيه دعابة فقد برئ"، وقال العرب "الإفراط في المزاح مجون، والاقتصاد فيه ظرف، والتقصير فيه ندم"، ويقول أهل الشام: "في المزاح تشتفي الأرواح"، أي تستطيع أن تقول في المزاح ما لا تستطيع أن تقوله وأنت جاد، وقيل: راوحوا القلوب ساعة فساعة، فإنها إذا كلت.. عميت:

---

(١) بين القوسين عبارة الرافعي.

أفــد طبعــك المكــدود بــالهمّ راحــة
بجــزم وعللــه بشــيء مــن المــزح
ولكــن إذا أعطيتــه المــزح فلــيكن
بمقــدار مــا تعطــي الطعــام مــن الملــح

وأيضاً قيل: "حمضوا مجالسكم"، وقال علي بن أبي طالب: "إن القلوب تمل كما تمل الأبدان، فأهدوا إليها طرائف الحكمة...

وكاتب هذه السطور رأى بنفسه الشيخ وهو يداعب ويمازح الشيخ طلحة الكاندهلوي نجل شيخه العلامة زكريا الكاندهلوي.. فكان مزاح الشيخ مزاحاً بريئاً خفيفاً ترويحاً عن العمل المضني الشاق، وتنشيطاً للنفس للمزيد من الجد والاجتهاد والتفرع للعلم والعكوف عليه.

إقبال طلاب العلم على الشيخ:

ولما كان للشيخ الجونفوري القدح المعلى في الحديث خاصة، فقد نبغ فيه، وبذ أقرانه وطار صيته في الآفاق لبراعته وإماته في معرفة السنن ومصطلح الحديث، والجرح والتعديل بدون منازع، وعرف بأنه من أكثر علماء الهند والعالم الإسلامي اختصاصاً وعناية بصحيح البخاري، ومعرفة بمنهجه وتفاصيله ومسائله، فكان إذا تكلم حول الرجال، يبدو كأن الإمام الذهبي أو ابن حجر يتحدث عن رجال الكتب الستة، (كما شهد له بذلك بعض كبار أهل العلم من البلدان العربية) أقول لما كان كذلك ضربت إليه أكباد الإبل[1]، وحج إليه طلاب العلم ورواد الحديث من كل بقعة من بقاع الأرض ليغترفوا من بحر علمه، ويرتووا من منهله

[1] هذا تعبير قديم لمجيء الناس إلى متخصص من بلاد نائية.

العذب فكان كبار أهل الاشتغال بالحديث يعتبرون قراءة كتب الحديث على الشيخ، وأخذ السند عنه شرفاً لهم أي شرف.. وهذا لا عجب فيه، فالمنهل العذب كثير الزحام، والفَراش لا يتساقط إلا على النور، ولا تنجذب المادة المنجذبة إلا إلى المغناطيس.

وكانت مجالسه (أي مجالسه عامة، ومجالس دروس الحديث خاصة) مجالس علم وأدب، ووقار وسكينة، وكأن على رؤوس الحاضرين فيها الطير..، وحدث فعلا أن جلس مرة طائر على كتف الشيخ، كما رأينا ذلك بأم أعيننا في بعض صوره التي نشرت بعد وفاته عبر الواتساب (وعصفور باليد أفضل من عشر على الشجر).

شدة خوفه من الله:

كان – رحمه الله تعالى – رقيق القلب، سريع الدمع، كثير البكاء عظيم الخشية من الله تعالى، وكان كثيراً ما يقول: هل أستطيع الإجابة عن أسئلة القبر يا ترى....؟!

وهكذا كان سلفنا رحمهم الله، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول:

"لو أن لي طلاع (مقدار) الأرض لافتديت بها من حول ما أمامي، قبل أن أعلم ما الخبر"، وابن مسعود يقول: ليتني إذا مت لا أبعث، وعائشة تقول: ليتني كنت نسياً منسياً.

شرف مصاحبتي للشيخ:

نعم! من عظيم شرفي وحسن حظي أنني تشرفت بمصاحبة الشيخ، أيامًا – أو قل: ساعات – من حياتي، وقصة ذلك أنني كنت مقيماً في

المدينة المنورة للدراسة في جامعتها الإسلامية في أوائل هذا القرن (من ١٤٠٢هـ إلى ١٤٠٥هـ) ولعل في ١٤٠٣هـ كنت جالساً في المسجد النبوي الشريف بعد صلاة العصر، وذلك بعد الحج، إذ وقع نظري على الشيخ وهو يدخل المسجد النبوي الشريف، فهرولت إليه وصافحته وعرفته بشخصي، فهش لي وبش، ولم يكن الشيخ آنذاك بلغ من الشهرة والصيت ما بلغ منه فيما بعد، حيث كان الشيخ – كما أظن – في أواخر العقد الخامس من عمره، ولعله لم يكن يرافقه أحد في رحلته تلك، فكنت ألقاه بعد ذلك كل يوم بعد صلاة العصر، وأصاحبه إلى بعد صلاة العشاء، وكنا نصلي المغرب والعشاء معاً في المسجد النبوي الشريف، وأحياناً كنت أخرج معه إلى بعض المكتبات التي كانت حول المسجد الشريف، فكان يبحث فيها عن بعض الكتب، ولعله كان يشتري بعض الكتب.

ذهب مرة معي إلى الجامعة الإسلامية، ولقي هناك بعض مسؤوليها وأساتذتها، أذكر أنه أدهش هناك أهل العلم الذين تحدثوا معه، حيث كان الشيخ – كما هو معلوم – صاحب ذاكرة نادرة وحافظة لاقطة..، فجرى ذكر بعض علماء السلف في المجلس، فذكر الشيخ عنهم في تفصيل وإسهاب، ذكر كثيراً من أسماء كتبهم وشروحها وأحوال مؤلفيها مما حير حضور المجلس وجعل وجوههم تنطق بإعجابهم الشديد بذاكرة هذا الشيخ الهندي وسعة علمه وغزارة اطلاعه على كتب الأقدمين.

صحبت معه – على ما أذكر – نحو أسبوع، وحصل بيني وبينه أنس وحب، وتآلف وتقارب، وأعتبر الأيام أو الساعات التي قضيتها معه من أسعد لحظات حياتي، وإن أنس فلن أنسى كيفية وداعه، فحينما جاء اليوم

الأخير من إقامته في المدينة المنورة، وحضر الشيخ المسجد النبوي الشريف ليصلي ركعتين ويتشرف بسلام الوداع على صاحب القبر الأعظم صلى الله عليه وسلم، فكانت دموعه تفيض بغزارة، وكانت تعتريه كيفية عجيبة، تنطق بحزنه العميق على فراق الحبيب صلى الله عليه وسلم، ورجع بعد أن صلى وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الوراء جاعلاً وجهه إلى المواجهة الشريفة (غير مول ظهره إليها) ولعله رأى جعل ظهره إلى المواجهة خلافاً للأدب، وهكذا رجع رويداً رويداً، ويغلبه البكاء، وتعتريه الرقة وتأخذه حالة عجيبة لا أكاد أصفها، رحمه الله وحشره مع حبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم.

صلته بندوة العلماء:

أما صلة الشيخ الجونفوري بندوة العلماء وأبنائها فكانت صلة حب وتقدير واحترام، فإذا علم بوجود ندويين في مجلسه أدناهم منه واحتفى بهم وأوصى أصحابه بهم خيراً، وأما حبه واحترامه لرجل الندوة العظيم الإمام الندوي فحدث عن البحر ولا حرج، فقد كان يحبه حباً عظيماً، ويعرف قدره، ويعترف بمكانته الجليلة، ولعله ورث هذا الحب من شيخه العلامة محمد زكريا الكاندهلوي الذي كان يحب الإمام الندوي حباً واحتراماً يدلان على عظمة الأول – الكاندهلوي – نفسه، فمعروف أن الكاندهلوي كان يعرف للندوي فضله، ويوليه من الحب والاحترام والتقدير ما لا يوليه إلا قليلاً لغيره، وكان يستكتبه مقدمات لمؤلفاته العربية الهامة مثل أوجز المسالك شرح موطا الإمام مالك وغيره من كتب الحديث.

وكان يزور الجونفوري – في بعض المناسبات – ندوة العلماء،

ويفرح بلقاء طلابها وأساتذتها، ويوجه إليهم كلمة من على منبر جامعها، وطلاب ندوة العلماء وأساتذتها والمسؤولون عنها هم الآخرون كانوا يبادلونه حباً بحب، ويحترمونه احتراماً يليق بمكانته ويعتزون بمقدمه، ولا يقصرون في خدمته.

ومن تواضعه وحرصه على رفع إسناده أنه جاء مرة قرية "تكية كلان" التي كانت وطن الشيخ الندوي، لزيارته فاستجازه – في الحديث – فأجازه الشيخ الندوي، رحم الله تعالى الشيخين، فكان كلاهما عظيمين وصالحين نفعا الأمة نفعاً كبيراً، ندعو الله سبحانه أن يجزيهما عن الأمة خيراً.

تشبعه بحب النبي صلى الله عليه وسلم:

لا أكاد أجد تعبيراً مناسباً لحبه النبي صلى الله عليه وسلم وحرصه على اتباع سنته في كل صغيرة وكبيرة، سمعنا أنه رأى مراراً النبي صلى الله عليه وسلم في منامه، وإذا كان ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أمامه فاضت عيناه، وكان على وسادته رسم نعلي النبي الكريم، فكان يضع رأسه عليه، كما سمعنا أنه كان لا ينام على السرير، بل كان ينام – غالباً – على بساط تافه يفرش على الأرض.

إنه علم وأصلح وأرشد وهذب وعبد ربه حتى أتاه اليقين.

نعم مات الشيخ... وكل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

ولكنه لن يزال مع الأحياء الخالدين، لأن صنائعه خلدته: وفضائله ستظل تحيي ذكراه عبر الرهور:

قــد مــات قــوم ومــا ماتــت فضــائلهم
وعــاش قــوم وهــم في النــاس أمــوات

وقال شاعر آخر:

مــاتوا وغيــب في الــتراب شخصــهم
والنشــر مســك والعظــام رمــيم

ولا نستطيع أن نعبر عن وجدنا لهذا الرزء العظيم أكثر من هذا، فقد خرس القلم وعيّ اللسان للمصاب الجلل، (ودمع لا يكفكف يا شيخ)، أحسن الله عزاء الأمة، وأجمل صبرها، وأجزل أجرها، وعوض الأمة عن الراحل المودّع خيراً، وما ذلك على الله بعزيز، وهو على كل شيء قدير، وبعباده رؤوف رحيم.

ووفقنا للاستفادة ممن بقي من العلماء والصالحين، وأن نقدرهم حق قدرهم، فلكم في الخلف من نسخة للسلف، وفي الأبناء من صورة للآباء، وفي الزوايا من خبايا، وفي الخزائن من ضنائن، وفي أصداف الحفر من درر، وفي الذخائر من جواهر ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾.

وصلى الله وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

نبذة من حياة المحدث الجونفوري

ولادته ونشأته:

ولد الشيخ الجونفوري في ٢٥/ رجب ١٣٥٥هـ الموافق ٢/ أكتوبر ١٩٣٧م، بقرية تسمى: "كهيتا سرائ"، بمديرية جونفور من ولاية: "أترابراديش"، الهند.

توفي والده وعمره خمس سنوات وعشرة أشهر.

دراسته الابتدائية:

تلقى تعليمه الابتدائي بكتاب القرية، وبدأ قراءة الكتب العربية — وعمره ١٣ سنة — في مدرسة: "ضياء العلوم"، بـ"ماتي كلان"، في جونفور، ودرس فيها إلى السنة التي تعادل — في التعبير الحديث — السنة الأولى من المرحلة العالية.

التعليم العالي:

ثم التحق — في شوال ١٣٧٧هـ — بجامعة مظاهر العلوم في سهارنفور، وتخرج فيها عام ١٣٨٠هـ.

حياته العلمية:

بدأ حياته العلمية معيداً — مدرساً معيناً — بمظاهر العلوم عام ١٣٨١م.

ثم تم تعيينه شيخاً للحديث الشريف – رئيس قسم الحديث الشريف – بالجامعة نفسها عام ١٣٨٨هـ، وهذا المنصب يعد أرفع المناصب وأعلاها منزلة في مدارس شبه القارة الهندية، ولا يولاه إلا من كان متبحراً متضلعاً من الحديث وعلومه، مشهوداً له بالكفاءة الممتازة من قبل كبار رجالات الفن.

وفاته:

في ١٦/ شوال ١٤٣٨هـ الموافق ١١/ يوليو ٢٠١٧م شكى الشيخ بعد صلاة الفجر من همود وفتور في الصحة، فأدخل – على الفور – بمستشفى: "ميدي كرام"، وتوفي بها الساعة التاسعة والنصف صباحاً، وصلى عليه بعد العصر، الشيخ محمد طلحة ابن شيخه العلامة زكريا الكاندهلوي، بنحو مليون رجل.

من أبرز تلامذته:

الشيخ حبيب الله قربان في الهند، والشيخ عاشور في الحجاز، والشيخ عبد الله التوم وغيرهم كثير.

أهم مؤلفاته:

للفقيد عدة شروح وحواش على صحيح البخاري، ورسائل وفتاوى حديثية طبعت في أربع مجلدات، واليواقيت الغالية في تحقيق وتخريج الأحاديث العالية من إفادات الشيخ الجونفوري، جمعها ورتبها بعض طلابه.

أبرز أساتذته:

لازم الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وسمع منه صحيح البخاري

وغيره من الكتب والسنن، وأخذ العلم عن شيوخ آخرين من كبار علماء الهند، وأجازه الشيخ عبد الفتاح أبو غده والشيخ الندوي.

درّس نحو سبع وخمسين سنة، ودرس البخاري نحو خمسين سنة، بقي طول حياته أعزب، وكان يقول: لقد تزوجت الكتب.

فقيد العلم والبيان
أستاذ العصر ، وفخر الهند ، المحدث المتكلم
العلامة الشيخ محمد سالم القاسمي

(أضواء على أبرز خصائصه وشمائله)

١٣٤٤هـ، ١٩٢٦م - ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م

وصف الكاتب المصري الشهير الأستاذ أحمد أمين أستاذاً له ، فقال :

"لئن كان أكثر الناس نسخاً متشابهة من كتاب تافه مطبوع ، فقد كان ..... نسخة خطية من كتاب قيم نادر"[١].

وإن قلت : إن من أجدر الناس عندي — ممن عرفتهم عن كثب ، من أفذاذ العلماء وكبار القادة والزعماء — وأحراهم بهذا الوصف الرائع الجميل العجيب : فقيدنا الغالي الشيخ محمد سالم القاسمي رحمه الله ، لم أكن مبالغاً ... ولا اتهمني أحد بالغلو في تقدير الرجل.

فما ألقيت الكلام على عواهنه ، ولا أقول هذا تزيدا ، أو تكلفاً أو مجاملة.

وإنما قلت ما قلت مستنداً إلى ركن من التجربة الشخصية وثيق ، معتضداً بأساس متين من المخالطة والمصاحبة والمرافقة ، والمعرفة

(١) فيض الخاطر ٢٣٧/١.

الذاتية....، إضافة إلى المآثر الجليلة التي قام بها الفقيد العظيم، والشمائل والفضائل التي كان يتحلى بها، رحمه الله.

وأعظم ما يكشف عن أخلاق الرجال، ويبوح بمعادنهم الحقيقية: السفر، فالسفر – كما يقال – يسفر عن حقيقة الرجل، عن طبيعته المتجذرة فيه، ومزاجه الأصيل، ومن سعادة حظ الكاتب أن الله سبحانه قدر له مرافقة الراحل الكريم في سفر الحج المبارك، الذي سأقص قصته عليكم، بعد قليل إن شاء الله.

كنت أوردت وصفاً لأحمد أمين لأحد أساتذته، وقلت إن هذا الوصف... من أحق الناس به – عندي –: فقيدنا الغالي الشيخ محمد سالم القاسمي رحمه الله.

فقد كانت شخصيته نادرة.... قلما رأى الناس لها نظيراً في العصر الأخير.

ولا عجب في ذلك ولا غرابة ... فالشيء من معدنه لا يستغرب، والولد سر أبيه، فقد استمد أو اقتبس أو ورث الفقيد هذه الندرة وهذه المثالية من بيته المثالي الفريد....، بيت العلم والفضل والحكمة والدعوة، بيت الصلاح والتقوى، بيت الإمامة والقيادة، بيت النبل والنجابة والشرف، البيت الذي يعتز بالانتساب إليه مآت الآلاف من العلماء والنبلاء والأشراف.

إنه بيت "طيب" و"قاسم" اللذين كانا ممن يعتبرون فخار العلم، وسماء المعرفة، وجوزاء الصلاح والتقى، وهامة الشرف، وغرة المجد، والشامة بين الناس الذين يشار إليهم بالبنان.

وتفــوح مــن طيــب الثنــاء روائــح
لهــم بكــل مكانــة تستنشــق

فوالده حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي (ت ١٩٨٣م)، وجده حجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله (ت ١٢٩٧هـ) الذي أسس المدرسة الإسلامية الأم: دار العلوم / ديوبند.

إن هذا البيت المبارك يقسم[١] – بفضل من الله وتوفيقه – العلم والمعرفة.. علم الكتاب والسنة، وينشر الطيب والشذى، شذى سمو الخلق، وطيب الصلاح والتقى، وبهذه المزية الكبرى عرف هذا البيت – ولا يزال – في العالم.

فمن عجنت طينته بريا مكارم "طيب" العالية، وروائح ميراث "الروح القاسمية الفواحة ....، ومن نشأ وشب في ظلال خصائص هذين الإمامين الجليلين... فلا غرابة في أن يكون صورة حية لهما، وأن يكون خير خلف لخير سلف.

ومن كان جده شمساً وأبوه قمراً.... فلا تسأل عن سموه وعلوه، وتلألئه ولمعانه ونورانيته، فكأنه ولد ونشأ وشب وعاش في النور والسعادة، والمجد والسؤدد والعظمة، ويا لها من قسمة، وأكرم به من حظ ونصيب.

ومن هنا ... ظل الشيخ سالم – رحمه الله – معلماً شامخاً مضيئاً للعلم والعرفان، وملء السمع والبصر بحضوره الكبير والفاعل على امتداد ساحات العمل الإسلامي والإنساني، والدعوي والتعليمي: المحلي والدولي.

---

(١) المراد – طبعاً – بالقسم هنا: الاعتناء الزائد بنشر علوم الكتاب والسنة.

عظمة الفقيد:

أيها الحضور الكرام! أنا أصدقكم أنني كلما لقيت الفقيد، شعرت أنني أمام رجل عظيم حقاً...، فكانت العظمة تتراءى وتلوح من جميع أطراف شخصيته، من أسلوب مخاطبته للناس، من هيئة جلوسه، من ابتسامته، من مزاحه الممتع المؤنس، وكلامه المتلطف، وأسلوبه المتجمل المتودد، وسيره المتئد، ومشيته المترفقة، ورواحه ومغداه، وقعدته وقومته:

إنـــي أرى وفـــؤادي لـــيس يكـــذبني
روحـــاً يحـــف بهـــا الإجـــلال والعِظَـــمُ
أرى جـــلالاً أرى نـــوراً أرى ملكـــاً
أرى محيـــاً يحيّينـــا ويبتســـم
الله أكـــبر هـــذا الوجـــه نعرفـــه
هـــذا عـــالم الهنـــد هـــذا المفـــرد العلـــم

فكان الفقيد – رحمه الله – جمع جوانب مختلفة من العظمة، أو قل حاز العظمة من جميع أطرافها:

العظمة في الأخلاق، العظمة في السلوك والعادات، العظمة – التبحر – في العلم، العظمة – العراقة – في النسب.

لـــيس علـــى الله بمســـتنكر
أن يجمـــع العـــالم في واحـــد

خسارة شاملة:

ومن هنا فإن وفاته – رحمه الله – خسارة لعدة مجالات، فالفقيد

يُعتبر فقيد العلم والمعرفة، فقيد الدعوة والإرشاد، فقيد المنبر والمحراب، فقيد المدرسة والجامعة، وفقيد حلقات الدرس ومجالس العلم، فقيد المنصة والخطابة، فقيد النبل والمروءة، فقيد الكرم والضيافة، فقيد العامة والخاصة.

فقيد دنيا بأسرها..

ما إن أعدّ من المكارم خصلة
إلا وجدتك عمها أو خالها
إن المكارم لم تزل معقولة
حتى حللت براحتيك عقالها

أما العلم فحدث عن البحر ولا حرج، فقد رضع بلبانه، ونشأ في جوه، وورد مناهله، فصدر عنها بملء سجله، فمخضه — العلم — فألقى لطلابه زبدته، وظل مشتغلاً به تعلماً وتعليماً (من المهد إلى اللحد) إلى أن عُدّ من أعلم علماء عصره، ويعد تلامذته بالآلاف المنتشرين في أنحاء العالم كله.

أما في مجال الدعوة والتربية والإرشاد، فقد كان فقيدنا — رحمه الله — يعد من كبار الدعاة والمرشدين والمربين، وكفاه فخراً أنه كان من تلاميذ شيخ المربين وكبير الدعاة الشيخ أشرف علي التهانوي — رحمه الله — المستفيدين منه في هذا المجال الدعوي والإصلاحي والتربوي، فظل يقدم — مدى الحياة — وجبات مباركة للمسلمين، تدفع عنهم غائلة الجوع الروحي الذي يعانون منه.

أما الخطابة والبيان فقد كان الفقيد الجليل صنو أبيه في هذا المجال، فقد كان أبوه حكيم الإسلام محمد طيب القاسمي — رحمه الله — من

أعظم أصحاب الخطابة والبيان – في عصره – الذين تتفجر ينابيع العلم والحكمة من ألسنتهم وأقلامهم.

وصف أحد الأدباء كلام بعض البلغاء فقال: (إذا تحدث ... فكأن السحر دب في جسمك) وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "إن من البيان لسحراً"، فهو يفعل فعل السحر في قلوب السامعين، يقول ابن الرومي:

وكلامهـــا الســـحر الحـــلا لوأنـــه
لم يجـــن قتـــل المســـلم المتحـــرّز
إن طـــال لم يملـــل وإن هـــي أوجـــزت
ود المتحـــــدث أنهـــــا لم تـــــوجز

وهذا يصدق تماماً على الشيخ محمد طيب القاسمي الذي إذا تحدث أو خطب ودّ الناس لو يطيل ويطيل ولا يجيز.... فكأنه ينثر الدرر واللآلي، ويخلب السامعين بكلامه الساحر العالي، فقد كان حديثه يذكرنا بما قاله عبيد الله بن عمرو في شيخه الإمام التابعي النبيل شيخ المدينة يحيى بن سعيد الأنصاري: "كان يحيى بن سعيد يحدثنا فيسح علينا مثل اللؤلؤ"، فلاشك أنه – الشيخ طيب – كان من أساطين الوعظ والبيان الذين حفروا في ديوان التاريخ وذاكرة الأجيال، فالإبداع له خلود وشموخ، والتفوق له تأثير وذيوع، والتفرد له امتياز وارتفاع.

فطبيعي أن يرث الابن سالم ميزة أبيه هذه أيضاً – ميزة الخطابة والبيان – فقد ظل الشيخ سالم القاسمي – كذلك – معروفاً بامتطاء صهوات المنابر ومقارعة الفرسان في ميادين البيان، وكان له القدح المعلى في هذا المجال، وجعل من هذه الموهبة – موهبة البيان – وسيلة لنشر دين

الله وتبليغ رسالته، فقد أمضى الفقيد حياته في حمل الأمانة، ودعوة الحق إلى الخلق، وجمع الكلمة، وخدمة الشريعة والحقيقة.

اسم طابق المسمى:

يقال: لكل رجل من اسمه نصيب، وإذا رأينا من هذه الناحية فقيدنا الغالي وجدنا له النصيب الأوفر من اسمه، فقد كانت "السلامة" هويته وطبيعته ومزاجه، فعرف بين أقرانه بسلامة الفكر والاتجاه والرؤية وعفة لسانه ممايشين الإنسان، فكان سالماً من بذيء القول والفحش والخنا، وكان الناس سالمين — من قبله — مما يسيء إلى كرامتهم وحرمتهم، الأمر الذي جعله محبوباً أثيراً لدى الناس، متربعاً على عرش قلوبهم، فلين الكلام وعفة اللسان مما يجذب القلوب إلى صاحبه ويحببه إليهم ويقربه منهم "وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ" [آل عمران: ١٥٩] وكما قيل: حلاوة اللسان زينة الله للإنسان.

وقد عرف الفقيد بعفة لسانه وطيب كلامه حتى في أشد الأوقات التي تثير حفيظة الإنسان وتجعله يفقد السيطرة على لسانه، ولكنه ظل محافظاً على حرمة الإنسان، غير واقع في أعراض الناس حتى في زمن الاختلاف التاريخي الكبير الذي أدى إلى ما يعرفه الجميع.

فالاختلاف في بعض الشؤون والمعاملات والجزئيات لا يفسد للود قضية، وتاريخنا العلمي والديني حافل بأمثلة رائعة من سمو الخلاف بين السلف، إذ يروى — مثلاً — أنه نشب خلاف بين سعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد، ولكل منهما مكانته العظيمة في الإسلام، فأتى رجل من أتباع سعد، فقال له: إن خالداً يتكلم، ويقول عنك كذا وكذا، فقال له قولة تكتب بماء الذهب: "مه..... إن الذي بيننا لم يبلغ ديننا.....".

ويروى كذلك أن الإمام الشافعي اختلف مع أحد الأئمة في زمنه، فتفرقا ثم كان لقاء بينهما، فقال له الإمام الشافعي: "يا أخي! ما يمنع أن نكون إخوة وإن لم نتفق".

نعم! فلا مانع من المحبة في الله والأخوة الصادقة والتناصح والتعاضد رغم بعض الخلاف الذي في حد ذاته ليس منهياً عنه، وإنما المنهي عنه التنافر والتباعد والتباغض.

وكان فقيدنا – الشيخ سالم رحمه الله – ممن كانوا يتصفون بهذه المزية ... مزية عفة اللسان مع وجود الخلاف....

وقد شهد بهذه المزية الكبرى للفقيد فضيلة الشيخ الكبير أرشد المدني حفظه الله في بعض حفلات التأبين التي أقيمت للفقيد.

وهي – في الحقيقة – مزية تكاد تكون عنقاء..... لا يشرف الله بها إلا خاصة عباده.

وهذه المزية – مزية سلامة اللسان من الإساءة إلى الآخرين – ورثها الشيخ – فيما ورثه – من أبيه الصالح التقي النقي الطاهر العلم الشيخ محمد طيب القاسمي – رحمه الله – (فالخُلق ابن الخَلق، والولد شبيه بوالده) فيذكر أقرب الناس إلى الشيخ محمد طيب أنه لم يرتع في عرض أحد قط، وكان يقال: إذا أحب أحد أن يرى ملكاً يمشي على الأرض فلينظر إلى الشيخ محمد طيب، (طيب الله ثراه) وكان يضرب به المثل في النبل والشرف واحترام الآخرين، فلعله كانت بينه وبين النبل وسمو الخلق قرابة.

قصة السفر المبارك:

وإن أنس فلن أنسى ذلك السفر التاريخي المبارك الذي أسعدني الله

فيه بحج بيت الله الحرام مرافقاً لصفوة مختارة من علماء الهند وزعمائها، وذلك في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي المسيحي تلبية لدعوة مباركة من وزارة الحج بالمملكة العربية السعودية التي كانت تستضيف – ولا تزال – عدداً كبيراً من أهل العلم والفضل لحج بيت الله الحرام تقديراً منها لهم، واعترافاً بمكانتهم وقدرهم.

ففي العام (ولعله عام ١٩٨٩م) الذي تشرفت فيه بدعوة المملكة للحج، كان الوفد الهندي يضم نبذة من أجلة علماء الهند وكبار قادتها، أذكر منهم الشيخ الكبير منة الله الرحماني، والشيخ سعود الرشادي، والشيخ عبد الكريم باريكهـ، والمفتي فضيل أحمد العثماني، والشيخ أحمد علي القاسمي، والأستاذ عبد الرحيم القريشي وغيرهم من أعيان البلاد، ومن سعادة حظي أن الوفد كان يضم – فيمن يضم – فقيدنا الراحل – أيضاً – الشيخ محمد سالم القاسمي رحمه الله.

وكما هو معروف أن أربعة أشياء تكشف عن أخلاق الرجال: السفر، والسجن، والمرض، والمخاصمة.

ولذا حث عبد الله بن المبارك – في أبيات نسبت إليه – رفقاء السفر خاصة على الرفق واللين:

إذا رافقت في الأسفار قوما
فكن لهم كذي الرحم الشفيق
متى تأخذ تعنفهم تولوا
وتبقى في الزمان بلا صديق

فالسفر خاصة.... أعظم ما يكشف عن حقيقة الرجل، وسفر الحج

بالذات، فيحتمل فيه من وقوع ما يؤدي إلى الخلاف، ويقضي على صفاء الود ما لا يحتمل في غيره من الأسفار والرحلات، و — فعلاً — كثيراً ما سمعنا وقرأنا أن العديد من كبار العلماء والمشايخ المتحابين المتصافين فسدت العلاقات بينهم في سفر الحج فساداً لم يمكن إصلاحه زمناً طويلاً.

وفي العام الذي سعدت فيه بالحج تلبية لدعوة الحكومة السعودية، حج فيه — كما قلت آنفاً — الصفوة الصافية والثلة المجتباة ممن كانوا يعتبرون من الصف الأول من أعيان البلاد، وكلهم كانوا على جانب كبير من الأخلاق والشمائل والسجايا العالية، التي تجدر بأهل العلم الفضل والصلاح أن يتحلوا بها.

ولكن الذي تأثرت به أكثر وأعظم في ذلك السفر.... هو فقيدنا الغالي النبيل ابن النبيل الشيخ محمد سالم القاسمي رحمه الله، فقد أثبت بفعاله وأخلاقه — أنه فعلاً عظيم، وفعلاً عالم كبير، وفعلاً ينتمي إلى بيت عريق ماجد كريم، فقد ظل — طوال أيام السفر — مثالاً عالياً للعالم الزاهد العفيف المستغني الصالح الورع السامي الرفيع عن سفاسف الأمور، فلم تسجل عليه أية ملاحظة — لا صغيرة فضلاً عن كبيرة — ولم تسمع منه أي شكوى من أي شيء، ولم ير — خلال أيام السفر كلها — غاضباً أو شاكياً، أو لامزاً أو هامزاً، أو معترضاً أو مطالباً بشيء، بل على العكس وجدناه راضياً مسروراً شاكراً قانعاً، عابداً تالياً للقرآن، معموراً لسانه بالتسبيح والتحميد، منتهزاً كل دقيقة للاستفادة والانتفاع من قدسية المكان والزمان.

فالحقيقة أن سفر الحج هذا كشف للكاتب عن العظمة الحقيقية للفقيد، فلم يزده — الكشف — إلا حبا له وتأثرا بأخلاقه، واعترافاً بفضله

وتقـديراً لمكانتـه، واحترامـاً لـه، وتفضـيلاً لـه علـى الكـثيرين مـن العلمـاء والقادة الآخرين مع حب الكاتب وتقديره لهم.

ففي هذا السفر انكشف للكاتب من عظم الفقيد وفضله وتواضعه وأدبه الجم وتحليه بالأخلاق العالية، واتصافه بصفات العلماء الحقيقيين من الجد والرزانة والوقار والترفع حتى عن الهنيهات، ما جعله – الكاتب – يفضّل الفقيد على أكثر علماء عصره، ويعترف بتفرده وتميزه اعترافاً لم تزده الأيام إلا قوة ورسوخاً وتمكناً من قلبه.

جد وقور وخفة روح:

كان الفقيد الشيخ سالم القاسمي – رحمه الله – قد بلغ من العزة والعظمة منزلة تتحلب لها الأفواه وتتلمظ لها الشفاه، فقد ظل – طوال حياته – محفوفاً بهالة من الحب والتقدير والإجلال والاحترام ما لم يقدر منه لغيره إلا نادراً.

وأظن أن الذي أو صله إلى هذه المكانة المرموقة المحسودة هو – إلى عظم شأنه في العلم – أنه – رحمه الله – كان عذب النفس، حلو الروح، كريم السجية، مهذب الطبع، سامي الذوق، رقيق الشمائل، كأن نفسه خلقت من معدن الحب والنبل، وفطرت على سجية من الإخاء والوفاء، وحسن المعاشرة.

فكان الشيخ – يفيض على المجلس من روح المرح اللطيف والظرافة والفكاهة وطلاقة الوجه وانشراح الصدر وأريحية الخلق ولين الجانب ما يملؤه – المجلس – أنساً وسروراً وإمتاعاً للقلوب وترويحاً للنفوس.

بينما بعض الكبار يظن العبوس وتقطب الوجه من أمارات العظمة أو مما ينسجم مع الوقار والجد والرزانة، وهو اعتقاد خاطئ لا يتفق وروح

الإسلام السمحة، فأكرم الناس سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كان يضحك حتى تبدو نواجذه، ويمازح، وكان لا يمزح إلا حقاً، بل وجعل نبينا – محمد صلى الله عليه وسلم – الابتسامة عبادة وأمراً يؤجر عليه الإنسان: (وتبسمك في وجه أخيك صدقة).

وقال علي رضي الله عنه: (إن القلوب تملّ كما تمل الأبدان، فأهدوا إليها طرائف الحكمة).

فالعبوس والتذمر والتبرم والوجه المتقطب يدل على سوء المزاج وتعكره، وهياج النفس، وبالعكس الوجه البشوش البسام، وخفة الروح والمزاح الحلو الخفيف والحديث المستملح والكلام المستعذب أمارة على الإنسان المتفتح الحيّ... حي السلوك والروح والأخلاق والشيم، وعلى رحابة الصدر وصفاء الخاطر.

ومن هنا .... فإن هذا الجانب المشرق – ..... جانب المباسطة البريئة والإيناس الشريف والمزاح اللطيف، والظرف المريح، والتقريب الناعم بالكلام الحلو الجميل والطرائف واللطائف والنوادر الشهية العذبة، الذي كان مما يضفي على الحاضرين روح المتعة والبهجة والأنس... –، أقول إن هذا الجانب المشرق الحي من جوانب حياة فقيدنا الغالي، مما جعل شخصيته أكثر جاذبية وشعبية، وبالتالي أكثر نفعاً وأجل قدراً وأعظم حباً في قلوب الناس.

جزى الله الفقيد الغالي عنا وسائر أبناء الأمة خير ما يجزي به عباده الصالحين النافعين، وأسكنه فسيح جناته، وجعل أعماله مما يثقل ميزان حسناته يوم القيامة، ويعوضنا عنه خيراً، ويسد الفراغ الهائل الذي حدث بموته، وما ذلك على الله بعزيز، وهو على كل شيء، وبالإجابة جدير.

ماذا قال الرافعي عن أوربا وأمريكا؟؟

مصطفى صادق الرافعي ليس من أدباء مصر المشهورين فقط، بل من أبلغ الأدباء العرب وأمراء البيان العربي (في العصر الأخير) الذين تعتز بهم العربية نفسها، مثلما يعتز به أبناؤها ومحبوها.

فكتبه هي الدر النثير والنور المطير، وكلامه الخمر الصرف، والسحر الحلال المحلى بأسلوب عال متميز بخصائصه وروائعه وبدائعه التي تجعل صاحبها شامة بين أقرانه.

نعم! للرافعي أسلوب فذ متميز قوي رائع جداً جداً، يحييه الذوق العربي إكباراً وإعظاماً، ويطرب له الوجدان الأدبي طرباً، ويحتذيه المعجبون به احتذاء.

إنه كلام تكاد تكون جميع كلماته وجمله مصوغة في درر وجواهر بيانية تهز الإنسان هزاً، ومصبوغة بصبغة فنية جمالية تترك القارئ في حالة من الطرب والاهتزاز، والرَّوح واللذة والإحساس، لا نكاد نجد لها وصفاً، وعنها تعبيراً...، فهو كلام وراءه مدد من الله، واقتباس من نور القرآن الكريم، وفطرة عربية أصيلة، وتمكن من العربية عجيب، وطول مراس لأساليب بلغائها، وعمق نظر في بديع كتاباتهم.

وأسلوب كلامه أسلوب عربي مبين، لا يستسيغه ولا يتذوقه، ولا يستعذب طعمه، ولا يستطيب مذاقه، ولا يدرك جماله الفني ودقته المعنوية، وصياغته الأدبية العالية إلا من أوتي ذوقاً بيانياً عربياً خالصاً،

وسليقة عربية طبيعية، وحظاً وافراً من الدراية بالكثير من علوم العربية وخصائصها.

فلأمر ما وصف الزعيم المصري العظيم سعد زغلول كلام الرافعي بأنه: "بيان كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم".

إي والله! إنه كلام يستمد جماله وجلاله وعظمته وسموه وروحه من آفاق القرآن الكريم... ومن أساليب بلغاء العرب الأولين.

أسلوب إن هضمه هاضم، كاد أن يفضله على أساليب غيره من معظم الأدباء المعاصرين (إن لم أقل: جميعهم) وافتتن به افتتاناً، فلم يعدل عنه أسلوباً ولم يبغ به بدلاً.

لعل هذا قد يعتبر مبالغة أو مجانبة للصواب في وصف أسلوب الرافعي، فيقول البعض من القراء: قد غلا الكاتب في مدحه لكلام الرافعي، وجاوز الحد في تقديره، ولكنه رأيي.... ولا أكره أحداً على قبوله، فكل أعطي الحرية في قول ما يراه صواباً، ولا معابة عليه في الجهر بالذي يراه حقاً.

أنا أعرف أن البعض يصف أسلوب الرافعي بأنه أسلوب غامض مستغلق معقد يستعصي فهمه على القراء، ولا يتبين معناه إلا بعد لأي... وكد وجهد جهيد.

ولكنني لا أؤيد هؤلاء الواصفين الذين لم يحالفهم التوفيق وخانهم الوصف..

بل الحقيقة أن جمال أسلوب الرافعي وروعته ودقته وفنيته وبلاغته وحيويته وطلاوته وجزالته وسموه بمكان لا يكاد يصل إلى حقيقتِه

الشادون – من أمثالي – الذين لا يعرفون من العربية إلا بعض الخرزات والأصداف الفارغة العقيمة الطافية على السطح، ولا عهد لهم باللآلي والدرر والجواهر – من العربية – التي لا يمكن الحصول عليها إلا للغواصين في أعماقها.

إنه – الرافعي – كان منح قلماً بارعاً يعرض الفكر عرضاً حياً، ويشرحه شرحاً ناطقاً، فيبدع في العرض والوصف والتصوير كأجمل ما يبدعه مصور عبقري، وكأروع ما ترسمه ريشة فنان نابغة، وكأنه يجسد الفكر تجسيداً، فتراه – الفكر المعروض – شاخصاً حياً قائماً بذاته... كأنك تراه بالعيان... وتلمسه بالبنان... بعد أن تذوقت جمال عرضه بالوجدان، وشعرت بأثره في الجنان، فسبحان الرحمن الذي علمه هذا البيان.

يجدر بي هنا أن أمتع القارئ الكريم بوصف الرافعي للكلام النبوي والأسلوب النبوي – على صاحبه الصلاة والسلام –، فوالله إنه وصف لم يخطر لأديب ولا كاتب ببال، وصف رائع فذ يبهرك جماله، ويدهشك أسره، ويأخذ بلبك تحليله – تحليل الأسلوب النبوي – ويحصد إعجابك الابتكار – الذي لم يسبق إليه – في الوصف والتحليل العجيبين النادرين الرائعين، فليتمتع القارئ بما قاله الرافعي عن الكلام النبوي وأسلوبه:

"فكلامه صلى الله عليه وسلم يجري مجرى عمله: كله دين وتقوى وتعليم، وكله روحانية وقوة وحياة، وإنه يخيل إلي – وقد أخذت بطهره وجماله – أن من الفن العجيب أن يكون هذا الكلام صلاة وصياماً في الألفاظ.

أما أسلوبه صلى الله عليه وسلم فأجد له في نفسي روح الشريعة ونظامها وعزيمتها فليس له إلا قوة ... قوة أمر نافذ لا يتخلف، وإن له مع

ذلك نسقاً هادئاً هدوء اليقين، مبيناً بيان الحكمة، خالصاً خلوص السر، واقعاً من النفس المؤمنة موقع النعمة من شاكرها، وكيف لا يكون كذلك، وهو أمر الروح العظيمة الموجهة بكلمات ربها ووحيه، ليتوجّه بها العالم كأنه منه مكان المحور: دورته بنفسه هي دورته بنفسه وبما حوله، روح نبي مصلح رحيم، هو بإصلاحه ورحمته في الإنسانية، وهو بالنبوة فوقها، وهو بهذه وتلك في شمائله وطباعه مجموع إنساني عظيم لو شبه بشيء لقيل فيه: إنه كمجموع القارات الخمس لعمران الدنيا"[١].

وعزة الله..... الذي أعز الإسلام والعربية بقلم الرافعي وفجر ينابيع العلم والفضل والإبداع من قلبه وبنانه أنني لا أشعر لدى قراءة كتابات الآخرين بما أشعر به من الاهتزاز والانبهار والإعجاب والتأثر حينما أقرأ للرافعي، فأشعر حينما أقرأه كأن على قلم الرافعي مسحة أو أثراً من ذلك القلم الذي أقسم به الله في كتابه الأخير: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ).

ووالله لو حالفني الحظ بلقاء الرافعي لقبلت قلمه قبل يده، وقبلت يده قبل جبينه.

صحيح أن قلمه كان وراءه عقله وفكره وموهبته الإبداعية .... ولكن الذي كان يسطر ويقيد وينثر به اللآلي والجواهر: "القلم" والحقيقة أن القلم رمز ودلالة وأداة لصيانة وتقييد وتخليد ما تجيش به الصدور وتفيض به العقول، وما تلهم الأذهان من الأفكار والرؤى وبدائع الخيال.

فلو لا القلم ... لما أمكن تقييد بنات الأفكار وقرائح العقول الأبكار ونتائج الأذهان العبقرية.

---

[١] وحي القلم ٩/٣ دار الكتاب العربي، بيروت.

إن الله سبحانه وتعالى كان أعطى الرافعي القدرة على أن يقول في جملة واحدة ما لا يستطيع غيره أن يقوله في صفحة ... بل صفحات، فكل جملة من جمله قد تحمل سعة البحر وعمقه، أو قل: تحمل إشارات ورموزاً .... تحمل – هي – في طياتها كثيراً من المعاني والدلالات.

فلله در صاحبنا الرافعي الذي أوتي هذا القلم، ومنح هذا الأسلوب، وأعطي هذا البيان، وسبحان من خصه بهذه الخصائص والمميزات، والله ذو الفضل العظيم.

أما بعد، فلعلي تهت عن الموضوع ... وشغلت عن صميم الموضوع، وعلقت بموضوع جانبي، فأعترف بأن الحديث عن أسلوب الرافعي قد طال، وقد جرى على قلمي عفواً، ولم أطرقه عن عمد واختيار، وإنما جاء ذكره عفو الخاطر فيض الساعة، أو قل: نفلاً واستحباباً، فالمقصود الذي من أجله أمسكت القلم هو أن أطلع القراء على ما قاله الرافعي عن أوربا وأمريكا، فأذكر هنا كلمتين أو شيئين تطرق إليهما الرافعي في الجزء الثالث من كتابه: "وحي القلم"، وكلاهما يتعلق بأوربا وأمريكا، أول هذين الشيئين يمكن أن يسمى رأياً من آرائه أو أملاً من آماله الدينية والدعوية التي تدل على رغبته الصادقة في انتشار نور الإسلام إلى الأماكن أو البلاد التي لم ينتشر الإسلام أو قل: لم يتمكن منها ولم يثبت فيها.

أما الشيء الثاني الذي قاله الرافعي عن أوربا وأمريكا، فهو يمكن أن يسمى تنبؤا علمياً مَدْعُوْماً بالتجارب، ومبنياً على أساس الدراسة العميقة للكتاب والسنة وتاريخ صعود وهبوط الأمم والشعوب، على (أن هذا الرأي / التنبؤ) ليس جديداً، وإنما قاله الآخرون – أيضاً –قبل الرافعي وبعده.

وقد ذكر الرافعي هذا التنبؤ أو الرأي في معرض شرح الحديث المشهور: "ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل" فقال بعد ما ذكر الحديث:

"وكأن العبارة نص على أن الإسلام يعم حين تظلم الدنيا ظلامها الشعري، إذا طمست الإنسانية بلذاتها، وأظلمت آفاقها الروحانية: فيجيء الإسلام في قوة أخلاقه كشباب الفجر، يبعث حياة النور الإنساني بعثاً جديداً، وهذا هو رأينا في مستقبل الإسلام: لابد من انحلال أوربا وأمريكا، كما يصفر النهار ثم يختلط، ثم يظلم ثم تطلب الطبيعة نورها الحي من بعد"[1].

هذا الذي ذكره الرافعي من تفتت الولايات المتحدة الأمريكية وتمزقها وانهيارها كقوة عظمى – كما أسلفت، وكما يعرف المطلعون – ليس هو قائله الوحيد، بل قد ألفت في ذلك الكتب وأعدت الدراسات في أمريكا نفسها، وهذا – ارتفاع دولة وانهيار أخرى – وفق السنن الكونية، وتلك الأيام نداولها بين الناس، والأيام دول، ولبقاء الأمم وازدهار الدول سنن كونية إلهية، فإذا سارت الدول وَفْقَها كتب لها البقاء والازدهار، وإذا طغت على سنن البقاء كتب لها الزوال[2].

هنا ذكرت كلمة قوية حماسية مؤمنة لأحد المشايخ الهنود الكبار، ألقاها – في أوائل الثمانينيات من القرن المسيحي المنصرم في مركز تعليمي

---

[1] وحي القلم ٦/٣، أدار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

[2] وقد عالجت موضوع السنن الكونية للبقاء والزوال في كلمة مجلة "النصيحة" في العدد الثاني من المجلد الثالث ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، بعنوان: لماذا انحطت خير أمة، والكلمة منشورة في هذه المجموعة أيضاً على ص: ٤١.

كبير، وكأن صوت الشيخ – وقد توفي إلى رحمة الله – المجلجل لا يزال يرن إلى اليوم في أذني، وتطرق الكلام في كلمته إلى أمريكا والاتحاد السوفياتي: القوتين العظميين المتنافستين آنذاك، وكانتا – حينما ألقيت الكلمة – على قمة جبروتهما وفرعونيتهما، وأشار الشيخ إلى ممارساتهما الظالمة وأفاعيلهما النكراء، اللا إنسانية .... رغم ادعائهما التحضر وتشدقهما بالحقوق الإنسانية، وأبدى غضبه الشديدة وكراهيته البالغة لهما حتى شبه إحداهما بالكلب والأخرى بالخنزير، وقال – جازماً مملوءاً بثقة المؤمن، وإيمان الواثق بوعد الله ووعيده –: كأنني أرى – بعين بصيرتي وفي ضوء مطالعتي لتاريخ ارتفاع الأمم والدول وانهيارها – زوال كلتا الدولتين الطاغيتين وانهيارهما، ثم شدد على قوله وقال: إن الدولتين لتسقطنانّ إن عاجلاً أو آجلاً، وسقوطهما هذا...، ليقعنّ لا محالة بإذن الله، ثم أخذه – الشيخ الراحل الخطيب – الحماس كل مبلغ، وقال في شبه ثقة كاملة: إن الاتحاد السوفياتي قد يسقط قبل أمريكا....، ثم ذكر سبب ذلك قائلاً: إن النظام الشيوعي يكمم الأفواه ويقضي على الحرية كاملاً... فكأن الاتحاد السوفياتي بلاد تحولت كلها إلى معتقل كبير يعيش فيه الأسارى لا الأحرار... فالرقابة على كل شيء، ولا حرية في التعبير عن الرأي، ولا حرية في التجول داخل البلاد، ولا حرية في ممارسة التجارة، ولا حرية في السفر إلى خارج البلد، فهذا النظام غير فطري، نظام جائر إلى أقصى الحدود، نظام يصادم الفطرة، ولا بقاء – طويلاً – لنظام يعارض أو يصادم الفطرة.... فمثل هذا النظام مهدد – كل وقت – بالانهيار والفناء...

وهكذا وقع بعد سنوات عديدة .... فصدق ما تنبأ به الشيخ مائة في المائة، وانهار الاتحاد السوفياتي في أوائل التسعينيات، وتبعثرت أجزاؤه،

وتبخرت وتفتتت تفتتا استبشر به الأحرار المنصفون، وهُزم النظام الشيوعي في مسقط رأسه وموطنه، ومعقله الأكبر، ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦] ثم بدأ ضعف الدول الأخرى التي تتبع هذا النظام الفاشل، وقد صدق من قال: إن الشيوعية يوم بلا غد، وأرض بلا سماء، وعمل بلا خاتمة، وسعي بلا نتيجة...

أما أمريكا.... فقال الشيخ مبيناً سبب إمكانية تأخر زوالها: إن أمريكا يتمتع فيها الناس (ولا يغيبن عن البال أن الحديث حديث أوائل الثمانينيات من القرن الماضي المسيحي) بالحرية في ممارسة معتقدات وأعمال دياناتهم والدعوة إليها، وبالحرية في الجهر بما يريدون التعبير عنه من الأفكار والرؤى، وما إلى ذلك من بعض النواحي الإيجابية التي قد يمكن أن تلعب دوراً في تأجيل زوالها، أما نفس الزوال والانهيار لأمريكا ... فذلك واقع لا محالة، لأنها تتحدى السنن الإلهية، وتطغى وتعيث في الأرض فساداً، وتظلم وتعتدي، والدول قد تمشي بالكفر ولكنها لا تدوم بالظلم والطغيان.

أما الشيء الثاني الذي ذكره الرافعي عن أوربا وأمريكا في مقاله تحت عنوان: "رسالة الأزهر في القرن العشرين، الذي تعرض فيه لبيان مكانة الأزهر وجلالة مسئوليته، فقال:

"وعندي أن الأزهر في زماننا هذا يكاد يكون تفسيراً جديداً للحديث: "مصر كنانة الله في أرضه" فعلماؤه اليوم أسهم نافذة من أسهم الله يرمي بها من أراد دينه بالسوء، فيمسكها للهيبة ويرمي بها للنصر، ويجب أن يكون هذا المعنى أول معانيهم في هذا القرن العشرين الذي ابتلي بملء عشرين قرناً من الجرأة على الأديان وإهمالها والإلحاد فيها"[1].

[1] وحي القلم ٣٨/٣.

ثم مضى الرافعي يتحدث عن واجب الأزهر في القيام بالدعوة إلى الله في مختلف أنحاء الأرض، وأكد على أن المراد بـ: "فرب مبلغ أوعى له من سامع"! هو أوربا وأمريكا في هذا الزمن، فقال:

"ليس على الأزهر إلا أن يوجد من الإسلام في تلك الأمم ما يستمر، ثم الاستمرار هو يوجد ما يثبت، والثبات يوجد ما يدوم، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى هذا في قوله: "نضر الله امرأ سمع مني شيئاً فبلّغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى له من سامع".

أما والله إن هذا المبلَّغ الذي هو أوعى له من السامع لن يكون في التاريخ بأدق المعنى إلا أوربا وأمريكا في هذا الزمن العلمي إذا نحن عرفنا كيف نبلغ"[1].

وهذا الذي رأى ..... ورجاه الرافعي .... لا عجب فيه ولا غرابة، فما ذلك على الله بعزيز، فقد تتحول أوربا وأمريكا أرضاً خصبة للإسلام والدعوة الإسلامية، والله يخرج الحي من الميت، وقد أخرج من التتار أبناء مخلصين للإسلام مدافعين عنه وحماة له، فأوربا وأمريكا التي تتصدر اليوم القوى المعادية للإسلام، قد تتحول غدا مناطق مباركة يزدهر فيها الإسلام، وكثيراً ما نسمع أن الكنائس تتحول هناك مساجد ومراكز كبيرة للإسلام، وعلى المسلمين أن يتبنوا استراتيجية جديدة حكيمة لنشر الإسلام في أوربا وأمريكا خاصة، حتى يتحقق حلم الرافعي واقعاً ملموساً يكون فيه خير الإنسانية جمعاء.

---

[1] أيضاً، ص: ٤٣.

الألف واللام والحاء والباء

مهلاً.. مهلاً.. يا حضرات القراء!

فأرجوكم أن لا تحاروا ولا تضطربوا.. ولا تسارعوا بالحكم على واضع العنوان حكماً قاسياً...!

فليس العنوان من باب: "حروف المقطعات" القرآنية المعجزة، التي لا يدرك كنهها إلا منزلها الخبير جل وعلا...

حاشا وكلا.. والعياذ بالله ألف ألف مرة!

أفيتصور من مؤمن أن يبلغ من الوقاحة وسوء الأدب أن يتجاسر على مضاهاة كلام رب العالمين..؟!

أبداً... أبداً... إنه لن يفكر في ذلك ولن يخطر له على بال في منام...، فضلاً عن أن يريد – وهو في اليقظة – أو يحاول هذه المحاولة الفاشلة الفاجرة المحقَّقة الفشل مائة في المائة، المكتوب لصاحبها الآثم الخيبة والندامة والخسارة، ويا لها من خسارة!

شلت يد ذلك التعس الشقي الذي يمسك القلم ليحاكي أو يجاري كتاب الله، وجُعل عبرة لمن تحدث نفسه بذلك.

ثم أنا – والله – متأكد من أن الشادي وصاحب الفهم العادي من القراء، يكون قد أدرك – بقليل من التروي وإعمال الفكر – مجموع الكلمة المشار إليها – في العنوان – بهذه الحروف المقطعة المنفصلة، فهي –

الحروف – ليست إمعة.. يعيي فهمها كبار الأذكياء، أو طلسما أو لغزا يحتاج فكه إلى مقدار عظيم من الذكاء والفطنة.

إنها كلمة معروفة بسيطة، حلوة لطيفة، موحية ملهمة، خفيفة على اللسان، أثيرة عند كل إنسان، ذات وقع وتأثير على القلب والوجدان.

كلمة لو تبنى حقيقتها المجتمع البشري اليوم واحتضنها لانحلت معظم القضايا والمشكلات، وزالت الشحنا والبغضا، والترات، وحل الوئام والتقارب والتآلف في المجتمعات.

كلمة ورد ذكرها في الكتاب والسنة، ولكن – مع الأسف – طالما أسيء استعمالها، ولم توف حقها من فهم معناها الحقيقي المبارك الشامل المتكامل، ولا تحقيقه – معناها – تحقيقاً عملياً كما ينبغي أن يكون.

لقد جنى عليها الجانون، وظلمها الظالمون، حيث ضيقوا معناها، وحجروا سعته، وقيدوا شموله، فجعلوه مادياً بحتاً، فأساءوا إلى شرف الكلمة، ودنسوا قداستها.

كلمة.. دعا إلى تحقيق معناها كل نبي مرسل، وكل صالح ومصلح، وكل مهتم بأمر الإنسانية، فلا معنى للإنسانية وللأخلاق والفضائل والمكرمات، بدون تحقيق ما ترمز إليه الكلمة من دلالات وحقائق.

بعد هذا التمهيد – الذي لعله يكون قد شق على القراء، فعفوا ومعذرة.... - أريد أن أرفع الغطاء عن هذه الكلمة....، لكي أتحدث عنها بشكل أوضح وأظهر.

إنها – كما تكونون قد اهتديتم إليها مسبقاً أيها القراء – كلمة :

"**الحب**"....، الكلمة المسكينة المظلومة المعتدى على معناها وكرامتها، المبخوس حقها، المساء فهم مدلولها الحقيقي...!

يا قوم! الحب أسمى وأطهر وأشمل مما نحسب!

إن الحب رسالة، وخير وبركة، وأمانة ووفاء، إنه — الحب — درة تاج الإنسانية، وغرة جبينها، وبيت قصيدها، وعين رسالتها، وروح روحها.

وللحب لغة تفهمها القلوب، وسحر تكاد منه النفس تذوب، وإيحاءات وإضاءات وغرائب وعجائب ومذاهب.

وللنـــاس فيمـــا يعشـــقون مـــذاهب

والعالم بلا حب قالب بلا قلب، ومادة بلا روح، ولفظ بلا معنى، وعبارة بلا عبرة، وآلة صماء، وقصة فارغة...!

فالقلب بلا حب لا يفقه، والعقل بلا حب لا يفكر، والعين بلا حب لا تدمع، والأذن بلا حب لا تسمع، والسماء بلا حب لا تمطر، والأرض بلا حب لا تنبت، والسفينة بلا حب لا تجري، والروضة بلا حب لا تزهر، والأزهار بلا حب لا تتفتح، والزواج بلا حب لا يسعد، والأستاذ بلا حب لا يعلم، والتلميذ بلا حب لا يدرس، والجيش بلا حب لا ينتصر، والإنسان بلا حب لحم ودم!

فإن العالم بلا حب لا شيء!

والحب فاتح العالم حسب تعبير بعض الشعراء.

والمجتمع البشري بلا حب مأتم ومناحة.

والحياة بالحب حياة بمعنى الكلمة، وسعادة وطمأنينة، وراحة وارتياح الروح.

وبه – بالحب – قامت السماوات والأرض، وبه تداعب الشفاه البسمات، وتهب في الفجر النسمات، وتتغرد الأطيار بالنغمات، وينشد الحمام إلياذة الفراق على أطراف الأوراق، وبه تسهر الأم لرضيعها سواد الليل، ويكدح الوالد بياض النهار لأولاده، وبه رونق العالم وبهاؤه، وحسنه وإحسانه، وهدوءه وجماله، ورقيه وازدهاره ﴿رخاء حيث أصاب﴾.

وللحب سحره وحرارته، وحلاوته وطراوته، وجاذبيته وتأثيره وأعاجيبه ومعجزاته.

حلل من السحر الجميل وموكب

من روعة الإيحاء والإغراء

فالحب يعالج قلب المعاند ويخاطب فطرته، ويدغدغ مشاعره، ويلطف أحاسيسه ويهدئ سعاره، فيعود حليماً صفوحاً مسامحاً، خاضعاً لقوته – قوة الحب – مستسلماً لسلطانه ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤ -٣٥].

وهو – الحب – أنشودة عذبة لمهرجان الإنسانية، ونجمة متلألئة في سماء المسيرة الإنسانية العالمية، وضرورة كل إنسان ما تعاقب الحدثان!.

ثم الحب أنواع:

- حب إلهي: وهو حب المؤمن لربه خالق السماوات والأرضين "وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ" [البقرة: ١٦٤].

وهذا هو أسمى أنواع الحب، فسمو الحب بسمو المحبوب، وشرف العلم بشرف المعلوم.

فهل هناك أسمى وأعظم من الله؟؟!!

وكـــــل محبـــــة في الله تبقـــــى
علـــى الحـــالين مـــن فـــرح وضـــيق
وكـــــل محبـــــة فيمـــــا ســـــواه
فكـــــاً لحلفـــــاء في لهـــــب الطريـــــق

- حب نبوي: وهو حب المؤمن لصاحب المنة الكبرى سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين).
- حب إنساني: وهو حب الإنسان لأخيه وصديقه.
- حب حيواني: وهو العشق الجنسي (خالي الوفاض من أي خير حالاً، على جرف هار مآلاً)

أما الحب الإلهي ففيه ضراعة المحب وشكر المحبوب.

أما الحب النبوي ففيه اتباع المحب وتوقير المحبوب صلى الله عليه وسلم ونعته والامتنان له.

أما الحب الإنساني ففيه نصح المحب وإيناس المحبوب.

أما الحب الحيواني: ففيه مراوغة المحب ولؤم المحبوب (حشفاً وسوء كيلة)

فالحب الحقيقي طاهر طهر الملائكة، سام سمو السماء واسع سعة الفضاء.

ولكن الظالمين ضيقوا دائرة "الحب"، ولوثوا سمعته، واعتدوا على قداسته.

ألا فتبًا وسحقاً للذين ظلموا هذه الكلمة العذرية الطاهرة.. وألحقوا بها من العار والشنار ما ألحقوا، وجنوا عليها جناية لا تغتفر، وحصروا مدلولها في معنى غريزي، بهيمي حيواني مبغوض مرذول، فهو مدلول خبيث نجس مبتدع ﴿فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٨].

إن هذا المدلول الجنسي لهذه الكلمة البريئة.. وإن كان هو المراد المفضل عند دعاة الرذيلة، وأرباب الفضيحة ولصوص الشرف وقطاع العفاف وكلاب الشهوة، ولكنه عند زعماء الأخلاق، وأرباب الصلاح ورواد الفضيلة، مردود مرفوض مقطوع... مقطوع الخير والبركة والبر.

فالحب – أصلاً – حب سماوي علوي، قرآني محمدي، وهو سيما الربانيين، وطبيعة الصالحين، ومزاج المحسنين (المراد بالمحسنين هنا من أشار إليهم حديث جبرئيل المشهور: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنك يراك").

الحب الذي صفا من كل شائبة من شوائب النفوس البشرية.

الحب الذي يسقى بماء الإخلاص والنقاء.

هذا هو الحب الذي يرضى عنه علام الغيوب.

والأصل الأعظم في هذا هو قوله تعالى: "يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ" [المائدة: ٥٤].

وبمثل هذا الحب التقي النقي تصلح القلوب، وتطهر النفوس، وتعمر البيوت، ويسود الهدوء، وتعم الفرحة والبهجة.

وبه يقوم صرح السلام، ويرتفع حصن الأمان، وترفرف راية

السعادة والوئام، ويحفظ من الدمار، وبه تنجح الدعوات والرسالات، وتحقق المقاصد والغايات، وبه نشر المسلمون الإسلام، فسادوا وقادوا، وبنوا وعمروا.

وبه يفتح باب الخير على مصراعيه.

وصاحبه في أمان وروحه في حرز مكين، ومأمون من الآفات والشرور:

ألا ليـــــت الشـــــرور بـــــلا نقـــــاط

وليـــــت الحـــــرب كانـــــت دون راء

وصفة سحرية من طب الوحي

إذا أردت أن تعيش سعيداً مرتاحاً، هادئ البال، غير مجنيّ عليك، آمناً من أذى الناس، فعليك بوصفة سحرية مضمونة التأثير والشفاء، لا يمكن أن يتخلف أو يتأخر – فضلاً عن أن ينعدم أو ينتفي – مفعولها..، لأن هذه الوصفة عليها دمغة الماركة المباركة المسجلة من شركة: "طب الوحي" القرآنية المحمدية – إذا لم يكن سوء أدب في هذا التعبير –!

إن هذه الوصفة تعد من عقاقير روحية، تسمى: "العفو"، أو: "الصفح"، أو: "كظم الغيظ"، أو: "التسامح"، أو: "غض النظر" وما إلى ذلك....!

ولا جرم أن هذه الوصفة القيمة دواء ناجع لطباب ٩٩٪ من الأمراض الخلقية من الثارات والعداوات والإحن، ومظاهر الشر والفساد، وإفرازات الشحناء والبغضاء.

فيوم يدرك الناس أهمية هذه الوصفة، ويعملون بها بدقة، يسودهم جو من الحب والوئام، ويأمنون شر النزاع والخصام، ويرفرف على العالم حمام السلام، وتعود الحياة أجمل ما تكون!

فالعفو إكسير لسم الحقد والضغينة، وأنجع دواء لداء العداء والشحناء، ومغناطيس طبيعي يجذب قلوب أعدى الأعداء، ويجعل أرواحهم تتصافح ونفوسهم تتصافى، وعصا سحرية تطوّع أقسى القلوب وتليّن أعتاها، وسلاح ماض يهزم أكبر الجبابرة، ويصرع أطغى الطغاة،

ويخضعهم عفويا وطواعية وحباً، لا قهراً وكرهاً وعنوة، ويحبب صاحبه إلى أبغض المبغضين الحاقدين الموتورين، (وطوبى لمن حببه الله إلى خلقه) ويجعله محترماً لديهم، متربعاً على عرش قلوبهم.

من سالم الناس يسلم من غوائلهم
ونام وهْو قرير العين جذلان

وبما أن ديننا: "الإسلام" دين الرحمة والعدل والحب والسلام، فإنه كثيراً ما يحث على العفو وكظم الغيظ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [الشورى: ٤٠] "صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك".

ومعلوم أن المشروع المحمدي كان عنوانه البارز الدائم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ورسول الإسلام نبينا محمد عليه الصلاة والسلام سمي: "رسول الرحمة"، وما حياته المباركة كلها إلا عبارة عن: "الرحمة" و"العدل" و"البر" و"التأليف و"العفو" عن الأعداء، ومعاملتهم بالحسنى.

ثم العفو الحقيقي لا يكون إلا عن قوة وقدرة، فلما دخل صلى الله عليه وسلم مكة ظافراً فاتحاً، لم يحاكم أساطين الحرب وألد الأعداء، ولم يقم لهم محاكم التفتيش، ولا نصب لهم المشانق، وكان قادراً على الاقتصاص منهم فرداً فرداً، وعلى أن يرد الصاع بالصاعين، ولكنه كان أرسل رحمة للعالمين، فعفا عنهم عفو القادر على الثأر، وقال لهم: (اذهبوا فأنتم الطلقاء لوجه الله تعالى)، وما سئل عليه السلام في رحمة ولا عدل ولا إحسان إلا بادر إليه، وقد تابعه صحابته في ذلك، فقدموا للحضارة الإنسانية النموذج الأعلى في الإنسانية والتواضع في لحظات المجد والقوة.

ولننظر كذلك ماذا فعل الرسول صلى الله عليه وسلم يوم عامله أهل الطائف أسوأ معاملة وأقبحها، فاستقبلوه بالحجارة والاستهزاء، فلم يدع عليهم، ولو دعا عليهم لهلكوا عن آخرهم، وأصبحوا كأن لم يغنوا بالأمس، وصاروا أثراً بعد عين، وحديثاً يتلى على اللسان، بل عفا عنهم، وتدفق لسانه – صلى الله عليه وسلم – بعبارات الشكوى، وصادق النجوى قائلاً:

"الله إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، أنت أرحم الراحمين، ورب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى قريب يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك عليّ غضب، فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي غضبك، أو يحلّ بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك".



ثم إن الرجل الذي يغض النظر عن أخطاء الناس، ويعفو عن زلاتهم، يعيش في ظلال السعادة القلبية، والأمن الداخلي، والاستقرار النفسي إضافة إلى كونه مستحقاً لأجر الله وثوابه (ورضوان من الله أكبر).

هل سمعت أو قرأت أن رجلاً فظاً غليظ القلب، شرساً حقوداً حاداً، مقفراً في عالم المثل، كسب احترام الناس وحبهم...؟!

كلا...!!

يقول شكسبير: "لا توقد الفرن كثيراً لعدوك، لئلا تحرق به نفسك".

فقـل للعيـون الرُّمْـد: للشـمس أعـين
تراهـا بحـق في مغيـب ومطلـع
وسـامح عيونـاً أطفـأ الله نورهـا
بأهوائهـا لا تسـتفيق ولا تعـي

بل إن الرجل الهيّن الليّن السمح الكريم العطوف هو الذي يحظى بحب الناس وإجلالهم.

انظر ماذا قال الله تعالى لرسوله الأحب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فلو كان محمد – صلى الله عليه وسلم – نفسه، المرسلُ من الله، المؤيد منه، صاحبَ خلق غير جميل، لابتعد الناس عنه!

فما لك بغيره من الناس يا ترى؟!

فالعافون عن الناس، المتسامحون الحلماء النبلاء، الذين لا يحملون الحقد والضغينة، هم المحبوبون عند الله وعند الناس، وهم المكرمون الموقرون، المحظيون بجائزة الحب، ووسام التقدير، ونعمة الثناء على ألسنة الخلق (وألسنة الخلق أقلام الحق) وعظيم الأجر من الله، وهم كرام الناس.. كما قال الشاعر العربي الكريم:

ولا أحمـل الحقـد القـديم علـيهمُ
ولـيس كـريم القـوم مـن يحمـل الحقـدا

فالعفو.. العفو... أيها الناس !

فإننا إذا عفونا نلنا شرف الدنيا وعز الآخرة :

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى : ٤٠].



بينما الرجل الحاقد الثائر، والإنسان العدواني المشاكس، صاحب النزعة الانتقامية المشينة، الذي يعيش على الكراهية، ويتغذى ببغض الناس، ولا يرتاح إلا مع الخصام، ويتتبع زلات الناس، ويتصيد مثالبهم، ويفرح بعثراتهم، ويتلذذ بكشف عوراتهم، وفضح سوءاتهم، ويتفرغ ليحصي على أغلاطهم، فهو كالذباب لا يقع إلا على الجرح والنجاسة، ولا يعترف لهم بحسنة، ويشطب كل فضيلة، ويعمى عن كل محمدة، ويختلق كل يوم مشكلة، ليجرّع بها من حوله الغصص، ويبحث – دائماً – عن ضحية...، وينظر إلى الناس بالنظارة السوداء :

والذي نفسه بغير جمال
لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً

إن مثل هذا الرجل يعيش – في مجتمعه – مكروهاً ملعوناً، ثقيل الظل، يتحاماه الناس، ويتحاشون مجالسته ومصاحبته، هذا من الخارج !

أما من الداخل... فهو يعيش انهياراً نفسيا، محطماً محروماً، مشرد الفكر ممزق القلب، قانطا يائساً، مصاباً بالتشاؤم والإحباط، مذعوراً مهموماً :

من راقب الناس مات هما
وفاز باللذة الجسور

هذا عاجل عقابه ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

أيها الناس! هل أعطانا الله هذه الحياة الجميلة القصيرة لنعكر صفاءها ونفسد جمالها بالتنافر والتشاحن والتعادي؟!

أو لنقضيها – قدر المستطاع – متحابين متصافين، متآخين، متعاونين متضامنين، نزينها بأزهار الحب والمودة، ونجملها بأوراد العفو والتسامح، متمتعين بما أودعها الله من مظاهر طبيعية فاتنة، ونستعد – متزودين بزاد التقوى – للحياة الآتية الأصيلة، ونغض الطرف ونتغافل ونتغابى... كما قال أبو تمام:

ليس الغبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه المتغابي

وكما قال أحمد بن حنبل: التغافل تسعة أعشار حسن الخلق.

فقاتل الله الشر، وسحقاً لمن ينشره أو يشجعه، وبُعداً لمن يظلم أو يتعاون عليه، وتباً لمن يفرش الشوك والقتاد في طريق الناس، والخيبة والندامة للمصرين على العدوان.

وسلام على من عفا وصفح، وائتسى بأسوة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وباقات ورد لمن سار سيرة المسالمين المسامحين.

وحيا الله الكاظمين الغيظ والمحسنين.

وتحياتنا ودعواتنا لأصحاب العفو والمسامحة والإحسان، والله يحب المحسنين!

والحمد لله رب العالمين.

التتار الجدد... لكن مسلمون...؟؟!!

ضــــعي حــــدا لظلمـــك فقـــــد تزايـــــد جـــــدا
و غـــادري الشـــام تســكن و أرض بغـــداد[1] تهـــدا
و لا يغرنــــــك جنـــــد فـــالحق أكثـــر جنـــدا

"داعش" فتنة جديدة ظهرت في أرض الفتن، ولعلها من أخطر الفتن التي ابتليت بها الأمة الإسلامية عبر تاريخها الطويل، المليء بالفتن والقلاقل والبلابل، فسببت لها القلق والحيرة والاضطراب، وأضرتها ـ ماديا ومعنويا ـ إضرارا لا يوصف، فتجرعت الأمة ـ بتصرفات داعش الرعناء ـ الغصص، واحتست كأس الشؤم والندامة والألم.

فمنذ فترة غير قصيرة تقض هذه الفتنة مضجع الأمة وتؤرق نومها، وتعطل فكرها وقواها، وتمنعها عن المضي قدما في طريق البناء الحضاري المجيد.

وأكبر الظن أن هذه الفتنة رد فعل عنيف لألوان وأنواع من الظلم والجور والعدوان، تصب على الأمة صبا، فتقصم ظهرها، وتحاول تركيعها وإخضاعها، وشل فكرها، وتحطيم معنوياتها حتى لا تقوم لها قائمة...!

مهما يكن الأمر.... فلا عاقل أو منصف ـ فضلا عن مسلم واع ـ لا يعطي الضوء الأخضر لهذه الممارسات الداعشية اللاإنسانية، ولا يبررها أي عرف، أو قانون، أو شرع ... فضلاً عن شرع الإسلام العادل الحنيف.

---

[1] حصل هنا تصرف، فالأصل: حوران.

فالظلم لا يبرر الظلم، والعنف لا يعالَج بالعنف، والعدوان لا يُقضَى عليه بمثله!

لأن الظلم ظلم.. أيا كان مصدره وسببه... وهو محرم شرعاً، ومرفوض عرفا وعقلا، وصاحبه ــ أي الظالم ــ ممقوت مرذول، يدان ويستحق العقاب الصارم الرادع... مهما كان دينه وجنسه ومذهبه، ويجب إيقافه بيد من الحديد دونما مراعاة أو خوف أو تردد أو تأخير.

والمظلوم مظلوم... أي يستحق الرثاء والرحمة والعطف، وحفظَه من ظلم الظالم، بغض النظر عن جنس المظلوم أو دينه أو مذهبه!

والعجب العجاب أن هناك أناسا ـــ من الحماسيين المتهورين والعاطفيين ـ غرتهم دعاوي "داعش"، فصدقوا مزاعمها، وكادوا يؤمنون بخلافتها الإسلامية المزعومة المشئومة، التي ما جلبت للأمة إلا العار والشنار، والمصائب والمشاكل، بينما الخلافة الإسلامية الحقيقية لا تكون إلا رحمة من الله للأمة، وخيرا وبركة لها.

والأمة ما خلت ـ قط ـ من أمثال هؤلاء الأغرار المخدوعين الذين يمشون وراء كل ناعق وكل مدع، وكل مرجف وكل مغامر، وكل ضال ومضل، مهما كانت مزاعمه بعيدة عن العقل والرشد والصواب، وأعماله وأقواله قريبة من الجنون والحمق والغي، ومهما كانت تصرفاته مريبة، وغير معقولة، ومرفوضة ديناً وعقلاً، ومدعاة للسخرية والاستهزاء.

فما زال هؤلاء ــ من قاصري النظر، وأصحاب الرأي الفطير ــ يؤولون تصرفات داعش تأويلا صبيانيا مضحكاً ـ وشر البلية ما يضحك ــ زاعمين أنهم ـ أصحاب داعش ـ قوم صالحون... لا يريدون إلا خير الأمة

وفلاحها، وإنها دعاية الإعلام الأجنبي الذي يجعل من حبتهم قبة، ومن قطتهم جملاً، فيضخم هناتهم، ويستر حسناتهم.

والواقع... أننا والعالم كله ما عرف من داعش إلا الشر والشر فقط، فأي خير أصاب الأمة من قِبَل داعش، وأي نجاح أو انتصار أحرزته الأمة على أيدي داعش، وأي شعث لمته داعش، وأي فساد أصلحته، وأي جرح ضمدته، وأي مكرمة أضافتها داعش إلى مكارم الأمة؟!

بل على العكس من ذلك.... أي عار لم تلحقه داعش بجبين الأمة، وأي فساد لم تأته داعش، وأي جهد لم تأله لإفساد منطقة وطئتها أقدامها النجسة، وترويع سكانها الآمنين، وتخريب عمرانها، وتدمير معالمها، والقضاء على أخضرها ويابسها، وجعل حياة أهلها جحيماً لا يطاق!

فلما ذا عمي هؤلاء عن هذه الحقائق الناطقة الصارخة، ولماذا لا يكادون يبصرونها في رابعة النهار ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦).

أي منطق، وأي قانون، وأي دين ـ فضلا عن الإسلام ـ يبيح تذبيح الأبريا، أو إحراقهم وهم أحياء، وتدمير المرافق العامة والمنشآت والمعالم؟؟!!

الذي له مسكة من العقل والإنسانية، وأدنى أثر من الضمير لا يرضى بذلك ألبتتة!

والأدهى والأمر أنهم ــ أصحاب داعش ــ يمارسون هذه الأهوال والطامات باسم الإسلام، والإسلام منها براء كبراءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب. ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (الروم: ٣٠)

إنهم همجيون وحشيون، مسحت قلوبهم من كل معنى من معاني الرحمة والشفقة والعطف والنبل والوفاء.

إنهم يمارسون ـ بضراوة كضراوة الوحوش والسباع ـ شنائع وفظائع أغرب من الخيال، يشيب لهولها الولدان، وتتفطر لها القلوب، وتدع الحليم حيران، وتجعل الشيطان يصفق لها تصفيقا، ويرقص لها فرحا وطربا.

ثم يدعون أنهم مسلمون.... يا للعجب!

ألم تـــر أن حارثــــة بــــن بــــدر
يصــــلي وهــــو أكفــــر مــــن حمــــار

ويزعمون أنهم يريدون إقامة الخلافة الإسلامية في جميع أنحاء الأرض.

أهكذا تكون الخلافة الإسلامية......؟!

أهكذا كانت الخلافة الإسلامية في العصر الأول....؟!

إنها كانت خلافة أمن وسلام!

إنها كانت خلافة الرحمة والعدل والإنصاف، التي كان صاحبها ـ الخليفة ـ يخشى الله أن يسأله عن دابة لو عثرت في أقصى أنحاء حدود مملكته، لِم لم يمهد لها الأرض؟!

إنها ـ الخلافة ـ كانت كالدوحة العظيمة التي كان يستظل بظلالها الوارفة المسلم وغير المسلم، بل غير المسلم ـ الذمي ـ كان يجد في حدودها من العدل والأمان مالا يجده اليوم المسيحي أو اليهودي في أمريكا أو إسرائيل أو غيرها من بلدان القوم.

والحقيقة أن هؤلاء ـ أصحاب داعش ـ يوفرون دليلا حيا ناطقا للأعداء، الذين يصفون الإسلام بأنه دين إرهاب!

وأخيراً.... إنهم تجاوزوا كل حد من العقل والعقلانية، وانحطوا إلى

آخر درجة من السفه والجهل ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ (التوبة : ٤٧) وكذبوا كذبة لم يكذبها أحد ـ قط ـ ممن له أدنى إلمام بحقيقة الإسلام ، ــ ولا يرى الحقيقة من تدنس قلبه ، ولا يرى الجمال من عبست نفسه ..

إنهم زعموا ـ ولبئس ما زعموا ـ شلت ألسنتهم ــ أن الإسلام دين حرب وإرهاب لا دين أمن وسلام !

مثل هذا كمن يدعي أن الشمس والقمر لا تنشران الضياء والنور ، بل تذيعان الظلام ، أو كمن يسمي النهار ليلا ، والليل نهارا ، فعلى عقل من يدعي مثل ذلك السلام !

لو كذب هذه الكذبة الكبرى غير مسلم ، لما تعجبنا أو تألمنا ، ولكن كذبها من يدعي الإسلام ويحلم بالخلافة الإسلامية.

لمثل هذا يذوب القلب من كمد
إن كان في القلب إسلام وإيمان

لا نملك إلا الاسترجاع والاسترحام كما قال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه).

حقا... ما ضر الإسلام كأهله...

أعني ما ضر الإسلام كما ضره من يدعيه ، أو من يتستر بزيه ، فإن المسلم الحقيقي لا يُتصور ولا يمكن أن يصيب منه الضررُ الإسلامَ ، فبدءا من المنافقين في عصر النبوة ، ومروراً بعبد الله بن سبأ ، ثم الخوارج والقرامطة وغيرها من الطوائف والفرق المنحرفة عن المنهج المستقيم.... إلى الطابور الخامس الذين لم يخل منهم أي عصر من عصور التاريخ الإسلامي ، وكانوا عيوناً للأعداء ، وسببا خفيا ــ غير مباشر ــ لسقوط

العديد من الإمبراطوريات والحكومات الإسلامية ذات شأن وخطر، وانتهاء بهذه الفتنة الجديدة والداهية الدهياء ــ التي نحن بصددها ــ.... كل هذه الفتن والفرق تدعي أنها إسلامية! ولكنها ضرت ــ أو تضر ــ الإسلام والأمة ضررا لا يحتاج إلى بيان!

يا أصحاب داعش! لقد أثبتم بأعمالكم الدموية المنكرة أنكم أناس يجري في عروقهم دم فرعون وجنكيز وهولاكو وهتلر والحجاج والخراساني، وأنكم لستم ورثة عن أولئك الفاتحين الذين قال عنهم المنصفون من الأجانب: "ما عرف التاريخ أعدل ولا أرحم من العرب أي من المسلمين".

إنكم تدمرون الشام والعراق كالتتار...!

ولكن عملكم أشنع وأفظع...! لأن التتار لم يكونوا من ملة الإسلام، أما أنتم فتقومون بما تقومون به ـ من التدمير بشتى أنواعه ـ باسم الإسلام.

بل لقد أثبتم أنكم شر من إمامكم الحجاج الذي أنتم من ورثته، فالحجاج ـ كما هو معروف ـ ظلم كثيرا، وقسا كثيرا، وكانت له هنات غير هينات، ولكنه هو الذي أبقى لنا العراقين، وأنتم تدمرون العراق والشام، وفتح لنا المشرق والسند، فبعث المهلب العظيم، حتى أطفأ نار الحرب الأهلية التي أضرمها الخوارج، وأرسل قتيبة العظيم حتى فتح سمرقند وبخارى وتركستان وأوفد ابن عمه محمدا العظيم حتى فتح السند، وقال عنه الشاعر:

إن السماحة والمروءة والندى
لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة
يا قرب ذلك سؤددا من مولد

أما أنتم يا رجال داعش ! فتحتلون المدن، وتشردون أهلها، وتفجرون المساجد، وتسفكون الدماء البريئة، وتدمرون المعالم والآثار، ولعلكم ما خلقكم ربكم إلا للإضرار والإفساد والتدمير والتخريب.

إنكم تمارسون من أسوأ وأشنع أنواع الظلم التي ربما لم تخطر لأظلم الظالمين على بال، حتى إن الإنسان لا يكاد يصدق ما يقرأ ويشاهد بعض جرائمكم عبر وسائل الإعلام:

ويا هول ذلك من مرأى شهدت وقد
وددت لو كنت أعمى لا أشاهد

اعلموا ـ يا من تزعمون ـ زورا ـ أن دولتكم إسلامية ـ أن دولة الظلم ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة، وليس للجائر جار، ولا تعمر له دار، وعلى الباغي تدور الدوائر، ودولة الطغيان إلى انهيار، والحكم لله الواحد القهار، والعاقبة للمتقين الأبرار، والظالمون مصيرهم إلى النار. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧).

فيا من جعلتم الظلم شعاركم ودثاركم، حتى ضُربتم به مثلا، (فكلمة "داعش" صارت مرادفة للظلم والهمجية والبربرية) لن يغفر لكم الله ولا التاريخ ولا الأمة... إذا أصررتم على أعمالكم، وتماديتم في غيكم:

فويل ثم ويل ثم ويل
لقاضي الأرض من قاضي السماء

وإذا صدقنا الإعلام فإن "داعش" نبتة إسرائيلية خالصة، تعهدتها الصهيونية الحاقدة بالسقي والري، حتى أصبحت شجرة خبيثة تثمر ثماراً مرة ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ (إبراهيم: ٢٦).

فنحن لا نذيع سرا ولا نكشف مستورا حينما نسجل أن قادة "داعش" دربهم الجيش الإسرائيلي على استخدام الأسلحة الفتاكة.

كما أفادتنا وسائل الإعلام المختلفة أن القادة البارزين من داعش إذا أصيبوا بالجروح الخطيرة أو الأمراض المزمنة التي تستعصي على العلاج في المستشفيات العادية تم نقلهم إلى المستشفيات الإسرائيلية الراقية ليتلقوا أحسن علاج.

فالذين يدرَبون على أيدي أعدى أعداء الأمة بالنص القرآني الكريم، على أيدي أحفاد الذين جعل الله منهم القردة والخنازير... هل يرجى منهم خير للإسلام أو للأمة يا تُرى...؟!

فالحيات والثعابين لا تلد إلا الحيات والثعابين، لا الشياه والخراف!

وشجرة الحنظل لا تثمر إلا الصاب والعلقم! وكل أناء يترشح بما فيه. ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ (الأعراف: ٥٨).

وهل تدرب إسرائيل إلا على الهدم والتخريب!

وهل تخرّج أناسا يكونون مؤهلين للقيام بأعباء الخلافة الإسلامية؟ أم أناسا يحطمون كل أمل، ويقضون على كل جهد يبذل لإحياء الخلافة، وينشرون الخوف والرعب في الأرض، كما يفعل أهل داعش!

فكيف نتوقع ممن دربوا في إسرائيل الخير لأمتنا، وفعلا ــ إنهم ــ المدربون من أصحاب داعش ـ أصبحوا فتنة ومصيبة للأمة.

هذا من البدهيات التي لا يشك فيها عاقل!

ألا.... إن "داعش" نشاز في المنظومة الإسلامية، ونغمة شاذة غير منسجمة مع اللحن الإسلامي الرباني الطاهر العفيف، وغير متلائمة مع الذوق المحمدي الرفيع، ودعوة غير طبيعية لا علاقة لها بالسماحة الإسلامية، وروح التبشير والتيسير الإسلامية، وطبيعة اللين والرفق الإسلامية.

ألا... لا يقوم بأعباء الخلافة الإسلامية المباركة إلا عباد الله الصالحون المتقون الملائكيون في ميولهم وطهارتهم وسمو نفوسهم ونبل سلوكهم، لا الأشرار الأوغاد الأوباش، سفاكو الدماء، قتلة الأبرياء، منتهكو أعراض النساء، مفجرو المساجد، مدمرو المعابد، القاضون على مباهج الحياة ومسار العيش، واستقرار الحياة وهدوئها، جالبو الكوارث والمآسي للأمة من أمثال طغاة داعش الدمويين.

إن الله سبحانه تعالى لم يَعِدِ المفسدين الظالمين الجبارين بالاستخلاف والتمكين في الأرض، وإنما: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ (النور: ٥٦) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥)

إن ضحايا هذه الفتنة ـ لحد الآن ـ كانوا سكان العراق والشام، وأخيرا تجاوز شررها وامتد لهبها وعدوانها الآثم إلى المملكة العربية السعودية: أقدس وآمن وأسلم بلد من مثل هذه المعكرات والمكدرات التي يعيشها الكثير من بلدان العالم، فعاثت فيها الفساد، وأراقت الدماء البريئة ونشرت الرعب والخوف بين مواطنيها الطيبين المسالمين.

وهذا لم تفعله داعش فجأة، بل كانت هددت بذلك مسبقا، فنفذت ما هددت... ويا هول ما نفذت... وستنال جزاء ما نفّذت واقترفت!

فلتتفق كلمة الأمة ـ قادة وشعوباً، حكاما ومحكومين ـ على التصدي لهذه الفتنة العمياء، قبل أن يفلت الزمام من يدها:

إذا لم يكن إلا الأسنّة مركبا
فما حيلة المضطر إلا ركوبها

ومن لم تقنعه قوة المنطق أقنعه منطق القوة، ومن لم يسمعه صرير الأقلام أسمعه صليل السيوف!

ألا.... إن ضحايا داعش ينادون بالنجدة... فهل من مجيب؟!

ويستغيثون... فهل من مغيث..؟!

بـــني الجزيــــرة والأنســـاب جامعــــة

والحـــازم الشـــهم يلقـــي الـــدهر يقظانـــا

يقول الضحايا على لسان الشاعر: أما سمعتم وأنتم إخوتنا في الدين وفي العروبة، بما نقاسيه، فكيف تقعدون عن نصرتنا؟ كيف تنامون على سرر النعيم، ونحن نتقلب على جمر الغضى؟ كيف تقِرون أسماعكم أصوات بلابل المغنين وعنادل المغنيات، ونحن لا نسمع إلا أصوات البارود يتفجر، والدور تتهدم، والأيامى يصرخن، ولا من مجيب، واليتامى يبكون، ولا من سامع[1].

أيـــن الحميـــة، بـــل أيـــن العروبـــة، هـــل

غــــاض الوفــــاء وآض الــــود هجرانـــــا

نعم! يجب كبح جماح هذه الفتنة، وخطمها بخطام الجد والحزم والعزم، وتحرير أرض العراق والشام وتطهيرها منها، قبل أن يستفحل خطرها ويعظم شرها، وتستعصي على المقاومة، ويعيي علاجها ساسة الأمة وقادتها ويصل شررها إلى بلاد أخرى فتحرقها كما أحرقت المناطق التي اكتوت بنارها.

---

[1] شرح البيت مأخوذ من ذكريات على الطنطاوي ١/٢٣٧.

في ظلال الشرف

ليس بحي من وقف موقفاً لا يوثق منه بعهد ولا عقد

وإذا أخــذت العهــد أمــراً أو أعطيتــه

فجميــــع عهـــدك ذمـــة ووفـــاء

الشرف – كما جاء في تعريفه -: "أن يحافظ الطفل والرجل والمرأة على الكلمة تصدر منهم، كأنها (عقد)"، سواء في ذلك اللسان أو التوقيع بالقلم، والفرق بينهما أن التوقيع على العقد يلزم به القانون، والنطق بالكلمة يلزم به الشرف.

فالشرف يجمعه كلمة واحدة، هي أن يحافظ الإنسان على الكلمة تصدر منه، وواجب عليه أن يعمل بمقتضاها على الرغم من كل شيئ.

والإسلام أكثر الأديان حثاً على الوفاء بالعهد، ﴿وأوفوا بالعهد، إن العهد كان مسئولاً﴾[1].

وعد إخلاف الوعد من علامات النفاق: "وإذا وعد أخلف".

والعرب إذا سميناها: "أمة الشرف" ما بالغنا، فهي – العرب – أكثر من يعتز – من الأمم والشعوب – بالشرف، وأحرصها على الالتزام بمبادئه ومتطلباته، ولها في هذا الباب – باب الشرف – عجائب ونوادر، قلّ – بل ندر – أن تجد لها أمثالاً أو نظائر لدى أي أمة أو شعب.

---

[1] سورة الإسراء، الآية: ٣٤.

فكانت العرب تسترخص الموت وتستهين به بل وتستعذبه في سبيل الحفاظ على الشرف، فكان الشرف إيمانها ودينها وعقيدتها ومبدأها الثابت الذي لا يتزلزل، فلا تتنازل عنه شبراً أو قيد أنملة، ولا ترضى عنه بديلاً، ولا تخلف له قولاً أو عملاً، مهما كان الثمن، ومهما كانت النتيجة والعواقب، ومهما هبت العواصف الهوجاء، ومهما طغت الموجات العاتية، فالشرف فوق كل شيئ.

وبالعكس فمن كان منهم يخل بالشرف أو يتهاون فيه ويقصر في القيام بمتطلباته سقط عن الأعين، ولم تعد له أي كرامة في المجتمع، واحتقره الناس، ولم يثقوا به مهما وثق قوله بالأيمان الغلاظ، والتأكيدات الجسام، فمن سقط عن الأعين صعب قيامه، وعاش ساقط الاعتبار، مفقود الكرامة، منكس الرأس، خافض الطرف، خجلاً حذراً مهيناً ذليلاً فاراً عن مواجهة الناس وغشيان المجالس، وصار "نشازاً" في من حوله، بل عُدّ من "غير الأحياء" وإن كان ذلك من العظماء، كما يدل على ذلك ما حدث في القرن الأول الهجري، وقد ذكرته كتب التاريخ والأدب، وهو حسبما يلي:

كان عمرو بن سعيد بن العاص — الملقب بالأشدق — رجلاً من رجالات الدولة الأموية، عرف بالقوة والعظمة والفصاحة والسخاء، وولّى المدينة ليزيد بن معاوية، فلما ضعفت الدولة بعد معاوية بن يزيد بن معاوية، وكاد الأمر يخرج من البيت الأموي، كان عمرو الأشدق هذا أجد الناس في تولية خاله مروان، وأحسنهم معاونة ومكاتفة له، واجتهاداً في صلاح أمره وإفساد أمر ابن الزبير، قاتل مع مروان يوم مرج راهط، ولما

وجه ابن الزبير أخاه مصعباً للاستيلاء على فلسطين وجه مروان عمرو هذا على رأس جيش، فهزم مصعباً وجيشه ورده إلى المدينة.

وكان عمرو قوياً بسخائه وبذله الأموال الكثيرة على أعوانه، فأحبه جنده وأطاعوه، وعملوا بإشارته حتى كان قوة لا يستهان بها.

فهو عزيز في نسبه، عزيز في جنده، عظيم في نفسه، قوي في رأيه.

شعر مروان بذلك كله فمناه بالخلافة من بعده استدعاء لطاعته واحتياجاً لنصيحته.

فلما استمكن الأمر لمروان ودانت له الأقطار، ونظر إلى ابنيه عبد الملك وعبد العزيز فأعجباه، وعز عليه أن يخرج الملك عنهما، فنسي عهده لعمرو، وعهد بالملك من بعده لعبد الملك ثم من بعده لعبد العزيز.

وترك عمرو يتجرع الغصص وينتهز الفرص، وهو هو القوي الداهية يصف نفسه فيقول: "والله ما أنا بحلو المذاق، وإني لقمن المضرة، ولقد ضرستني الأمور، وجرستني الدهور، فزعا مرة وأمنا مرة، وإن قريشا لتعلم أني ساكن الليل داهية النهار، لا أتبع الظلال، ولا أقمص حاجتي، ولا يستنكر شبهى، ولا أدعي لغير أبي".

وقيل له مرة: إلى من أوصى بك أبوك؟ فقال: إن أبي أوصى إليّ ولم يوص بي".

مات مروان ونفذت البيعة، فتولى عبد الملك بن مروان.

وثارت الفتن على عبد الملك، فمصعب في العراق، وعبد الله بن الزبير في مكة، وسائر الأقطار في فتنة، والدولة محتاجة إلى الأنصار أمثال عمرو بن سعيد، فتقدم عمرو إلى عبد الملك وقال: إنك لتعلم ما قدمت

لأبيك من معونة، وما قمت بشأنه، وما حاربت معه، وما وعدني أن يجعل لي الأمر بعده، فرد عليه عبد الملك في جفاء وأنكر عليه مطلبه.

فانتهز عمرو خروج عبد الملك إلى العراق وخرج إلى دمشق واستولى عليها، وأعلن الخلافة لنفسه، وأجابه أهل دمشق وبايعوه، وحصّن المدينة واستعد للقتال، فما بلغ ذلك عبد الملك أهمه الأمر أكثر مما أهمه مصعب وعبد الله ابنا الزبير، وقفل إلى دمشق فوجدها مغلقة الأبواب مستعدة للقتال، فخاف عبد الملك أن يضيع قوته في قتال عمرو فراسله ومنّاه، وضمن له أن يوليه بيت المال، ويجعل له ولاية الأمر من بعده مقدماً على أخيه عبد العزيز، فأبى عمرو إلا أن تكون هذ الشروط كلها مكتوبة، فكتب له عهداً ووثقه ووقعه، فقبل عمرو وفتح له دمشق، فدخلها عبد الملك ونزل دار الخلافة، وكان عمرو يركب إليه فيكرمه عبد الملك حتى سكن إليه.

فلما أمكنته الفرصة بعث يوماً لعمرو فخرج إليه في ركبه، وكان عبد الملك أوصى إذا دخل عمرو أن توصد الأبواب دون من معه ففعلوا، حتى إذا اطمأن عمرو في جلسته تقدم حارس فأخذ منه سيفه، فقال عمرو: أيؤخذ سيفي؟ فضحك عبد الملك وقال: أتطمع أن تقعد معي بسيف بعد الذي كان منك؟ ثم قال عبد الملك: إني كنت أعطيت الله عهداً إن ملأت عيني منك مستمكناً أن أجمع يديك إلى عنقك ثم أثقلك حديداً، وأمر بجامعة وقيد – أعدا له -فصيرهما في عنقه ورجليه، فلما أحس الشر ناشده الله والرحم، فقال عبد الملك: إني لو علمت أنك تبقى ويصلح لي ملكي لفديتك بدم النواظر، والله ما اجتمع فحلان في هجمة[1] إلا قتل

---

[1] الهجمة: جماعة من الإبل فوق الأربعين.

أحدهما صاحبه، ثم أمر به فقتل ورمي رأسه إلى جند عمرو، ورمي معه ببدر الدنانير فتركوا الرأس واشتغلوا بجمع الدنانير.

وكانت أخت عمرو زوجة للوليد بن عبد الملك فخرجت حاسرة تقول:

غدرتم بعمرو يا بني خيط باطل
وكلكم يبني البيوت على غدر
وما كان عمرو عاجزاً غير أنه
أتته المنايا بغتة وهو لا يدري
كأن بني مروان إذ يقتلونه
بغاث من الطير اجتمعن على صقر
لحى الله دنيا تعقب الذل أهلها
وتهتك ما بين القرابة من ستر

سقنا هذا الحديث لندل على درة من درر الأدب العربي، ذلك أن عبد الملك استشار أصحابه فيما فعل، فأما المنافقون — وهم كثيرون — فأطروا عمله، ولكنه سأل رجلاً كان يستشيره ويصدر عن رأيه إذا ضاق عليه الأمر، فقال له: ما ترى ما كان من فعلي بعمرو بن سعيد؟

الرجل: أمر قد فات دركه.

عبد الملك: لتقولنّ.

الرجل: حزم لو قتلته وحييت.

عبد الملك: أو لست بحي؟

الرجل: هيهات! ليس بحي من وقف نفسه موقفاً لا يوثق منه بعهد ولا عقد.

عبد الملك: كلام لو تقدم سماعه فعلي لأمسكت.

ليت هذا الكلام الناصح الأمين يصل إلى مسامع كبار الساسة ممن يقطعون على الحريات الأربع وميثاق الأطلنطي وضمان مصير الأمم الصغيرة لتحكم نفسها وتدبر أمرها ثم ينسون عهدهم ويخلفون وعدهم.

لقد أصبح عبد الملك بعد هذه الفعلة لا يوثق له بعهد ولا يطمأن له في قول، مهما وثقه وأكده بالأيمان، وهذا مصير كل ناكث، ورحم الله الناصح إذ يقول: "ليس بحي من وقف موقفاً لا يوثق منه بعهد ولا عقد، ورحم الله أخت عمرو إذ تقول:

لحى الله دنيا تعقب الذل أهلها
وتهتك ما بين القرابة من ستر[1]

والسلام على الصادقين الأوفياء، وأصحاب الضمائر والشرف الأمناء.

---

[1] حديث عمرو مأخوذ – بتعديل – من "فيض الخاطر" لأحمد أمين.

حادثا الموسم
قدران مقدوران من أقدار الرحمن

كل شيء بقضاء وقدر والمنايا عبر أيّ عبر

إن حادث سقوط الرافعة في الحرم، وحادث التدافع بمنى في موسم حج هذا العام (١٤٣٦هـ) هزا وجدان الأمة على بكرة أبيها في مشارق الأرض ومغاربها، وبعث في نفوس أبنائها أشجان العزاء، ومشاعر الحزن والأسى، فجعلا عيونهم تتفجر دموعاً، وقلوبهم تتفطر شجوناً وأحزاناً، وتركا فيهم آثاراً لا تمحي بين عشية أو ضحاها، بل تبقى محزنة مؤلمة إلى مدة طويلة، وتتجدد كلما ذكرا خاصة في أيام الموسم!

المـــــآقي في الخطـــــوب بكــــــاء
والمآســـي علـــى الخـــدود ظمـــاء
وشــــفاه الأيـــام تلـــثم وجهـــاً
نحتتــــــه الرعـــــود والأنـــــواء

ولكن لا ندري والله! أنعزي في الحادثين أم نهنئ؟

وإذا عزينا فمن نعزي؟ وكيف نعزي؟ أفنعزي ذوي شهداء الحرم يا ترى؟ أولئك السعداء الذين أراد الله بهم خيراً، فجعل ميتتهم ميتة حسنة مغبوطة، فقد لقوا ربهم وهم يعبدونه في بيته المحرم.

لقد حظوا بشرف الزمان والمكان معاً، وما أسعده من حظ!

فالزمان: أفضل الساعة من يوم الجمعة، من شهر يعدّ أحد الأشهر الحرم، أما المكان: فهو أفضل مكان على الإطلاق على وجه البسيطة وأشرف بقعة تحت أديم السماء، وأطهر منطقة خلقها الله – مما خلق – على هذا الكوكب الأرضي، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

فالذي يموت في ظل الكعبة المشرفة أو على غلوة منه – بل أقل منها – وفي جنبات الحرم ذاكراً عابداً أو ساعياً بين الصفا والمروة، حديثَ عهد بالطواف حول الكعبة.

هل يُشك في حسن خاتمته؟؟

لا والله! فكل القرائن تدلّ على حسن خاتمة من قضى نحبه وهو في هذا الوضع الطيب زماناً ومكاناً وكيفية......

فوالله! إنها لميتة شريفة مغبوطة (والله أعلم بالحقيقة) ميتة يتمناها كل مسلم.

يتمنى كل مسلم أن تكون ميتته حسنة، فهل هناك ميتة أحسن من هذه الميتة؟

الرافعة سقطت ..... وأرواح ارتفعت إلى بارئها من بيته الأطهر!

حادث حدث في الأرض .... وأناس صعدوا إلى السماء وسعدوا وشرفوا!

كارثة وقعت...... وسعداء نالوا درجة الشهادة التي هي أشرف أنواع الموت!

---

[1] سورة آل عمران، آية: ٩٦.

ملمة ألمت..... ورجال فازوا بإحدى الحسنيين.

والحقيقة أن موت من ماتوا في حادث الحرم حياة لهم.... إنهم وإن عدوا من الموتى عند الخلق، ولكنهم – إن شاء الله – أحياء عند ربهم!

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1].

فكل ما وقع وحدث، ما حدث ولا وقع إلا بقضاء الله وقدره! ونحن راضون بقضائه وقدره، فأقدار ربنا قد تنزل علينا تأديباً أو إرشاداً أو تهويلاً، لا حطماً أو محقاً.......

وهذا جزء من إيماننا بالله، فالإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره من عقيدتنا، فالانتقائية بالإيمان بالقضاء والقدر ليست مقبولة، بل إنها مرفوضة رفضاً باتاً، وهي أن نرضى عندما يكون القضاء حسب رغباتنا، ونسخط إذا صادم مرادنا، فهذا ليس من شأن العبودية الخالصة.

فهل يُعزّى أهل الذين فازوا بهذه المرتبة العظيمة أم يهنؤون.... يا ترى.... ؟

وليس معنى ذلك أن موت هؤلاء ما أحزننا، لا والله! بل عبرنا عن عميق شعورنا بالمصاب في مطلع المقال، كذلك ليس معنى ذلك أن الذين فقدوا أقرباءهم أو أصدقاءهم في الحادث، عليهم أن لا يحزنوا ولا يستحقون العزاء، فالإنسان يحزن لفقد من كانت له به صلة القرابة، أو الأخوة أو المودة، حتى وإن لم تكن له صلة سوى صلة الإنسانية فحسب... يحزن! فالحزن شيء طبيعي جبل عليه الإنسان (بل الحيوان أيضاً).

---

[1] سورة آل عمران، آية: ١٦٩.

والرسول صلى الله عليه وسلم نفسه كان يحزن ويتألم لفقد من كان عزيزاً عليه وحبيباً إليه، فقد حزن صلى الله عليه وسلم لفقد ابنه إبراهيم، فقال: "إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، وإنا بفراقك لمحزونون يا إبراهيم! ولا نقول إلا ما يرضي ربنا".

والحزن يتضاعف حينما يكون الموت غير طبيعي، أو فجأة، كالذي نحن بصدده الآن.

ولكن الشيء الذي نريد أن نقول: إن الذي يعزي.... ويسلي..... ويخفف وطأة .... الحزن ووقع الصدمة، وأثر المصاب ولوعة المصيبة، ومرارة المأساة هو ما ينتظر الفقيد، إذا كان موته كموت من مات في حادث الحرم، مما وعد الله لعباده الصالحين من المثوبة الحسنى والمغفرة والرضوان.

فهذه الميتة التي تشرف بها من ماتوا في الحرم ميتة مبشِّرة (بكسر الشين) ومشرَفة (بفتح الراء) مبشرة بالرحمة والمغفرة، ومشرفة بشرف الزمان والمكان وقَداستهما وطهرهما وحرمتهما، التي لا يشك فيها مسلم.

وقس على ذلك أولئك الذين ماتوا وهم يرمون الشيطان الرجيم الذي لا يخزى في يوم أعظم منه.

فهم — ضحايا حادث التدافع في منى — ماتوا بعد ما وقفوا بعرفات — أعظم ركن للحج — ويكونون قد تابوا فيه من معاصيهم، واستغفروا ربهم، فطهروا، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وعادوا كيوم ولدتهم أمهاتهم، ثم باتوا بمزدلفة — في أفضل ليلة — عابدين خاشعين متضرعين إلى خالقهم بالدعاء والمناجاة، يطلبون فيها المغفرة من ربهم، ويسألونه رضوانه.

ثـم أصـبحوا وصـلوا وعـادوا مسـبحين ملـبين، إلى منـى، يرمـون الشـيطان بالحصـى، اقتـداء بسـنة أبـيهم إبـراهيم عليـه وعلـى نبينـا الصـلاة والسلام، فاستقبلهم الموت هناك، وهم طـاهرون مـن ذنـوبهم، مغفـورين لهم - إن شاء الله - من ربهم.

وهنا – أيضاً – لا نقول إلا ما يرضى ربنا، فلم يكن – هناك – أي خلل أو تقصير في الإجراءات الأمنية الحكومية أو النظام البوليسي لضبط المرور.

فـالإجراءات الحازمـة الصـارمة الجـادة الـتي تتخـذها الحكومـة السعودية، لتيسير أمور ضيوف الرحمـان، والخدمات الجبـارة المثاليـة الـتي تقدمها لإراحتهم تفوق التصور والخيال، وهي فوق كل شبهة أو ظن ظان.

إنها – الخدمات التي تقدم فعلاً وواقعاً معاشاً يلمسه ويستفيد به كـل من يسعد بالحج والزيارة -أقصى وأفضل ما يمكن أن تقـدم، وأسمـى مـا يمكن أن يصل إليه الخيال، والحكومة السعودية تجند كافة إمكانياتهـا الماديـة والبشرية – على أساس الطوارئ – لخدمة ضـيوف الرحمـان، وذلـك كلـه في غاية من الأريحية وعن طواعية ورضى بأداء واجب عظيم، وعن شعور بشرف عمل مقدس شرفهم الله وفضلهم به علـى غيرهـم، وبيـت القصـيد في ذلـك أن خـادم الحـرمين الشـريفين يشـرف – بنفسـه – شخصـيا إشـرافاً مباشـراً – لحظـة بلحظـة - علـى هـذه الخـدمات والأعمـال والإجـراءات وأدوات الإراحة والإسعاد والخدمة للحجاج.

وحق للإخوة السعوديين الكرام أن يقولوا:

جفاننـــا لضـــيوف الـــرحمن أجفـــان[1]

---

[1] هنا جرى التعديل، فالأصل: جفاننا لضيوف الدار أجفان.

أما نسبة الحادث إلى نقص أو خلل في الإجراءات أو تقصير رجال المرور في أداء واجبهم، فهذا لا يمت إلى الصواب بصلة ما، ورب ملوم لا ذنب له.

ونقول عن هؤلاء اللائمين المساكين ما قال المتنبي عن أمثالهم:

ومـــن يـــك ذا فـــم مـــرّ مـــريض
يجـــد مـــرا بـــه المـــاء الـــزلالا

أو كما قال شاعر آخر:

والـــذي نفســـه بغـــير جمـــال
لا يـــرى في الوجـــود شـــيئاً جمـــيلاً

فهؤلاء مسيّسوا الحادث الذين يتحينون الفرصة للنيل من الحكومة السعودية، لمرض وخبث في طويتهم — فاقدو البصيرة والبصارة معاً!

ولكن لا يضر الشمس نباح الكلاب، أو إذا أنكرها أحد في رابعة النهار.

ولـــيس يصـــح في الأذهـــان شـــيء
إذا احتـــاج النهـــار إلى دليـــل

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لو كان المرء أقوم من قدح لوُجد له غامزاً.

إنهم - مسيّسوا الحادث - خفافيش الظلام، وعملاء الباطل، ومثيرو البلابل والقلاقل، ومبيّتو المؤامرات لإضعاف الأمة ونخرها من الداخل.

إنهم — دائما — في اتجاه معاكس مضاد للأمة، فيسرهم ما يبكي الأمة، ويسعدهم ما يشقيها، ويقلقهم ما يسرها، ويسوءهم ما يسعدها، ولعلهم هم وراء ما حدث بمنى، فـ (كاد المريب أن يقول خذوني)،

و(دلت على أهلها براقش) (وشهد شاهد من أهلها)، بل قد ثبت – فيما بعد – ضلوعهم في الحادث، وتبييتهم له بدقة وإحكام عبر شهادات واعترافات موثقة لا ترتقي إليها الشبهة. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[١].

وأخيراً ندعو الله سبحانه وتعالى أن يعامل الذين توفوا في الحادثين المؤلمين معاملة الشهداء، ويبؤهم جناته العلى، ويحسن عزاء ذويهم، ويجمل صبرهم، ويجزل أجرهم، ويحفظ المسلمين عموماً، والحجاج خصوصاً من مثل هذه الكوارث والمآسي والبلايا والمحن، ويجزي الحكومة السعودية وأولي أمرها جزاء يساوي خدماتهم ومآثرهم، ويصونهم من الفتن، وينصرهم على أعدائهم، ويثبتهم على الحق، ويعلي بهم كلمته[٢].

---

[١] سورة الشعراء، آية: ٢٢٧.

[٢] كتب هذا المقال بعد حادث التدافع بيومين.

من وحي الشريعة الأدبية:
كيف نحصل على ملكة البيان العربي؟

[أصل هذه الكلمة بحث قدم في المؤتمر الدولي – ١٦ -١٧/ أبريل ٢٠١٧م – الذي نظمه – ضمن برنامج شهر اللغة العربية في الهند – مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية – بالتعاون مع الملحقية الثقافية السعودية بالهند والجامعة الملية الإسلامية واتحاد أساتذة وعلماء اللغة العربية في الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي، الهند، وقد رأس الجلسة الافتتاحية للمؤتمر معالي الدكتور طلعت أحمد مدير الجامعة الملية الإسلامية، كما كان ضيف الشرف فيها سعادة الأستاذ الدكتور سعود بن محمد الساطي سفير خادم الحرمين الشريفين في الهند، كما حضرها الدكتور عبد الله صالح الوشمي أمين عام المركز، هذا، ويسر الكاتب أن ينشر الكلمة في هذه المجموعة بعد ما تناولها بشيئ من التعديل والتنقيح وزيادات لا بأس بها، لتكون أكثر نفعاً وشمولاً لمناحي الموضوع بتوفيق الله تعالى].

نحمد الله تعالى الذي شَرَّف العربية وعظَّمها، ورفع خطَرها وكرّمها، وقَيَّض لها - في كل زمان ومكان - حفظة وخزنةً من خواص الناس وأعيان الفضل وأنجم الأرض، ونصلي ونسلم على النبي العربي الهاشمي القرشي، أبلغُ وأفصح من نطق من العرب والعجم، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد. فاللغة العربية سياج هويتنا، ورمز حضارتنا، وقلبها النابض، وقد استطاعت بفضل ما لها من خصائص البقاء، التي تستمدها من كونها لغة القرآن الكريم، وحاملةَ رسالة الإسلام، أن تستوعب كل ما أفرزته الحضارات الأخرى في مجالات الحياة كافة، وتصوغها وفق منظور إسلامي خالص.

من خصائص اللغة العربية أنها لغة عبقرية شريفة فذة صاحبة الحسن والجمال، والسحر والبيان، فلَم تحظ لغةٌ في التاريخ البشري بمثل ما حظيت به العربية من "الحُسن" الذي يعجز عن وصفه الشعراء، فهي سر الحُسْن، ولغةُ الفنِّ الرائق، ومن هنا.. قال الجاحظ "نحن قوم نَسحَر بالبيان ونموه بالقول" وقال الشاعر العربي:

يا ابنة السابقينَ من قحطانِ
وتراثَ الأمجاد من عدنانِ
أنتِ علَّمْتِني البيانَ فمالي
كلما لُحتِ حار فيكِ بياني
رُبّ حُسْنٍ يعوق عن وصفِ حُسْنِ
وجَمالٍ يُنسي جمالَ المعاني

يا ابنـةَ الضـاد أنـتِ سـرٌّ مـن الحُسْـنِ
تجلـىّ علـى بـني الإنسـان
لغـة الفـن أنـتِ والسـرِ والشـعرِ
ونـورُ الحجـى ووحـيُ الجَنـان

هذه هي "لغة الضاد" أم اللغات، وأصل كل اللهجات التي عرفتها الدنيا بأسرها، والتي أمدت الأدباءَ والكتاب بوابل صيّب من البيان الأدبي الذي لم تشهد له مثيلا:

لله در لسـان كلـه أدبُ
بفضـله يتحلـى العجـم والعـربُ

وهي ـ العربية ـ ذاتُ موقع متميّز بين لغات البشر، فهي اللغة السادسة من بين ١٦٠ (مائة وستين) من اللغات الأم في العالم، وَفقا لبعض الدراسات التي أجرتها منظمةُ "اليونسكو" ونُشرت نتائجها في مختلف وسائل الإعلام العالمية.

كما أنها ـ العربية ـ اللغة الأم لنحو مأتي مليون عربي، واللغة المقدسة لما يربو على ألف وربع مليون مسلم.

ومما لا شك فيه أن نزول القرآن الكريم بهذه اللغة العظيمة أعطاها سرّ الحياة وروحَ الخلود، فجاء القرآن الكريم ليضع التاجَ النبيل على رأس هذه اللغة الكريمة التي تحمل كلمة الله، وروح محمد صلى الله عليه وسلم وسر الإسلام.

ومن هنا... يُعد تعلم العربية والوقوف على بيانها، ومعرفةُ مذاهب القول فيها من الفقه في الدّين، إذ لا سبيل إلى تدبر كتاب الله إلا بمعرفة

العربية، وعلى قدر عمق هذه المعرفة يكون العلم بأسرار القرآن، ومن ظن أنه قادر على فهم كتاب الله على وجهه الذي أراده الشارع، وإدراكِ مقاصده دون أن يعرف أساليب العرب ومذاهبها في القول، ووجوهَ تصرُّفِ اللغة، فقد فتح على نفسه نافذة ينفذُ منها كلُ زيغ، وتَلِجُ منها كلُ ضلالة.

عقد أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) في كتابه: "الخصائص" فصلاً خاصاً طلب فيه من علماء الشريعة أن يفهموا الألفاظ العربية واستعمالاتها، وأن يعرفوا مجازاتها، لأن الجهل بها يؤدي إلى ضلال بعيد، وضرب أمثلة للجهل باللغة الذي أوقع بعض المفسرين في الخطأ في تأويل بعض الآيات والأحاديث الشريفة، وقال أيضاً: وأكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها وحاد عن الطريقة المثلى إليها إنما استهواه واستخف حلمه ضعفُه في هذه اللغة الكريمة الشريفة[١].

المراد باللغة العربية

ينشأ هنا سؤال: ماذا نعني باللغة العربية حينما نتحدث عنها؟ فيقول علامُ أساتذة الأدب العربي في العصر الحديث الدكتور إبراهيم أبو الخشب:

"وحين نقول اللغة العربية، لا نعني بها النحو والصرف وعلوم البلاغة فقط، ولكننا نعني بها كل ما يقوّم اللسان ويهذب البيان، وينمي الذوق، ويصحح الفكر، ويسدد الرأي، ويعين على فصاحة المنطق، وإصابةِ وجه الحق والتزامِ الجادَّة، وفي مقدمتها كتابُ الله وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٢].

أول ما يجب لإتقان اللغة

إن مما يؤسف له أنه قد استقر في أذهان الناس من عامة معلمي

العربية وطلابها أن إتقان اللغة أو تعلمها لا يتم إلا بإتقان قواعدها: نحواً، وصرفاً، وبلاغة، مغفلين أثر السماع، ومكانَتَه في تحصيل اللغة، وصحتِها فهما واستعمالا ونطقا.

فإن أول مهارة لإتقان استخدام اللغة واستعمالها وتوظيفها حسنُ الاستماع والإنصات مع الحرص على وعي ما يقال وفهمِه، لأنه يقود إلى اسخراج الكلام المناسب، وبهذا قالت العرب: "أساء سمعا، فأساء إجابة" وقال ابن خلدون: "السماع أبو الملكات اللسانية"

فلو عني مدرس العربية بالقراءة الجهرية لأدى ذلك إلى سماع المتعلم اللغةَ سليمةً في أصواتها وأبنيتها وتراكيبها وصفات إلقائها الجيد، فتكون محاكاة السامع المتكلم لِما سمع، فتصح بذلك أصواتُه وأبنيتُه وتراكيبه، وتنمو عنده ملكةُ القراءة أو ملكةُ الإلقاء، ويُنمّي بذلك قدرتَه على الخطابة والحوار والحديث.

ولا يعني ذلك أننا نقلّل من شأن القواعد وأهميتها، ولكننا نطالب بأن يعطى السماعُ حقه من العناية، يقول ابن فارس: "تؤخذ اللغة اعتياداً كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرَهما، فهو يأخذ اللغة عنهم على مر الأوقات، وتؤخذ تَلَقُّناً من ملقن، وتؤخذ سماعا عن الرواة الثقات وذوي الصدق والأمانة".

أما قواعد اللغة العربية من النحو وغيره، فنرى منها الاقتصار على تدريس القواعد الأساسية العملية التي تتداولها الألسن، وهجرَ الغريب واللغات المنقرضة والآراء النحوية المندثرة، والبعدَ عن الأمور الفلسفية في النحو.

ولقد عني بهذه الفكرة كثير من أئمة اللغة والأدب أيام عزهما.

فذلك الجاحظ في إحدى رسائله يقول: (وأما النحو فلا تشغل قلب الصبي به إلا بمقدار ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، وعويصُ النحو لا يجدي في المعاملات ولا يضطر إليه في شيء).

وهذا ابن خلدون يقول: (النحو من العلوم الآلية التي ينبغي ألا ينظر فيها إلا من حيث هي وسيلة لغيره، ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرّع المسائل، يجب اهتمام المتعلمين بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها، فإذا قضوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد).

ما معنى البيان؟

ذهب الناس في معنى البيان مذاهب متشعبة واختلفوا في شأنه اختلافاً كثيراً، ولا أدري علام يختلفون وأين يذهبون؟ وهذا لفظه دال على معناه دلالة واضحة لا تشتبه وجوهها ولا تتشعب مسالكها؟

ليس البيان إلا الإبانة عن المعنى القائم في النفس، وتصويره في نظر القارئ أو مسمع السامع تصويراً صحيحاً لا يتجاوزه، ولا يقصر عنه، فإن علقت به آفة تينك الآفتين فهي العي والحصر.

جهل البيان قوم فظنوا أنه الاستكثار من غريب اللغة ونادر الأساليب، فأغصوا بها صدور كتابتهم، وحشوها في حلوقها حشوا يقبض أوداجها، ويحبس أنفاسها، فإذا قدر لك أن تقرأها، وكنت ممن وهبهم الله صدراً رحباً، وفؤاداً جلداً، وجناناً يحتمل ما حمل عليه من آفات الدهر وأرزائه، قرأت متناً مشوشاً من متون اللغة، أو كتاباً مضطرباً من كتب المترادفات.

وجهله آخرون فظنوا أنه الهذر في القول والتبسط في الحديث واقعاً ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع...، فلا يزالون يجترون بالكلمة اجترار الناقة بجرتها، ويتمطقون بها تمطق الشفاه بريقها، حتى تسف وتتبذل وحتى ما تكاد تسيغها الحلوق ولا تطرف عليها العيون، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً[٣].

لماذا أصيب البيان العربي بما أصيب به؟

أجاب عن هذا السؤال المهم أحد أساطين البيان العربي في العصر الحديث، سيد الكتاب الأستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي:

"ما أصيب البيان العربي بما أصيب به إلا من ناحية الجهل بأساليب اللغة، ولا أدري كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً عربياً قبل أن يطلع على أساليب العرب في أوصافهم ونعوتهم، وتصوراتهم وخيالاتهم، ومحاوراتهم ومساجلاتهم، وقبل أن يعرف كيف كانوا يعاقبون ويؤنبون، ويعظون وينصحون ويتغزلون وينسبون، ويستعطفون ويسترحمون، وبأي لغة يحاول أن يكتب ما يريد إن لم يستمد تلك الروح العربية استمداداً يملأ ما بين جانحتيه حتى يتدفق مع المداد من أنبوب يراعته على صفحات قرطاسه.

إني لأقرأ ما كتبه الجاحظ وابن المقفع والصاحب والصابي والهمذاني والخوارزمي وأمثالهم من كتاب العربية الأولى، ثم أقرأ ما خطه هؤلاء الكاتبون في هذه الصحف والأسفار، فأشعر بما يشعر به المتنقل دفعة واحدة من غرفة محكمة النوافذ، مسبلة الستور، إلى جوّ يسيل قرّاً وضرّاً، ويترقرق ثلجا وبرداً.

ذلك لأني أقرأ لغة لا هي بالعربية فأغتبط بها ولا هي بالعامّيّة فألهو بأحماضها ومجونها.

ثم ينصح المنفلوطي طالب البيان العربي بما يجب عليه للحصول على ملكة البيان العربي قائلاً :

"لا أرى لك يا طالب البيان العربي سبيلاً إليه إلا مزاولة المنشآت العربية منثورها ومنظومها ، والوقوف بها وقوف المتثبت المتفهم لا وقوف المتنزه المتفرّج ، فإن رأيت أنك قد شغفت بها وكلفت بمعاودتها والاختلاف إليها ، وأن قد لذ لك منها ما يلذ للعاشق من زورة الطيف في غرّة الظلام ، فاعلم أنك قد أخذت من البيان بنصيب ، فامض لشأنك ، ولا تلو على شيء مما وراءك ، تبلغ من طلبتك ما تريد"(٤).

الاهتمام بالسماع والحفظ والكتابة

من الطرق المعينة للحصول على البيان العربي : السماع.

فالسماع هو الطريق الفطري في اكتساب أيّ لغة ، وهذا لا يؤتي ثماره إلا إذا اختير المسموع بعناية ، من نصوص جيّدة بأداءٍ مُتقَن مع حفظ ما يستجاد من الشِّعر والنثر ، على أن يَعقُب السماعَ مرانٌ وتدريبٌ على القراءة الجهرية ، ومواقفِ الإلقاء والخطابة والحديث والحوار والتعبير والكتابة ، وتقويمِ اللسان سماعا وضبطا للنصوص ، وتنقيةً من الخطأ ومستكره القول ، قال ابن المقفع "إذا كثر تقليب اللسان رقت حواشيه ولانتْ عَذَبَتُه" ، وقال العتابي : "إذا حُبس اللسان عن الاستعمال اشتدت عليه مخارج الحروف" وقال الراجز :

كـــــأن فيـــــه لففـــــا إذا نطـــــقْ
مـــــن طـــــول تحبـــــيس وهَـــــمٍّ وأرقْ

فلا شك أن حصول ملكةِ البيان العربي بكثرة المحفوظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خَياله المنوالُ الذي نسجوا عليه تراكيبهم، فينسِج هو عليه، ويتنزلُ بذلك منزلةَ من نشأ معهم، وخالط عباراتهم في كلامهم، حتى حصلت له الملكة المستقرّة في التعبير عن المقاصد على نحو كلامهم.

وكذلك من الأمور المفيدة للمتعلم أن يكلف بكتابة "المذكرات اليومية" التي تدربه على كتابة كل ما يمرّ به من الأحداث والوقائع، أو يراه من المشاهد والمناظر، أو يتخيل من الأفكار والرؤى وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى من الأمور والأشياء.

أما فيما يتعلق بالمقررات العربية من المنهج القديم غير النافع في العصر الحاضر فقد وَضَح عقمُ الكثير منها وعدم جدواها، مثل مقامات الحريري، فهو ـ كما يرى الشيخ الندوي رحمه الله ـ: "مثال للنثر الفني والأدب الصناعي، ومثال لفن البيان والبديع لا النثر العربي الطبيعي، ولا يمكن أن يتعلم بها الطالب مبادئ اللغة العربية ويتدرب على الكتابة والخطابة، ويقضي حاجة في نفسه"[٥].

وقد أنكر الشيخ الندوي رحمه الله على الذين يحاكون أسلوب الحريري قائلا: "أصبح مايكتبه علماء الهند في العربية صورة واحدة (وهي صورة المقامات) لا جِدَّة فيها ولا طرافة وهيكلاً عظيما لا روح فيه ولا دم"[٦].

كما كان الشيخ لا يعجبه أن يكون "نفحة اليمن" من مقررات اللغة العربية: "لما فيه من خلل وخطل، مع سوء تمثيل للحضارة

الإسلامية وسيرة المسلمين السلف، وعبث بعقلية الأطفال الأبرياء بما فيه من مجون وهزْل"[٧].

وغنى عن القول إن المنهج الدراسي لتعليم اللغة العربية الذي وضعه أبناء ندوة العلماء ومقررٌ تدريسه فيها وفي كثير من المدارس الأخرى، لجدير بأن يحتذى ويطبق، فقد أثبت جدواه، وخرَّج فعلا الكثير من المتمكنين من العربية، القديرين عليها نطقا وخطابة وتأليفا وتصنيفا، وقد اعترف بفضلهم وتميزهم المتخصصون من أهل البلاد وغيرهم من فضلاء العرب، وهو ـ منهج الندوة ـ من أفضل المناهج الدراسية لتعليم اللغة العربية، فلتجربه المدارس والجامعات والأقسام العربية على أن الحاجة لاتزال قائمة إلى المزيد من التفكير والنظر والاهتمام بالمنهج الدراسي لتعليم العربية، الذي يحقق الغرض المطلوب، فالمناهج الدراسية لا بد أن تمرّ بمرحلة التطور والتغيير من الحَسَن إلى الأحسن وفق متطلبات العصر حتى تظل قادرة على الوفاء بتطلعاتنا وبحاجاتنا مع ضرورة انتقاء من يُرَشحون لتدريس اللغة العربية وتدريبهم وتأهيلهم لما يحقق أهداف تعليم اللغة، وتعهدِهم بمايترقى به أداؤهم ويزكو به عطاؤهم.

ولي – أخيراً – همسات مع صديقي معلم العربية ومدرسها – بصفة خاصة – وهي أنه لا يقدر على جنى الثمار إلا من نذر نفسه لطلابه، وأدرك أن حياته وقف لرسالته، وأيقن أن جهده نعيم، وبذله غنم، وشعاره – أبدَ الدهر – الحكمة الخالدة: (إن النفوس لتتعب من الراحة، فأريحوها بالعمل).

ولئن انحدر المدرس عن هذ المستوى، ولاسيما مدرس العقيدة

ولغتِها، زاغت العقيدة، وتصدعت اللغة، وانحرف السلوك وما أحرى المدرس بتفهم خطورة عمله:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له
فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَل

هذا وإن سعادة المدرس وحي ضميره، وعصارة جهده وحب طلابه (ورضوان من الله أكبر) وإن ميزان الطلاب دقيق وعادل، فليحرص على دوام السعادة، وليحذر النقد إذ ما أسرعه إليه.

وبعد. فهذه أفكار مبعثرة متواضعة حول الموضوع، فإن وفّقت فيها...، فالحمد لله، وإن لم يحالفني فيها الصواب، فلست من الذين يعتبرون آراءهم وحيا أو شيئا مقطوعا به، لا يحتمل التعديل أو النسخ أو التغيير، فكل يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحبَ القبر الأعظم صلى الله عليه وسلم.

وصلى الله وبارك وسلم علي سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الهوامش

١. مجلة الرابطة ـ العد ٥١٦، جمادى الأخرى ١٤٣٠هـ
٢. جريدة الرائد، ندوة العلماء (الهند) ١٤٣٠/١٢/٢٨هـ
٣. الأعمال الكاملة لمصطفى لطفي المنفلوطي، الجزء الأول، ص: ١٠٩، الدار النموذجية، بيروت.
٤. نفس المصدر، ص: ١١٠.

٥. القراءة الراشدة (٥)

٦. محمد الرابع الندوي، منثورات من أدب العرب، المقدمة ٣

٧. الندوي، القراءة الراشدة ١/٦

كما استفدت في إعداد المقال من:

١. مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٥٦٤، شعبان ١٤٣٣هـ

٢. جريدة العالم الإسلامي ٢٣/٢٩ جمادى الأولى ١٤١٩هـ

٣. الموجه العملي لمدرس اللغة العربية لعابد توفيق الهاشمي، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ.

اللغة العربية: أهميتها ،وواجبنا نحوها

[هذه أول كلمة افتتاحية نشرت في العدد الأول من مجلة "النصيحة" العربية (التي تصدر عن معهد التعليم والتربية، بالا غنج، لكناؤ، الهند) محرم الحرام ١٤٣٧هـ، نوفمبر ٢٠١٥م].

أيها القراء الأفاضل الكرام!

عليكم سلام الله وتحياته

قبل كل شيء نحمد الله تعالى ونشكره على أنه شرفنا بإصدار هذه المجلة بلغة "الضاد" الحبيبة، اللغة التي تحمل كلمة الله، وروح محمد ﷺ، وسر الإسلام، والتي تزخر وتغنى بأروع وأنفس ما تفتقت عنه القريحة البشرية – عبر امتدادها التاريخي الغارق في القدم – من كنوز العلم والمعرفة والأدب والثقافة، التي لا نظير لها – لا كما ولا كيفاً – لدى أي أمة من الأمم الماضية أو الحاضرة على وجه الأرض.

اللغة الجميلة، التي قال عنها أمير الشعراء أحمد شوقي:

إن الذي ملأ اللغات محاسن

جعل الجمال وسره في الضاد

اللغة العبقرية الفذة، التي تعتبر أم اللغات، وأصل كل اللهجات، التي عرفتها الدنيا بأسرها، والتي أمدت - ولا تزال – الأدباء والكتاب بوابل صيب من البيان الأدبي الذي لم تشهد الدنيا له مثيلاً:

لله در لســـــــــان كلـــــــــه أدب

بفضـــــله يتحلـــى العجـــم والعـــرب

اللغة التي شهد بفضلها وثراها حتى غير المسلمين:

ومليحــــة شـــــهدت لهـــا ضـــــراتها

والفضـــل مــا شـــهدت بـــه الأعـــداء

فنحن نسجد تسبيحاً وحمداً وثناءً، ونخضع جباهنا ونواصينا شكراً وامتنانا لله المنان الحنان، على توفيقه لنا بخدمة لغة القرآن والنبوة والرسالة والتراث عبر هذه المجلة الوليدة الناشئة النافعة – إن شاء الله – النابعة من عاطفة واحدة.... عاطفة حب لغة الكتاب والسنة، وتوسيع رقعتها، ونشر ثقافتها، وصيانة علومها، والغيرة على حرمتها غيرة البدو على أعراضهم، والرد الحاسم الصارم على اللعنات والطعنات المسددة إلى عرضها، ومحاولات الجناية الآثمة على مكانتها، ودفع العوادي عن حماها، والحفاظ على أصالتها وبهائها، والكفاح من أجل كرامتها.

فالحافز الأول والأخير... وحادينا الأساسي الأصيل..... إلى إصدار هذه المجلة، هو حبنا لهذه اللغة الكريمة، الحب الذي تسرب – والحمد لله – في كياننا، وتغلغل في عروقنا وأحشائنا، وجرى منا مجرى الروح والدم، فقد أحببنا هذه اللغة منذ صبانا، وحب الصبا شديد، ونشأنا وشببنا على حبها، ومن شب على شيء شاب عليه، والآن بعد ما تجاوزنا الشباب، ودخلنا – أو نكاد ندخل – مرحلة "صحراء العمر"، أو "ساحل العمر"[1]

[1] سمى الطنطاوي الشيخوخة صحراء العمر، (ذكريات علي الطنطاوي: ٢/١٩٧) كما سماها أحمد أمين ساحل العمر، (فيض الخاطر: ٥/٤٥) علماً بأن صاحب القلم قد دخل في أواخر العقد السادس من عمره.

من حياتنا، لا نزال نحبها - العربية - كأشد ما يكون الحب، فلا نستطيع عنه حولا، ولا نبغي به بدلاً.

والحقيقة أن حب هذه اللغة من حب الله ورسوله ﷺ، وصحابته الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، كما أن تعلمها من صميم الدين والعقيدة كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "تعلموا العربية، فإنها من دينكم"[1].

ثم إن القول بأن حب العربية من حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ليس بدعاً من الأقوال، ولست أنا وحدي القائل بهذه النظرة التي تعتَبر حب العربية من حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقد قال بذلك قبلي – بقرون وقرون – أحد عباقرة الإسلام، وفطاحل العربية الإمام أبو منصور عبد الملك بن محمد إسماعيل الثعالبي (٣٥٠هـ - ٩٦١م = ٤٢٩هـ - ١٠٣٨م) وأثبته بنحو منطقي عجيب، مضمخ بريا الحب والحنان، وشذى الغرام والهيام بلغة القرآن، يسيغه كل مؤمن، بل كل إنسان له أدنى مسكة من العقل والرشد، يقول:

"من أحب الله تعالى، أحب رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، ومن أحب الرسول العربي، أحب العرب، ومن أحب العرب، أحب العربية، التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عني بها، وثابر عليها، وصرف همته إليها، ومن هداه الله للإسلام، وشرح صدره للإيمان، أو آتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمداً صلى الله عليه وسلم خير الرسل، والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من

[1] اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية، ص: ٢٠٧، مكتبة أنصار السنة المحمدية، لاهور.

الديانـة، إذ هـي أداة العلـم ومفتـاح التفقـه في الـدين، وسـبب إصـلاح المعاش والمعاد"[١].

فلا شـك أن نـزول القـرآن الكـريم بهـذه اللغـة الكريمـة، وكونهـا لغـة الحـديث النبـوي – علـى صـاحبه الصـلاة والسـلام – أضـفى عليهـا هـذه العظمة وهذه القداسة، والبقاء، والخلـود، وهـذا الحـب والهيـام، والتفـرد والتميـز، وهـذه المكانـة الفريـدة المحسـودة وغيرهـا مـن الخصـائص الـتي لا تضارعها فيها أي لغة من لغات العالم.

فمن هذا المنطلق الإيماني المبارك وحده، منطلق حب اللسان القرآني الجليل، وخدمته نسعد بإصدار هذه المجلة العربية.

ثم حينما نصـدر – نحـن الشـداة في العربيـة، نحـن الفقـراء المسـاكين، فقـراء البيـان ومسـاكين اللسـان، ونحـن المـتطفلين علـى فتـات مائـدة اللغـة العربية –حينما نصدر هذه المجلة نصدرها على استحياء.

نعـم! نقـتحم هـذا المضـمار مـع قصـر اليـد في الصـناعة والبضـاعة والأفكـار، فـنحن العجـم لا نسـتطيع – ولـو بـذلنا أقصـى مـا نسـتطيع مـن الجهد – أن نبلغ من العربية عشر معشار أهلها النـاطقين بهـا، ذوي الـذوق البياني الطبيعـي الخـالص، مـن أولـئكم المحظـوظين السـعداء الـذين رضـعوا بلبان العربية وغذوا بطعامها – إذا صح هـذا التعـبير – وفتحـوا عيـونهم في أجوائهـا، وتنفسـوا في فضـائها، وترعرعـوا علـى أرضـها، وعاشـوا تحـت سمائهـا، وتعلموهـا في أحضـان الأمهـات العربيـات العروبـة الخالصـة

---

[١] القاموس الوحيد، ٢/٤ للكيرانوي.

السليمة، التي لا تشوبها أي شائبة من العجمة، وتلقوها في ظلال الآباء العرب العرباء، وتقلبوا في المرابع الكريمة من مناطقها الأصيلة.

وحق لإخواننا العرب أن يقولوا لنا – نحن مصدري هذه المجلة – على لسان حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وأنا ومن يهدي القصائد نحونا
كمستبضع تمراً إلى أهل خيبرا

فأين نحن منهم؟؟!!

أين العجم الغارقون في العجمة – من قمة رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم – من العرب الأقحاح التي عجنت طينتهم بالعربية الخالصة الأصيلة الطبيعية.......؟!

أين الأرض من السماء؟

أين الثرى من الثريا؟

فأين الثريا وأين الثرى؟

وأين معاوية من علي؟

أين الجدول من البحر؟

أين القطرة من المطر الذكر؟

أين التكحل من الكحل؟

حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسن غير مجلوب

أين الاصطناع – التصنع – من السوس والطبيعة؟

وأين الأطفال الضعاف النحاف من الشباب غض الإهاب الذي يتفجر دماً؟

وأنّى يبلغ الضالع شأو الضليع؟ (كما قال الحريري).

ولكن – كما قيل – ما لا يدرك كله... لا يترك كله.

إن لم يصبها وابل فطل.

ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

فنحن العجم إذ نصدر – على شعورنا واعترافنا بضعفنا البياني، وعوزنا التعبيري، وفقرنا الأدبي، وبضاعتنا المزجاة – إذا لم يكن حرج في هذا التعبير – هذه المجلة العربية، نصدرها ثقة بأن شافعنا عن التقصير في التعبير والإخلال بالبيان كونُنا من غير أهل اللسان.

ثم لا نصدرها – إذ نصدرها – إلا منطلقين من منطلق واحد، منطلق الحب والغرام بهذه اللغة، ومدفوعين بعاطفة واحدة، عاطفة خدمة هذه اللغة.

نصدرها متوكلين[1] على الله، ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾.

وراجين من القراء غض الطرف عن زلل القلم الفاتر، وخلل الفكر القاصر.

وداعين سبحانه أن يأخذ بأيدينا ويملأ نفوسنا همة وعزيمة، ويحفظنا من لوثة الإعجام في كلامنا، ويضع الإشعاع في بياننا، ويمنحنا فصاحة أهل

[1] ومن جميل ما قيل – فرضاً – على لسان التوكل، قال التوكل: أنا ذاهب لأعمل، فقال النجاح: وأنا معك.

اللسان وبلاغتهم، (وما ذلك عليه بعزيز) ويتوج جهودنا بالنجاح في مرامنا، ويجذب قلوب عباده إلى هذه المجلة، ويضفي عليها هالة من القبول والتلقي والانتشار والاستقبال والنفع والحب والرضا، ما يقوي عزمنا، ويزيدنا حماساً على حماس، ونشاطاً على نشاط في عملنا، وصموداً على صمود على خطنا، وثباتاً على ثبات على المرابطة الدائمة على ثغرنا، وثقة على ثقة بعظم مقصودنا، وسمو هدفنا، ونبل غايتنا، وأن يجعل الله هذه المجلة غرة في جبين الصحافة العربية وشامة بين شقيقاتها مع الاعتراف بفضلها.

ورب قائل يقول: لماذا تضاف مجلة عربية إلى قائمة المجلات والدوريات العربية — وهي ليست قليلة في الهند — فهل هذه المجلات والجرائد العربية الصادرة في الهند مجتمعة لا تحقق الغرض المطلوب؟

أم هناك نقص يراد سده، أو مقصد خاص يدّعى تحقيقه؟

فنجيب: هذا صحيح أن في بلاد الهند الكثير من المجلات العربية — القديمة منها والحديثة — وكلها — ما شاء الله — نافعة مباركة، لا ينكر فضلها، ولا يستهان بمكانتها، فإنها تضطلع بواجبها على أحسن ما يرام، وخير ما يقصد، وتساهم في توسيع دائرة اللغة العربية، ونشر الفكر الإسلامي الصحيح، ومعالجة قضايا الساعة مساهمة تشكر وتذكر...

وأخص بالذكر منها — من الصحف العربية — صحيفة "الرائد" التي تصدر عن ندوة العلماء، ومجلة "الداعي" التي تصدر عن دار العلوم ديوبند.

فهاتان المجلتان وغيرهما من المجلات والجرائد العربية التي تصدر عن مختلف المدارس والجامعات والمنظمات الإسلامية، تؤدي واجبها أداء مرضيا نافعاً.

ولكن نرى أن هناك شباباً وطلاباً متميزين في النبوغ والإبداع تواقين طماحين نزاعين إلى السبق من أولي العزم – من المدارس والجامعات الإسلامية – يشغفون بالعربية، ويتوقون إلى أن تنشر محاولاتهم الكتابية في المجلات العربية، ويحبون أن يجدوا من التشجيع والإشادة بأعمالهم ما يكون حافزاً لتنمية قدراتهم وصقل مواهبهم، ولكن كثيراً من هؤلاء الشباب من أصحاب النبوغ والطموح لا يجدون – مع الأسف – ما يحبون ويتمنون، لا يجدون التشجيع أو التحبيذ أو الإشادة، ولو اقتصر الأمر على ذلك لهان، ولكن الأمر أدهى وأمرّ من ذلك، والحديث ذو شجون (ولي موعد مع القراء حول هذا الموضوع المبكي قريباً بإذن الله).

إن المواهب كالمعادن الثمينة في التراب، مدفونة مطمورة، إنها تحتاج إلى مخلصين حاذقين مهرة يخرجونها من الطين، فيغسلونها، وينقونها لتلمع وتشع وتعرف مكانتها.

فلماذا تعتسف المواهب، ولماذا تخنق الصلاحيات والأهليات خنقاً، ولماذا يلوى عنق القدرات التي أودعها الله الشباب ليّاً؟

ولماذا يُتعمد تعطيل المواهب وإهمالها..... فتترك غير مشغّلة ومستخدمة، حتى يصيبها الصدأ والعطل والشلل... فتعود غير نافعة، فتموت – قبل أن تتفتح وتنضج وتثمر – موتة يرثى لها، ولا قيام لها بعدها.

أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

يا قوم! إن أصحاب هذه المواهب والقدرات أمانة لدينا، نخشى أن يسألنا الله تعالى عنها إذا قصرنا في تثمير هذه المواهب وتنميتها وتوظيفها،

وتنقيتها من المثالب والشوائب وتوظيفها توظيفاً حسناً، إذا كنا قادرين على ذلك، فالموهوب دون رعاية كالنبتة دون سقيا.

كان الأساتذة في سالف الزمان إذا توسموا في طالب أو شاب نبوغاً أو موهبة خاصة قربوه وضموه إلى صدورهم، وتفننوا في تشجيعه وتقديمه وإبراز ملكاته، وما قصّروا في ذلك أيما تقصير.

فكانت هناك حاجة ماسة إلى مجلة تعتبر "مجلة الشباب"، فليسعد الشباب والطلاب أصحاب الطموحات والعزائم، ويستبشروا بصدور هذه المجلة، التي تفتح لهم صدرها بصفة خاصة، وتعطيهم حيزاً كبيراً من صفحاتها، وتعيرهم المكان اللائق بهم، فليبادروا إلى اغتنام هذه الفرصة لتنمية قدراتهم، وصقل مواهبهم بإرسال كتاباتهم التي نرحب بها من أعماق قلوبنا، ويسرنا نشرها في هذه المجلة التي من طليعة أهداف إصدارها إتاحة الفرصة للشباب المتفوقين من طلاب المدارس والجامعات الإسلامية وطالباتها.



ثم إن مقصدنا الأعظم الذي نهدف إليه عبر هذه المجلة، هو يتجلى من اسمها نفسه، فلا يحتاج إلى شرح أو بيان.

فهدفنا هو النصح، والنصح فقط، وليس نصحاً خاصاً بفئة دون فئة، أو جماعة بعينها، وإنما هو النصح العام الشامل، النصح لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، النصح للخاصة والعامة، للحكام والمحكومين، ولجميع المسلمين، بل للإنسانية جمعاء.

فديننا دين نصيحة ورحمة للعالمين أجمعين.

"الدين النصيحة، قَالُوا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ". (رواه مسلم)

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين.

وسنجعل نصب أعيننا القول الذهبي الحكيم: "نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه"، أو كما قال الإمام الشافعي — رحمه الله —: "والله لا أبالي أن يظهر الحق على لساني أو على لسان خصمي"، متبنين الموضوعات الإيجابية البناءة، متحاشين عن الموضوعات السلبية المثيرة للحساسيات، التي تؤدي إلى الخصام أو الجدال والعراك، الذي لا طائل وراءه، فقد خاصمنا وجادلنا كثيراً، وما قطفنا من ذلك إلا ثمراً مراً من التشرذم والغثائية والتشتت والهوان.

لقد آن الأوان أن نتقارب ونتحاب ونتعاون ونتناصح ونتحاور... ويشد بعضنا بعضاً.

فنكره المواجهة والمصادمة والمحاجة، ونحب المقاربة والمصافحة، مصافحة القلوب للقلوب، قبل مصافحة الأيدي للأيدي.

فسياستنا هي النصح والبناء والإصلاح والتيسير والتسامح، ورتق الفتق، ومسح الجراح وتضميدها، وتضييق الشقة إلى آخر حد ممكن، كما قال البعض: "ألتمس لأخي من عذر إلى سبعين، ثم أقول: لعل له عذرا آخر لا أعرفه".



لعله لا يخلو من الفائدة إذ ألقينا نظرة على المعنى اللغوي لكلمة "النصيحة" التي اخترناها اسماً لمجلتنا هذه.

"النصيحة" كلمة جامعة، ومعناها إرادة الخير للمنصوح له، أو حيازة الحظ له.

قيل: إنها مأخوذة في اللغة العربية من قولك: نصحت العسل، إذا صفيته من الشمع، فكأنهم شبهوا تخليص القول من الغش بتخليص العسل من الخلط.

يقول الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي موضحاً معنى هذه الكلمة:

"هي كلمة جامعة، قد لا تؤدى بتعبيرات أخرى، إذ يوجد فيها الكثير من الكلمات المفردة الجامعة التي يزخر قاموسنا الإسلامي في نصوص الكتاب ونصوص السنة النبوية مثل كلمة "البر"، كلمة "المعروف"، كلمة "المنكر"، "السلام"، "الفلاح"، كل هذه الكلمات هي كلمات جامعة يدخل تحتها الكثير من المعاني، ولذلك نجد أن هذه الكلمة "النصيحة" كلمة مفردة، لكنها جامعة لمعان كثيرة.



والمجلة ترحب بأي اقتراح بناء يرمي إلى تطوير المجلة، وتحسين مستواها مظهراً ومخبراً، جوانية وبرانية، وأداء عملها على وجه يكون أحسن وأرقى وأفضل، فمن حسن إلى الأحسن، ومن الأحسن إلى أحسن، ومن أحسن إلى الأكثر حسناً، ومن الأكثر حسناً إلى أكثر حسناً مبتغانا وقصدنا وهمنا الدائم، وعملنا الأسمى، فمن يرشدنا إليه فله شكرنا وتقديرنا، ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله﴾، والله الهادي إلى الرشد، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

عليّ نحت القوافي من معادنها
وما عليّ إذا لم تفهم البقر

الحمد لله الذي أنعم علينا بتقبل الناس مجلتنا "النصيحة" بقبول حسن منقطع النظير، لم يخطر لنا على بال، ولم يصل إليه خيال، فكأنها – المجلة – صادفت هوى في نفوس محبي العربية ورجال الأدب، والمعنيين بالفكر الإسلامي، وتجاوبت مع طموحاتهم وآمالهم وتطلعاتهم، فتمكنت منها – النفوس – ونالت من حبها ما تخطى القياس، وفاق التصور.

فـ"النصيحة" صارت اسماً حبيباً، حلواً معروفاً، أعرف وأشهر من قمر، ومن نار على علم، اسماً عزيزاً مكرماً يهتف بذكره كل لسان، وتسمع صداه بين الإخوان من هنا إلى "عمان".

فقد دوّى هذا الاسم الحبيب – اسم "النصيحة" – في "لكناؤ" العريقة، مقر ندوة العلماء عاصمة الفكر والأدب، وحرم الشريعة والعربية، كما دوى في "دلهي" العظيمة، ودوى في "حيدر آباد" مدينة العلم والحضارة والمجد، – التي تسمى بغداد الهند – كما دوى في "مومبائ" الساحرة، التي تسمى عروس آسيا، ودوى في "بنجلور" الخضراء، التي تسمى مدينة الرياض وبساتين الفيحاء، كما دوي في "مدراس" العزيزة الحبيبة، وكما دوى في "مظفرفور" الظافرة، ومدينة "بهتكل" العامرة، كما دوّى في "ديوبند" الماجدة، معقل العلم وحمى الربانية.

ولم يقتصر صيت "النصيحة" على داخل البلاد الهندية المترامية

الأطراف، بل تخطى حدودها إلى ما وراء البحار والصحارى، والجبال والفيافي.

فقد طار صيتها – محلقاً في سماء الحب والشرف – على جناحي الترحيب والقبول إلى الجزيرة العربية بلاد الحرمين الشريفين المحترمة، "المملكة" الحبيبة، مملكة القرآن والخير والأمن والأمان، "السعودية" السعيدة، أعز البلاد وأحبها إلينا، كما طار صيتها إلى "القاهرة" القائدة الزاهرة، التي تسمى كنانة العالم الإسلامي، وإلى "الكويت" الداعمة الناصرة، التي تسمى زهرة الصحراء، أو درة الخليج العربي.

كما سمع صدى اسم هذه المجلة العربية "النصيحة" في "عمان" الأمان[١]، بلد الوسطية والسلام، وفي "قطر" الظفر[٢]، دارة الأحرار، ومثابة الأبطال، وموئل الكرام، وفي "الإمارات" ذات الأمجاد والخيرات والبركات، وبلاد الانفتاح والحرية والوئام، وغيرها من الأقطار والبلدان.

وكنا نتمنى – أيضاً – أن تصل المجلة إلى "الشام"، التي تسمى "دار السلام"، و"معرض الجمال"، وتوصف بأنها "درة تاج الكون"، و"بيت القصيد" في (معلقة) الكون، كما تسمى عاصمتها "دمشق" بـ "أخت العرب"، و"ظئر الإسلام"، و"مدينة معاوية"، وعبد الملك، وصلاح الدين.

فكم كنا نودّ أن تصل مجلتنا هذه إلى الشام أيضاً، إلى الشام بصفة عامة، ودمشق بصفة خاصة، ولكنها تعيش هذه الأيام – كما يعرف كل

---

[١] مركبان إضافيان.

[٢] مركبان إضافيان.

إنسان، في ظلال الرعب والحديد والنار، وتعاني من تهاويل الظلم والخراب والدمار، التي لم يشهد التاريخ لها مثيلاً.

تعيش – والله – أهوالاً، لو كانت خيالاً، لكانت أغرب من الخيال.

فهيهات! فكيف تصل المجلة إلى الشام، وهي ممتحنة معذبة محترقة بالنار التي أشعلها على أهلها ابنها العاق الكفار (بفتح الكاف) الجزار "البشار"، الذي آن أوانه، وقرب زواله، الذي صار قاب قوسين أو أدنى، إن شاء الله.

ونعود إلى الموضوع، فنقول:

لقد كان لصدور المجلة – والحمد لله – صدى في عواصم الأدب، وحواضر الثقافة، وأجواء المدارس، مدرجات الجامعات، وفي مجالس الأساتذة، ومجامع الطلاب، ونوادي الأدباء والكتاب.

فقد تهافت عليها هواة العربية والمغرمون بالأدب، وأرباب العلم تهافت الصادي على الماء العذب الزلال، والجوعان على الطعام الشهي.

فالترحيب الحار، والقبول الحسن، كانا يرافقان "النصيحة" أينما وصلت، وحيثما قرئت، فاستقبلت بيد الشوق والإعجاب، وحظيت بوسام الاحتفال والاحتفاء بمرآها ومحتواها، من قِبَل كل من رآها، واطلع على ما نُشر فيها من بحوث ومقالات.

كأن النفوس كانوا منها – المجلة – على ميعاد، وإلى صدورها في حنين وانتظار واشتياق، أو كأن قلوبهم كانت فارغة، فأتاهم هواها – هوى المجلة – فصادف قلوباً فارغة، فتمكن منها:

أتـاني هواهـا قبـل أن أعـرف الهـوى
فصـادف قلبـاً فارغـاً فتمكنـا

ثـم إن هـذا التقصـف العظـيم علـى المجلـة يطمئننـا بصـحة اتجاههـا، وسـلامة أفكارهـا، وسـداد رؤيتهـا، وجـودة طرحهـا، ورشـاد مسـيرتها، وغزارة محتواها، فألسنة الخلق أقلام الحق، فلك الحمد يا رب!

وفي نفس الوقت يقتضي هذا القبول النادر للمجلة أن نجعـل جهودنـا أضعافاً مضاعفة للاحتفـاظ بمستوى المجلـة، بـل إصـدارها بشـكل أحسـن، وأجمل في المستقبل!

قـد يظـن الـبعض مـن قرائنـا الأفاضـل مـا حكينـا مـا لقيـت المجلـة مـن القبول غير العاديّ، وما سجلته من رقم قياسي في حصـد الإعجـاب بهـا، وما فضلها الله تعالى – على حداثتها – علـى كـثير مـن غيرهـا مـن المجـلات -على ما لها من تقـدير في قلوبنـا، واعـتراف بـدورها - فجعلـها شـامة بين أخواتها.

قد يظن البعض أننا بالغنا أو تزيدنا، أو تكثرنا بهذا الصدد.

فوالذي قبّح – بل حرّم – التزيد، وشنّع علـى المبالغـة والتكثـر، مـا بالغنا ولا تزيدنا ولا تكثرنا، ولم نأتفك مدحاً، ولا اخترعنا ثناء للمجلة، ولا اختلقنا إطراء، ولم نزدها بفضيلة، بل قلنا ما علمنا وما رأينا وسمعنـا وشعرنا، والله شهيد على ما قلنا، وكفى بالله شهيداً.

فمن شاء فليثق، ومن شاء فليرفض، ومن شاء فليصدق، ومن شاء فلينكر.

على أننا نعتذر إلى حضرات القراء النبلاء مما اضطررنا إليه مـن سـرد

ما فيه من الثناء علينا، نرويه نحن عن نفوسنا حتى يقال لنا: "مادح نفسه يقرئك السلام".

بل حينما كان المادحون يمدحوننا، ويثني علينا المخلصون، ويهنئونا بصدور المجلة، كنا نتذكر قول ابن تيمية – رحمه الله – وهو من هو في عظمة شأنه وجلالة أمره، وتبحر علمه، الذي كان يقول إذا مُدح في وجهه:

والله إني إلى الآن أجدد إسلامي في كل وقت، وما أسلمت بعد جيداً، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنـــا المكـــدي وابـــن المكـــدي
وهكـــذا كـــان أبـــي وجـــدي

ثم حينما نتحدث عما لقيت المجلة من الترحيب الحار المنقطع النظير بصدورها، ونعبر عن فرحنا وسرورنا على ذلك، فليس معنى ذلك أننا نظن أننا صنعنا بطولة من البطولات، أو حققنا معجزة من المعجزات في دنيا الصحافة العربية.

لا والله..... وحاشا لله.

إذاً نكون مثل من رووا عن حائك أنه صلى ركعتين، وجلس ينتظر الوحي.

بل نتحدث عن ذلك كنعمة من نعم الله علينا. ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾.

فما هذا القبول والإعجاب بالمجلة إلا من كرم ربنا وفضله علينا.

فالحقيقة أن لساننا لعاجز عن أداء حق الشكر لله المنان الحنان، على ما

قدر لمحاولة متواضعة – قمنا بها في سبيل خدمة اللغة العربية – هذا النجاح والتوفيق العظيمين. ﴿وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب﴾.

فما بصلاحياتنا أو كفاءاتنا أو قُدُراتنا، قدرنا على إصدار هذه المجلة الناجحة على هذا المستوى الرفيع المحسود الممتاز، مظهراً ومخبراً، بل بتوفيق الله وفضله، الذي يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وبحول الله وقدرته، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ندعو الله سبحانه أن يظل نداء "النصيحة" غضاً طرياً، مدوياً مجلجلاً، يذيع الخبر والنصح والحق، مسموعاً – دائماً أبداً – يطوي الزمان، لا يقف مسيره حد على الأرض، ولا بُعدٌ في الزمان، يصل إلى كل مكان يسمع فيه الأذان.

ونسأل الله الثبات والاستقامة على الجادة، والتوفيق المستمر والسلامة من المعوقات، وما أكثرها!

ونرحب بكل من يرشدنا إلى أخطائنا وعثراتنا، ونكون جد شاكرين لمن يهدينا آراء واقتراحات، ترمي إلى تحسين المجلة أكثر وأكثر، وجعلها أعظم نفعاً وجذباً لعدد أكبر من القراء، وحظوة بالقبول لديهم، واحتفاء بها من قِبلهم.



لقد قوّى صدور هذه المجلة رأي من يرى أن الجمهرة العامة من الشباب في حنين، بل في لهفة وترقب إلى الصحافة القوية الثابتة، الصحافة الصريحة الواضحة، الحيّة المحيية، الصحافة المحركة المزلزلة الهازة، الصحافة المبصّرة المعبرة المسؤولة، المثيرة المنيرة المحررة، الموقظة المكهربة.

نعم! إنهم يحنون إلى الصحافة القوية المتميزة بأسلوبها البياني الخالص، الصحافة الثابتة على موقفها الصارم "أثبت أحد"، الصحافة الصريحة فيما تدعو إليه من أفكار وآراء، غير متقنعة بقناع: "الاحتياط" المزعوم، الصحافة الواضحة في استراتيجيتها، واضحة الأهداف والمعالم، الصحافة الحية باقتباسها من الأسلوب القرآني الحكيم، والأسلوب النبوي البليغ، الصحافة المحيية للعواطف الميتة، المحركة للعزائم، المزلزلة لعروش الشر والفساد، الصحافة الهازة لأوتاد النفوس، الصحافة المبصرّة بالرؤية المعتدلة للقضايا، المعبّرة بلسان الأمة، الناطقة عن ذات نفسها، الصحافة المثيرة للهمم والإرادات، المنيرة للجادة المستقيمة، المحررة من رواسب التقاليد، الصحافة الموقظة للشعور بفداحة الخسارة، وعظم الكارثة، وفظاعة الوضع، وبالتألم لهوان المسلمين، والتوجع على جراحاتهم وآلامهم، المكهربة للطاقات المعطلة الخامدة.

نعم! الشباب – بصفة خاصة – يحنّون إلى كتابات متميزة بقوة الأداء، وسمو التعبير، وجمال البيان، وحلاوة اللفظ، وإبداع الصورة.

إنهم يتعطشون إلى الكتابات التي تنفخ روحاً جديدة، روح العمل والإقدام، والسبق والطموح، روح التضحية والكفاح، وتعيد إلى القلوب حراراتها ودفئها، وإلى الأذهان والعقول حركتها وفاعليتها، وإلى الأبدان حماسها ونشاطها.

إلى كتابات ثائرة على العطالة والبطالة "عرق العامل أزكى من مسك العاطل"، قاضية على الجمود الذي أخّرنا، والكسل الذي عطّل مواهبنا وقدراتنا.

إلى كتابات تفيض حيوية وإشراقة وروعة وجمالاً، وقوة وتأثيراً وبياناً.

لقد سئم الشُبّان الطماحون الأسلوب البارد التقليدي العادي، الذي أصبح طابع معظم الكتابات المنشورة اليوم، التي لا جدّة فيها ولا طراوة، ولا حيوية، ولا جمال، ولا تبعث على الطموح، ولا تسمن ولا تغني من جوع.

ولا يظنَّنَّ ظان أننا نقلل أهمية كتابات المعاصرين، أو المخضرمين من كتاب العربية الأفاضل المحترمين، ونحط قيمة أعمالهم الأدبية، حاشا لله، ونعوذ بالله من أن ينحط تفكيرنا إلى هذا الحضيض، فلكتاباتهم دور مشكور مذكور معروف في مجال خدمة لغة الضاد.

فلا يعني ما أسلفنا من التأكيد على ضرورة كتابات أقوى وأبلغ إلا أن الأوضاع الحرجة المتأزمة التي تعيشها الأمة تحتاج إلى كتابات غير عادية.

لأن إصلاح الأوضاع غير العادية، يحتاج إلى جهود غير عادية، إلى خطب نارية، إلى كتابات تلتهب حماسة وقوة مثل كتابات ومقالات "العروة الوثقى"، و"الإسلام الممتحن"، ومؤلفات ومحاضرات أبي الحسن.

فنحن نحتاج إلى صحافة الكرة والهجوم، والجرأة والشجاعة، لا إلى صحافة الدفاع أو النفاق، أو "اللف والدوران"، أو صحافة: "يا الله مشّ"، الصحافة التي تمشي وراء كل ناعق وشاغب، وشاطر وماكر، وتهيم في كل واد وناد.

نحن نحتاج إلى الصحافة أو إلى "الأقلام الثائرة القوية المتدفقة كالينبوع، الهاطلة كالشلال، الساخرة بالآلهة الباطلة، العامرة بالإيمان،

الأقلام التي تزمجر كالعاصفة، وتلتهب كالشعلة، وتحترق كالشمعة، وتشرق كالسيف"[١].

إلى الكتابات الأدبية المؤثرة التي أشار إليها الطنطاوي قائلاً:

"وهل في الدنيا شيئ — بعد الدين — أعظم من الأدب، إنه كلام، ولكنه كلام يجر مقالاً، إنه كلام، ولكنه يقيمكم إن كنتم قاعدين، ويقعدكم إن كنتم قائمين، ويدفعكم إلى الموت، ويأخذكم بأيديكم إلى الحياة، وكذلك يتصرف الأدباء بالناس"[٢].

لعل هذا المقتبس من كلام الطنطاوي يمثل مقصد ما أريد أن أقول، وما أدعو إليه خير تمثيل.

وإذا كنت أكثر وضوحاً مثلت بصحافة (مولانا أبو الكلام آزاد) الذي قال عنه كبير أبطال حركة تحرير البلاد شيخ الهند مولانها محمود الحسن الديوبندي (رئيس قسم الحديث، وشيخ المشايخ بدار العلوم ديوبند سابقاً): "إن هذا الفتى ذكّرنا بدرسنا الذي نسيناه".

تلك الصحافة التي حرّرت البلاد، وأيقظت العباد، وطردت الاستعمار، وأقضت مضاجع الأعداء، وطيّرت نومهم.

الصحافة وسيلة من وسائل الإنعاش والإيقاظ والإصلاح، لا التنويم والتخدير والإفساد وقضاء الوقت.

---

[١] بين القوسين جمل مقتبسة - بتعديل - من "الإسلام الممتحن"، للأستاذ محمد الحسني رحمه الله.

[٢] ذكريات علي الطنطاوي ٣/٢٤٣.

وهي مسؤولية وتكليف، لا تشريف أو ترف، ومنبر مؤثر من منابر توجيه الأمة وإرشادها، وإصلاح انحرافها، وتقويم اعوجاجها، وتصحيح مسيرتها.

فالصحافة هذه الأيام هي التي توجه البلاد والأمة وترشد مسيرتها، وتصحح اتجاهها.

وإنها سلاح ذو حدين.

فإذا كان الغير يستخدمها لتحقيق مقاصده، فلنستخدمها نحن لتحقيق أهدافنا السامية، التي ترمي كلها إلى ما فيه خير البشرية وفلاحها.

قد يقول قائل: أنى لنا من صحافة السابقين، وكتاباتهم المبدعة المعجزة؟؟؟

فيجاب: كل شيئ ممكن إلا النبوة، فقد ختم عليها بخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، فلا نبي بعده.

فالسماء هي السماء، والأرض هي الأرض، وسنة الله هي هي.

فاللاحقون أيضاً قادرون على أن يكونوا كالسابقين، فهذا العم "المعري" نفسه أسكت معارضيه القائلين: "ما ترك الأولون للآخرين"، أي الآخِرون غير قادرين على الإتيان بما أتى به السابقون، فقال:

وإني وإن كنت الأخير زمانه

لآت بما لم تستطعه الأوائل

فكل شيئ ممكن، ولكن بشرط الجد والاجتهاد: "شمّر عن ساعد المسعى، وأبشر بحسن الرّجعى"، وكما قال الشاعر:

علــى قــدر أهــل العــزائم تــأتي العــزائم
وتـــأتي علـــى قـــدر الكـــرام المكـــارم
وتعظـــم في عـــين الصـــغير صـــغارها
وتصـــغر في عـــين العظـــائم العظـــائم

فنحن لا ندعي أننا قادرون على تقديم هذه الصحافة، أو الكتابات المطلوبة، ... التي أشرنا إليها فيما مضى من الكلام.

ولكننا نحاول – مستعينين بالله - أن نقدم ما يشبهها، أو ما يقاربها، "السعي منا، والإتمام من الله"، ﴿وَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾.

ونتمنى أن نمشي رويداً رويداً في هذه الجادة المطلوبة، و"من سار على الدرب وصل"، و"من جدّ وجد".

وندعو الله سبحانه وتعالى أن يقيض من يجدد هذه الصحافة العالية – الراقية – كما يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد الدين، يجدد أو يعيد صحافة أو أساليب الكتاب العمالقة الأفذاذ مثل آزاد، ومحمد عبده، والعقاد، والرافعي، وأحمد أمين، وحسن زيات، والندوي، ومحمد الحسني، وعبد القدوس الأنصاري، والطنطاوي، وغيرهم من نوابغ الكتاب المبدعين الممتازين، الذين كانوا أنبياء الكلام ورسل البيان – إذا لم يكن في هذا التعبير سوء أدب – الذين كانت الصحافة – نفسها – تعتز بل تزهو بهم، والذين كانوا نجوماً متلألئة في سماء الصحافة والأدب والبيان، لو اقتدى أحد منا بأحدهم منهم – ممن مضى ذكرهم – في أسلوبه البياني، لأبدع وأجاد، وتكللت كتابته بالنجاح.

وإنه لغز يحتاج إلى فك، أن عهد الاستعمار أنجب كتاباً عباقرة ميدعين

أصحاب طراز خاص، ومدراس خاصة متميزة — في الأسلوب الكتابي — يُعرفون بها، ولكن لما وليّ الاستعمار، وطوي بساطه، لم تنجب الأمة إلا أقزاماً — من الكتاب والصحفيين — مقلدين محاكين غير مبدعين.

وليس هذا خاصاً بميدان الكتابة والصحافة فقط، بل يعم ميادين أخرى من السياسة والخطابة والشعر وغيرها.

فحكيم الأمة، شاعر الإسلام، الدكتور محمد إقبال وأمير الشعراء شوقي، وشاعر النيل حافظ إبراهيم، والمفكر المصلح عبد الرحمان الكواكبي، وعبقري الأمة مولانا أبو الكلام آزاد، وغيرهم من الجهابذة والصناديد، وذوي الكفاءة والمقدرة والنبوغ والبراعة والعلم والتقوى لم يكونوا إلا في عهد الاستعمار.

فلما نجانا الله من ذلك العهد البائد المشين الذليل — عهد الاستعمار الذي يسميه الطنطاوي عهد الاستخراب والتدمير — لم نر في حجم هؤلاء المشار إليهم آنفا.

فلماذا عقمت رحم الزمان عن إنجاب النوابغ والعباقرة فيما بعد الاستعمار؟

والجواب — كما أشرنا آنفاً — أن الزمان هو الزمان، لم يتغير ولم يتبدل، ولم تتبدل فيه سنة الله.

نعيب زماننا والعيب فينا

فما لزماننا عيب سوانا

ولكن الهمم هي التي تراجعت، والعزائم هي التي خارت، والجهود هي التي قلت، إن لم نقل تلاشت.

فلو ملكنا إرادة فولاذية كما كان سلفنا يملكونها، لنجحنا كما نجحوا، نجحنا في بناء كياننا، وصقل مواهبنا، وصنع مستقبلنا، ولأتينا بالعجائب، وحققنا مثلما حقق من قبلنا من جلائل الأمور.

فإذا صحت العزائم، وتجددت الهمم، ونشطت الإرادات، دار الزمان دورته، وعاد ينجب العمالقة كالماضي، وأرتنا سنة الله — ما أرت أهل الأزمنة السابقة — من الغرائب والعجائب، والمعجزات والبطولات.

كيف وصل سلفنا إلى ما وصلوا إليه من المجد والعظمة؟ وكيف كانوا يجتهدون؟ لبيان ذلك نقدم مثالاً واحداً واضحاً — فيما يلي — لأحد الأئمة الأربعة، وهو الإمام الشافعي رحمه الله، يقول في أبيات تنسب إليه:

سهري لتنقيح العلوم ألذّ لي
من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طرباً لحل عويصة
أشهى من مدامة ساقي
وصرير أقلامي على أوراقها
أحلى من الدوكاء والعشاق
وألذّ من نقر الفتاة لدفها
نقري لألقي الرّمل عن أوراقي
يا من يحاول بالأماني رتبتي
كم بين مستغلٍ وآخر راقي
أ أبيت سهران الدجى، وتبيته
نوما، وتبغي بعد ذلك لحاقي

صدقت أيها الإمام الهمام! فالنائم الكسلان العطلان، لا يدرك المجد، والساهر المطلّق لراحة الفراش الناعم، المتجافي جنبه عن المضجع، هو الذي يتألق نجمه ويبلغ المعالي.

فليجرب شباب عصرنا من أصحاب الطموح والأشواق والتطلعات ذلك، فمن جدّ وجد، ومن رقد فقد، والأمر كما قيل: "الراحة في عدم الاستراحة".

وأما الذي يريد المجد بدون أن يسهر ويضحي بالراحة، ويتوفر على الجد والاجتهاد، فنهدي إليه – معتذراً – هذا البيت:

أوردها سعد وسعد مشتمل
ما هكذا تورد يا سعد الإبل

وأخيراً أودّ أن أقول كلمة لا بد منها، حتى لا يكون ما دعوت إليه – من الصحافة والكتابات الثائرة غير العادية – وما عرضت من مرئياتي ومقترحاتي حولها – مثار الشكوك والشبهات أو القيل والقال.

فأود أن أختم تصوراتي ومقترحاتي المذكورة فيما أعلاه بكلمة فاصلة حاسمة لا لبس فيها ولا غموض، واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، كلمة لا تدع مجالاً لظن ظان أو شكٍّ شاكٍّ، وهي:

إنني أحب أو أدعو إلى الكتابات التي تكون فيها حماسة الشباب وقوتهم وطموحاتهم وتطلعاتهم، كما تكون فيها حكمة الشيوخ وبصيرتهم، وعقولهم وتجاربهم.

فالحماس وحده قد يضر، كما أن الحكمة وحدها قد لا تكفي.

فإذا مزج الحماس بالحكمة، وطُعّمت القوة بالبصيرة، وعجنت الأشواق والطموحات بالتجارب والخبرات، ولطفت – أو خففت – حدة العواطف، وبرّدت حرارة المشاعر والعواطف برشات من التعقل والتأني والتأملات، وقطرات من الدموع والعبرات، لأتى هذا الامتزاج الجميل والاختلاط الرائع بما يدهش ويحّير، ويسر ويروع، وينفع ويفيد، ويحقق – بإذن الله – ما تتطلبه الأوضاع من إصلاح شامل، وتغيير كامل، ومن الصمود في وجه التيارات والأعاصير التي لا تزال في أوجها وقوتها وشدتها وهياجها، ومواجهة الأحداث والتقلبات والفتن التي لا أول لها ولا آخر.

علـــيّ نحــت القـــوافي مـــن معادنهـــا
ومـــا علـــيّ إذا لم تفهـــم البقـــر[1]

❖ ❖ ❖

كما كنا أوضحنا في العدد الأول من المجلة، أنها للجميع، ونخاطب فيها الجميع، ونستفيد في تحريرها وإصدارها من كفاءات الجميع.

فهي – المجلة – ليست خاصة بطائفة خاصة، أو جماعة بعينها، أو طبقة معينة، وإنما هي "النصيحة" عامة، لكل من أراد النصح والخير والصلاح والسعادة لنفسه ولأهله ولمجتمعه الذي يعيش فيه:

ورصّـــعت فيـــه الـــدر حتـــى تركتـــه
يضـــيئ بـــلا شمـــس، ويســـري بـــلا قمـــرْ

---

[1] وفي رواية: البشر.

فعينـــــاه سِـــحرٌ، والجـــبين مهنـــدٌ
ولله در الــــرّمش والجيـــد والحَــــوَرْ

والله أكبر، ولله الحمد، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.



تعريف موجز بالمؤلف

- حصل على شهادة "العالمية" سنة ١٣٩٩هـ وشهادة "الفضيلة" سنة ١٤٠١هـ من كلية الشريعة بندوة العلماء، لكناؤ، الهند.
- حصل على شهادة "الليسانس" سنة ١٤٠٥هـ من كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- مدير معهد التعليم والتربية ومدرس به، بالا غنج، لكناؤ.
- رئيس تحرير مجلة "النصيحة" العربية الفصلية، التي تصدر عن معهد التعليم والتربية، بالا غنج، لكناؤ (الهند).
- رئيس تحرير مجلة "الصحوة الإسلامية" العربية ــ التي تصدر عن الجامعة الإسلامية دارالعلوم حيدرآباد، ــ الهند، سابقاً.
- رئيس المعهد العالي للغة العربية وآدابها بالجامعة الإسلامية دارالعلوم حيدرآباد، ــ الهند، سابقاً.
- له مشاركات في المؤتمرات والندوات العلمية والأدبية المحلية والدولية.
- له مئات من البحوث نشرت في المجلات المحلية والدولية (مثل: مجلة "الفيصل" و"الحرس الوطني" و"الرابطة") تحت موضوعات علمية وأدبية وثقافية.

من مؤلفاته :

١. **الروائع والبدائع في البيان النبوي**، صدر له ثلاث طبعات، طبعتان عن دارالصحوة بمصر، وطبعة عن دارالشهاب بدمشق.

٢. **خصائص اللغة العربية ولماذا يجب تعلمها؟**، صدرت له طبعتان، طبعة عن دارابن كثير في دمشق، وطبعة عن دارحسّان، حيدرآباد، الهند.

٣. **قبس من عزيمة سلفنا**، صدر عن دار حسّان، حيدرآباد، الهند.

٤. **اللحن في العربية بين غيرة السلف وعقوق الخلف**، صدر عن دار حسّان، حيدرآباد، الهند.

٥. **كتاب العربية والأدب، صدر عن دار حسّان**، حيدرآباد، الهند.

٦. **أساس اللغة العربية**، صدر عن دارابن كثير بدمشق.

٧. **إلى شباب المسلمين**، صدر الكتاب عن دار ابن كثير بدمشق.

كتاب يحتوي مقالات لكبار العلماء كابن الجوزي والإمام الندوي، والأستاذ المودودي، والدكتور محمد إقبال وغيرهم، كما يضم الكتاب مقالا للكاتب، أيضا، بعنوان "قبس من عزيمة سلفنا".

٨. **الإمام الندوي في محراب التاريخ الإسلامي**، صدر عن دارحسان العربية حيدرآباد، الهند.

٩. **رجال من العرب والعجم**، صدر عن دارحسان العربية حيدرآباد، الهند.

١٠. **صيد القلم** (مجموع مقالات وخواطر)، صدر عن مؤسسة الهداية للدراسات والبحوث الإسلامية، جيبور ـ الهند.

١١. **نظرة عابرة على ترجمات معاني القرآن الكريم باللغة الأردية، تحت التأليف.**

١٢. **نعم الله على نعمان**، صدر عن معهد التعليم والتربية ، بالا غنج ، لكناؤ.

١٣. **العقد الهندي من حبات المرجان السعودي**، صدر عن معهد التعليم والتربية، بالا غنج، لكناؤ.

١٤. **تحية العجم لعندليب الحرم**، (هذا الكتيب يتحدث عن الشيخ الدكتور عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس، إمام وخطيب المسجد الحرام) صدر عن معهد التعليم والتربية، بالا غنج، لكناؤ.

١٥. **خطابات فقيد الحرم**، (هذا الكتيب يشتمل على انطباعات المؤلف عن الدكتور الشيخ عمر بن محمد السبيل إمام وخطيب المسجد الحرام رحمهما الله، وعلى رسائله الموجهة إلى المؤلف) صدر عن معهد التعليم والتربية، بالا غنج، لكناؤ (الهند).

١٦. **عقيدة التوحيد: خصائص وحقائق**، صدر عن معهد التعليم والتربية، بالاغنج، لكناؤ (الهند).

١٧. **جيل الصحابة الأبر، أفضل أجيال البشر**، صدر عن معهد التعليم والتربية بالاغنج، لكناؤ (الهند).

١٨. **صدى القلم (مقالات مختارة في الفكر والدعوة والأدب).**

١٩. **حوار طلابي تمثيلي حول اللغة العربية**، جاهز للطبع.

٢٠. **تحية العجم للعرب** (كلمات التحية والترحيب بكبار الضيوف العرب) جاهز للطبع.

مقالات ومؤلفات قام بتعريبها محمد نعمان الدين الندوي:

٢١. **الجزء الثالث من رجال الفكر والدعوة للإمام الندوي**، ماثل للطبع.

٢٢. **قصة دراستي القرآنية للإمام الندوي**، طبع بدار ابن كثير بدمشق.

- كما قام بتعريب كتابات أخرى للإمام الندوي، والشيخ محمد برهان الدين السنبهلي وغيرهما من رجال الفكر والدعوة والعلم.

